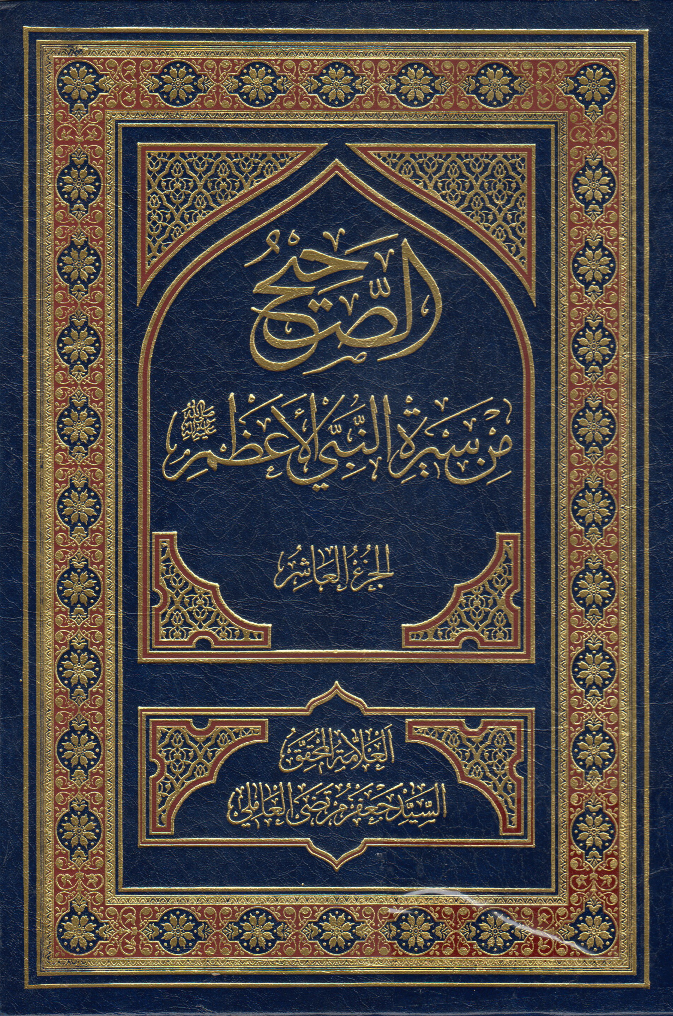


الصحيح
من سيرة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله
الجزء العاشر
العلامة المحقق
السيد جعفر مرتضى العاملي


بسم الله الرحمن الرحيم


شبكة الفكر
alfeker.net





العلامة المحقق
السيد جعفر مرتضى العاملي

الجزء العاشر

٤

الصحيح من سيرة النبي الاعظم صلى الله عليه وآله

(الجزء العاشر)

للعلامة المحقق السيد جعفر مرتضى العاملي

الناشر: دارالحديث للطباعة والنشر

المطبعه: دارالحديث

الطبعة: الثانية / ١٤٢٨ هـ ق ـ ٢٠٠٧ م ـ ١٣٨٦ هـ ش

عدد المطبوع: ١٠٠٠ دورة



قم، شارع معلم، قرب الساحة الشهداء، الرقم ١٢٥

الهاتف: ٧٧٤٠٥٤٥ ـ ٧٧٤٠٥٢٣ ـ ٠٢٥١ / فاكس: ٧٧٤٠٥٧١ ٠٢٥١ / ص.ب ٤٤٦٨ / ٣٧١٨٥

لبنان ـ بيروت ـ حارة حريك ـ خلف الضمان الاجتماعي ـ بناية فروزان. تلفاكس: ٢٧٢٦٦٤ ـ ١ ـ ٠٠٩٦١

BEIRUT - LEBANON Haret Herik Behind Center Forozan Bldg TeleFax: + 961 1 272664

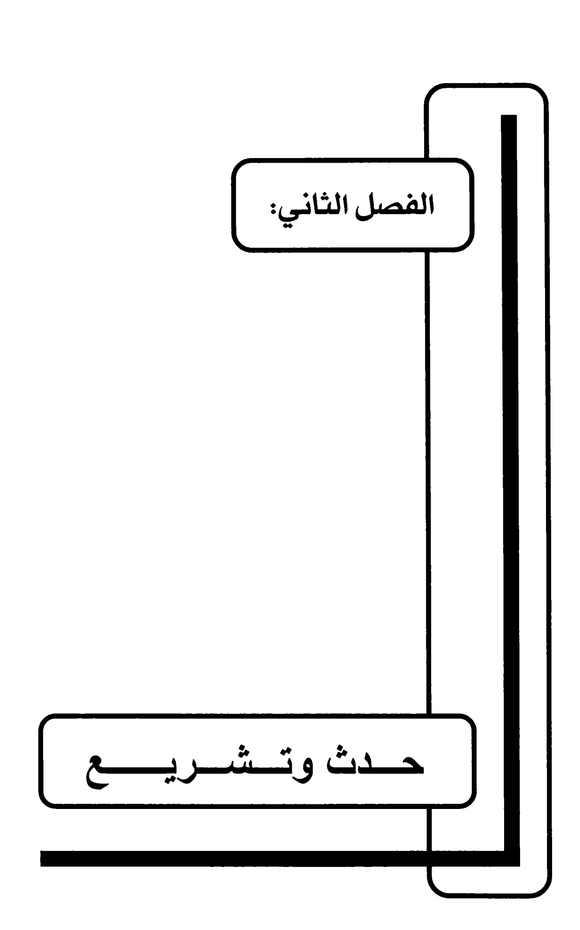
http://www.hadith.net

hadith@hadith.net

ISBN (SET): 978 - 964 - 493 - 171 - 0

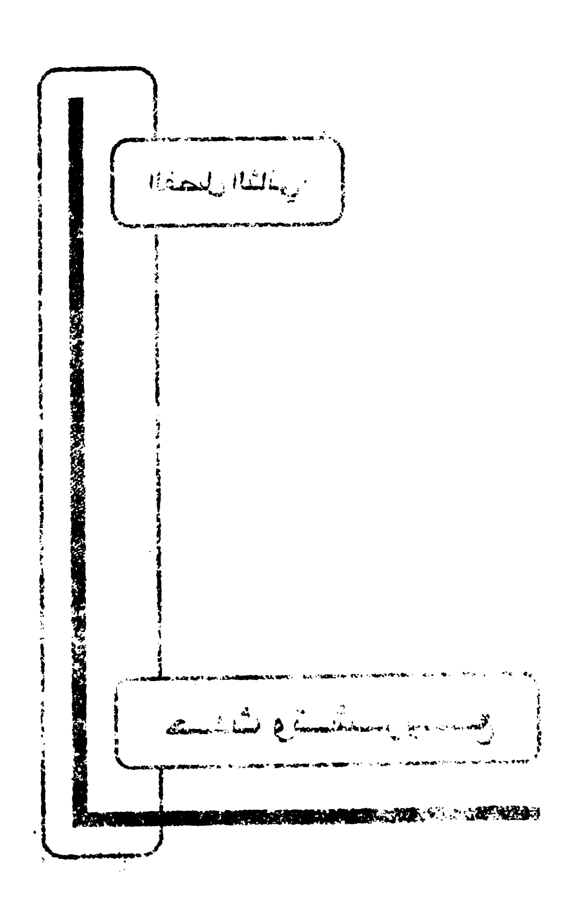
ISBN: 978 - 964 - 493 - 181 - 9

9 789644 931710



الفصل الثاني:

حـــدث وتـــشـــريـــع



الفصل الثاني

التعريف بالمستشرق شاخت

ماذا في هذا الفصل؟!

إننا لاستكمال الحديث عن الأمور المرتبطة بغزوة ذات الرقاع نتحدث في هذا الفصل عن عدة أمور بالترتيب التالي:

١ ـ إنهم يقولون: إن صلاة الخوف قد شرعت في غزوة ذات الرقاع، وصلاها النبي «صلى الله عليه وآله» بأصحابه فيها، وهي أول صلاة خوف في الإسلام.

ونحن نرى: أن ذلك غير سليم، وأن صلاة الخوف قد شرعت في الحديبية، وهي قبل ذات الرقاع.

بل قد يقال: إنها قد شرعت قبل الحديبية أيضاً.

٢ ـ ثم نشير إلى الاختلافات الواردة في كيفية صلاة الخوف.

٣ ـ ونتحدث أيضاً بإجمال عما يقال عن عدم صلاة الخوف في غزوة الخندق، لأنها لم تكن شرعت آنئذٍ..

٤ ـ ثم نعقب ذلك بفلسفة تحليلية لتشريع صلاة الخوف في حدود ما تسمح به المناسبة.

٥ ـ ثم نتوجه إلى الحديث عن قصر الصلاة، حيث يقال: إن ذلك قد حدث في غزوة ذات الرقاع أيضاً.

٦ ـ ثم نستطرد في الحديث إلى موضوع آخر يرتبط بقصر الصلاة، وهو ما اشترطته الآية للقصر، من كونه في مورد خوف الفتنة، وذلك من أجل بيان المراد من هذا الشرط، ثم المبرر لإدراجه في الآية الشريفة.

٧ ـ ولا ننسى أن نستطرد أيضاً إلى موضوع قصر عثمان للصلاة في منى وعرفات في أيام الحج، وما نشأ عن ذلك وما انتهى إليه.

ونذكر أيضاً: أعذاراً وتوجيهات لهذا الأمر لا يمكن أن تصح، ولا يصح الاعتماد عليها.

٨ ـ ثم نختم الحديث عن هذا الموضوع بالإشارة إلى أن القصر في السفر رخصة أم عزيمة؟ من أجل أن يتضح المقصود من آية القصر، حيث إن الحديث عن القصر فيها إنما هو بصيغة: ليس عليكم جناح أن تقصروا.

٩ ـ وأما الحديث عن أن آية التيمم قد نزلت في غزوة ذات الرقاع أيضاً فنرجئه إلى الحديث عن غزوة المريسيع بعد الخندق، حيث يتم التعرض له هناك إن شاء الله تعالى..

هذه خلاصة ما سوف نتحدث عنه في هذا الفصل. وأنت ترى: أنه كله حديث عن تشريعات ادُّعي أنها قد حصلت في غزوة ذات الرقاع، ثم استطرادات مفيدة في نطاق الحديث عن هذه التشريعات.

ونحن نرجو أن يكون فصلاً مفيداً للقارئ وممتعاً له في نفس الوقت.. فإلى ما يلي من مطالب، ومن الله نستمد العون والقوة، وعليه نتوكل..

صلاة الخوف:

يقال: إن صلاة الخوف قد شرعت في غزوة ذات الرقاع، حيث إنه

«صلى الله عليه وآله» في هذه الغزوة واجه جمعاً من الأعداء «فتقارب الجمعان، ولم يكن بينهما حرب. وقد خاف بعضهم بعضاً، من غير أن يغيروا عليهم، فصلى بهم النبي «صلى الله عليه وآله» صلاة الخوف، ثم انصرف بالناس»[1].

وهي أول صلاة خوف في الإسلام[2].

ونقول:

---

(١) راجع: تاريخ الخميس ج١ ص٤٦٤ والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص٢٦٤ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ قسم ٢ ص٢٨ و ٢٩ والسيرة الحلبية ج٢ ص٢٧١ وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص٢٠٠ والمغازي للواقدي ج١ ص٣٩٦ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٦٠ والبداية والنهاية ج٤ ص٨٣ وراجع: صحيح البخاري ج٣ ص٢٤ و ٢٥ وراجع: الكامل في التاريخ ج٢ ص١٧٤ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٢٢٧ وأنساب الأشراف ج١ ص٣٤٠ وراجع: طبقات ابن سعد ج٢ ص٦١ وتفسير البرهان ج١ ص٤١١ عن من لا يحضره الفقيه والثقات ج١ ص٢٥٨ وزاد المعاد ج١ ص١١٠ والسيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢١٤ وراجع: نصب الراية ج٢ ص٢٤٦ و ٢٤٧ وراجع صحيح مسلم (باب صلاة الخوف) ج٢ ص٢١٤ ونهاية الأرب ج١٧ ص١٥٨ والمواهب اللدنية ج١ ص١٠٧ والدر المنثور ج٢ ص٢١٢ و ٢١٣ عن أبي داود، وابن حبان، والحاكم وصححه والبيهقي، وعن مالك، والشافعي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة والدارقطني.

(٢) حبيب السير ج١ ص٣٥٧ والطبقات الكبرى لابن سعد ج٢ ص٦١ والمواهب اللدنية ج١ ص١٠٧ والجامع ص٢٧٩ وراجع المصادر المتقدمة أيضاً، فبعضها قد ذكر ذلك ونصب الراية ج٢ ص٢٤٨ و ٢٤٩ عن الواقدي وغيره.

إننا نسجل هنا ما يلي:

١ ـ قولهم: إنها أول صلاة خوف صليت في الإسلام لا تؤيده الروايات على اختلافها؛ فقد ذكروا ـ وإن كنا قد رددنا ذلك فيما يأتي ـ: أن صلاة الخوف إنما شرعت في غزوة بني النضير(١) وهي قبل غزوة ذات الرقاع قطعاً.

٢ ـ ومن جهة أخرى ثمة روايات تقول: إن آيات صلاة الخوف قد نزلت في غزوة عسفان، فصلى بهم النبي «صلى الله عليه وآله» صلاة الخوف.

وفي رواية الترمذي وابن جرير: أن جبرئيل هو الذي علّم النبي «صلى الله عليه وآله» كيف يصليها، وذلك بين ضجنان، وعسفان. وعسفان كانت بعد الخندق(٢).

---

(١) راجع هذا القول في: تاريخ الخميس ج١ ص٤٦٤ والسيرة الحلبية ج٢ ص٢٧١ والتنبيه والإشراف ص٢١٤ وحبيب السير ج١ ص٣٥٧ والسيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢١٥ ونهاية الأرب ج١٧ ص١٥٩ ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٣٧٠ وصحيح البخاري ج٣ ص٢٣ وفتح الباري ج٧ ص٣٢٥ وبهجة المحافل ج١ ص٢٣٢.

(٢) الدر المنثور ج٢ ص٢١١ و ٢١٣ عن المصادر التالية: عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأحمد، وأبي داود، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والدارقطني، والطبراني، والحاكم، وصححه، والبيهقي، والترمذي، وابن جرير. وعن البزار عن ابن عباس، وعن أبي عياش الزرقي، وأبي هريرة، ومجاهد وفتح الباري ج٧ ص٣٢٧ والسيرة الحلبية ج٢ ص٢٧١ =

٣ ـ وسأل سليمان اليشكري جابر بن عبد الله عن إقصار الصلاة أي يوم أنزل؟.

فقال جابر بن عبد الله: وعير قريش آتية من الشام، حتى إذا كنا بنخل..

ثم ذكر ما جرى، وصلاة النبي «صلى الله عليه وآله» بهم صلاة الخوف، ثم قال: فأنزل الله في إقصار الصلاة[1].

ولكن قال ياقوت: «إن نخلاً موضع بنجد، من أرض غطفان مذكور في غزاة ذات الرقاع»[2].

وعن السمهودي، أنه قال: «حتى نزل نخلاً، وهي غزوة ذات الرقاع»[3].

وقال السمهودي أيضاً: «وكأن أبا حاتم رأى اتحادهما، فلم يذكر ذات

= ونصب الراية ج٢ ص٢٤٨ ومسند أحمد ج٤ ص٥٩ وفي هامش نصب الراية عن سنن أبي داود ج٢ ص١١ و ١٢ وسنن البيهقي ج٣ ص٢٥٧ وراجع: سنن النسائي ج٣ ص١٧٤ والجامع الصحيح ج٥ ص٢٤٣ والمصنف للصنعاني ج٢ ص٥٠٤ و ٥٠٥ وجامع البيان ج٥ ص١٥٦ وسنن الدارقطني ج٢ ص٥٩ ومستدرك الحاكم ج١ ص٣٣٧ وكشف الأستار عن مسند البزار ج١ ص٣٢٦.

(١) الدر المنثور ج٢ ص٢١١ عن عبد بن حميد، وابن جرير، وجامع البيان وبغية الألمعي (مطبوع مع نصب الراية) ج٢ ص٢٤٨ وسنن النسائي ج٣ ص١٧٦.

(٢) معجم البلدان (ط دار الكتب العلمية) ج٥ ص٣٢٠.

(٣) بغية الألمعي (مطبوع بهامش نصب الراية) ج٢ ص٢٤٨ عن وفاء الوفاء ج١ ص٣٨١.

الرقاع، وهي بنخل عند بعضهم، فلذلك لم يذكرها أيضاً»[1].

ونقول: إن هذا اشتباه واضح، فإن نخلاً إذا كانت بنجد لم يكن ثمة مناسبة بينها وبين عير قريش الآتية من الشام، فالمراد إذن هو النخل التي من جهة الشام دون سواها.

٤ ـ وعن مجاهد أنه قال: بالنسبة لصلاة الخوف في عسفان: «فلم يصل رسول الله «صلى الله عليه وآله» صلاة الخوف قبل يومه، ولا بعده»[2].

٥ ـ عن جابر قال: غزا رسول الله «صلى الله عليه وآله» ست غزوات قبل صلاة الخوف، وكانت صلاة الخوف في السنة السابعة[3].

فالقول بأنها في ذات الرقاع، وذات الرقاع في السنة الرابعة، لا يصح.

الرواية الأقرب إلى القبول:

والمعتمد عندنا في هذا المجال هو: الرواية التي رواها علي بن إبراهيم عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن الإمام الصادق «عليه السلام»: «فإنها نزلت لما خرج رسول الله «صلى الله عليه وآله» إلى الحديبية، يريد مكة، فلما وقع الخبر إلى قريش بعثوا خالد بن الوليد في ماءتي فارس كميناً يستقبل رسول الله «صلى الله عليه وآله» [فكان يعارض رسول الله] على الجبال.

فلما كان في بعض الطريق، وحضرت صلاة الظهر، فأذن بلال، فصلى

---

(١) وفاء الوفاء ج١ ص٢٨٠.

(٢) الدر المنثور ج٢ ص٢١٤ عن ابن أبي شيبة، وابن جرير، وراجع جامع البيان ج٥ ص١٥٦.

(٣) مسند أحمد ج٣ ص٣٤٨ والدر المنثور ج٢ ص٢١٤ عنه.

رسول الله «صلى الله عليه وآله» بالناس.

فقال خالد بن الوليد: لو كنا حملنا عليهم وهم في الصلاة لأصبناهم، فإنهم لا يقطعون صلاتهم، ولكن تجيء لهم الآن صلاة أخرى هي أحب إليهم من ضياع أبصارهم، فإذا دخلوا في الصلاة أغرنا عليهم.

فنزل جبرئيل «عليه السلام» على رسول الله «صلى الله عليه وآله» بصلاة الخوف في قوله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ..﴾[1].

ولا يعارض ذلك ما رواه ابن بابويه في الفقيه بسند صحيح إلى عبد الرحمن بن أبي عبد الله: أن النبي «صلى الله عليه وآله» قد صلى بأصحابه صلاة الخوف في ذات الرقاع؛ فإن هذه الرواية ليس فيها: أن جبرئيل قد نزل بصلاة الخوف آنئذٍ، ولا أن الآية قد نزلت أيضاً في غزوة ذات الرقاع. وإن كان الإمام «عليه السلام» بعد أن ذكر كيفية صلاته «صلى الله عليه وآله» بأصحابه صلاة الخوف، قد أورد الآية، مظهراً بذلك موافقة فعل النبي «صلى الله عليه وآله» لمضمونها، فراجع[2].

فتشريع صلاة الخوف قد كان في الحديبية التي كانت في سنة ست ثم صلاها «صلى الله عليه وآله» مرة أخرى بأصحابه في غزوة ذات الرقاع، التي كانت في السنة السابعة حسبما قدمنا.

---

(١) البرهان في تفسير القرآن ج١ ص٤١١.

(٢) البرهان في تفسير القرآن ج١ ص٤١١ ومن لا يحضره الفقيه (ط مؤسسة النشر الإسلامي) ج١ ص٤٦٠.

كيفية صلاة الخوف:

قد اختلفت رواياتهم في كيفية صلاة الخوف التي صلاها رسول الله «صلى الله عليه وآله» في مغازيه، حتى ليقول البعض:

«قد رويت صلاة الخوف على ست عشرة صورة كلها سائغ فعله»[1].

وقال آخر: «ووراء ذلك من الكيفيات المتباينات، والخلافات المتعددات بحسب اختلاف الروايات، ما يطول ذكره، ويعز حصره»[2].

وقد أغنانا ذلك عن ذكر التناقضات الكثيرة والاختلافات الفاحشة بين الروايات المختلفة.

والحل الأمثل: هو الرجوع إلى أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، فإنهم هم أحد الثقلين اللذين لن يضل من تمسك بهما، وهم سفينة نوح، من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق وهوى.

وقد ذكروا: أن صلاة الخوف في ذات الرقاع كانت قصراً[3].

صلاة الخوف في غزوة الخندق:

وقد زعم البعض: أن صلاة الخوف لم تكن شرعت في غزوة الخندق، وإلا لكان صلاها حينئذٍ، لأنهم حبسوه عن صلاة الظهرين والعشاءين

---

(١) سيرة مغلطاي ص٥٣ و ٥٤ وراجع: الروض الأنف ج٣ ص٢٥٣ وشرح بهجة المحافل ج١ ص٢٣٤ وراجع: التنبيه والإشراف ص٢١٤ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٢٢٧.

(٢) بهجة المحافل ج١ ص٢٣٣.

(٣) البرهان في تفسير القرآن ج١ ص٤١١.

فصلاهن جميعاً، وذلك قبل نزول صلاة الخوف[1].

ونقول:

إن هذا الاستدلال لا يصح: إذ لعل العدو كان في جهة القبلة فصلاها المسلمون إيماء أو كان الوضع الحربي لا يسمح بالصلاة جماعة بسبب تلاحم المقاتلين، والمناوشة بينهم، حيث يكفي في هذه الحالة التهليل والتسبيح، والتحميد، والدعاء، كما حدث في صفين ليلة الهرير[2].

وسيأتي: عدم صحة ما يذكرون حول هذا الأمر في موضعه إن شاء الله تعالى..

صلاة الخوف لماذا؟!:

ولربما يراود ذهن البعض سؤال: عن السبب في الإصرار على الصلاة جماعة حتى في حال الحرب، إذ أن بالإمكان أن يصلي المسلمون فرادى متفرقين، مع الاحتفاظ بمواجهة العدو بالكثرة العددية في ساحة القتال. خصوصاً مع اتساع الوقت لأداء الصلاة بصورة متوالية من العناصر، بحيث لا يخل ذلك بالحالة التي يتخذونها تجاه العدو بهدف إرهاقه، أو دفع شره.

وللإجابة على هذا السؤال: لا بد لنا من الإشارة إلى أن هذا أمر مقصود لله عز وجل، لأنه يمثل مطلباً أساسياً في أكثر من اتجاه.

فهو من جهة يمثل إصرار المسلمين على الجهر بمعتقداتهم، وممارسة

---

(١) راجع: زاد المعاد ج٢ ص١١١ والسيرة الحلبية ج٢ ص٢٧٠ وراجع: فتح الباري ج٧ ص٣٢٧.

(٢) البرهان ج١ ص٤١١ و ٤١٢.

حقهم بحرية التعبير عنها، وحرية ممارسة شعائرهم الدينية. رضي الناس ذلك أم أبوا.

كما أنه يمثل إظهاراً للالتزام بالقيادة المثلى، والاقتداء بها، والتلاقي عليها ومعها لتكون رمز وحدة الأمة، من خلال وحدة الهدف، ثم وحدة الموقف، وانتهاءً بوحدة المصير.

ومن جهة أخرى: فإن هذا المظهر العبادي الوحدوي التنظيمي ووحدة الشعار، لا بد أن يثير لدى الأعداء أكثر من سؤال يرتبط بالموقف السياسي والعسكري، الذي يتخذه ذلك العدو، ويتحرك ويتعامل معهم على أساسه ومن خلاله، حتى إذا ما راجع حساباته في هذا السبيل، فلسوف يجد أنه لم يكن منطقياً، ولا منصفاً في عدائه لهم، ولا في مواقفه منهم، التي اتخذها انطلاقاً من عدم قناعته بما اقتنعوا به، أو فقل: من عدم قبوله بما هم عليه. فهل عدم اقتناع شخص بأفكار، ومعتقدات، وقناعات، شخص آخر، يعطيه الحق في تدمير ذلك الشخص واستئصاله من الوجود؟!..

وهل إذا قال هؤلاء: ربنا الله، وليس الصنم الفلاني، يستحقون أن يواجهوا بالحرب وبالحرمان وبالقطيعة، وبجميع أشكال الاضطهاد والتنكيل؟!.

إن صلاة الخوف هذه لسوف تقنع هذا العدو بالذات أن ما يحاربهم من أجله، ويصرون هم عليه، إنما يعنيهم هم أولاً وبالذات، وليس له هو حق في اتخاذ أي موقف سلبي منهم لأجل أمر يخصهم ويرجع إليهم، فـ ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[1] فإن الدين يقوم على أساس القناعات وعلى أساس

---

(١) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة.

المشاعر، وعقد القلب، وإحساسه بالأمن، واستشعاره الإيمان.

ولا يمكن أن يفرض هذا على أحد، ولا يتحقق الإكراه فيه.

ولا يملك أحد أن يصادر حرية الآخرين في أن يعتقدوا ما شاؤوا، ولا يمكنه أن يمنعهم من ممارسة كثير مما يريدون ممارسته.

بل إن هذا يخضع للمنطق وللبرهان وللدليل أولاً، مع إعطاء دور رئيس لتكوّن عامل الثقة، والصراحة والصدق والإنصاف، والحرية، وغير ذلك مما هو ضروري في مجال التحرك الواعي والمسؤول في مجال الدعوة لتحقيق الاستجابة الحقيقية والواعية والمسؤولة.

فصلاة الخوف شعار، وموقف، وبلاغ، ودعوة، وتصميم، ووحدة، وخلوص، والتفاف حول القيادة، وتربية، وتعليم، وتحد، ثم هي حرب نفسية وسلاح قاطع.

وليس ثمة رسالة أبلغ منها للعدو، ليعرف أن هؤلاء الناس قد بلغوا من إصرارهم على مواقفهم، وتمسكهم بمبادئهم، وفنائهم فيها، حداً يجعلهم يرون قضيتهم، ودينهم ودعوتهم، هي الأهم من كل شيء، وأن حياتهم، وكل شيء يملكونه لا بد أن يكون لها ومن أجلها، وفي سبيلها، وهم يمارسون ذلك عملاً، ويقدمون على البذل والعطاء في سبيله، بكل رضاً ومحبة، وصفاء وسخاء.

ومن جهة ثانية: إن ذلك يؤكد للإنسان المسلم مدى أهمية الصلاة، حتى إنها لا تترك بحال، حتى للغريق المشرف على التلف، وحتى للمقاتل الذي يواجه الأخطار الكبرى على حياته ووجوده..

وتأتي الصلاة في هذه الحال بالذات ـ حال الخوف ـ لتربط الإنسان

بمصدر الأمن، والسلام، والطمأنينة للقلوب، وانسجام المشاعر وتلاقيها، ليعيش الإنسان في الآفاق الملكوتية روح الطهر والخلوص، ليصبح قادراً على التخلص مما يربطه بهذه الدنيا، ويشده إلى الأرض ليخلد إليها، ويحجبه ذلك عن مصدر القدرة، وعن الانطلاق في رحابه، وفي آفاق ملكوته، ومعاينة آلائه، وتلمسها، والتصديق بها.

قصر الصلاة:

وقالوا: إن الصلاة قد قصرت في غزوة ذات الرقاع[1] حيث نزل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوّاً مُبِيناً﴾[2].

ونقول:

إن الكلام هنا في عدة جهات، نذكر منها ما يلي:

١ـ تاريخ قصر الصلاة:

إن القول: بأن ذلك كان في غزوة ذات الرقاع، تقابله الرواية التي تقول: إن ذلك قد كان في غزوة عسفان.

فقد روي: «عن مجاهد، في قوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ

---

(١) تاريخ الخميس ج١ ص٤٦٤ واكتفى في السيرة الحلبية ج٢ ص٢٧٨ بالقول: بأن قصر الصلاة كان في الرابعة.

(٢) الآية ١٠١ من سورة النساء.

الصَّلاَةِ﴾[١]، قال: أُنزلت يوم كان النبي «صلى الله عليه وآله»، والمشركون بضجنان، فتوافقوا فصلى النبي «صلى الله عليه وآله» بأصحابه صلاة الظهر أربعاً، ركوعهم وسجودهم، وقيامهم معاً جمعاً. فهمّ بهم المشركون أن يغيروا على أمتعتهم، وأثقالهم، فأنزل الله: **﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾**[٢].

فصلى العصر، فصف أصحابه صفين ثم كبر بهم جميعاً، ثم سجد الأولون لسجوده، والآخرون قيام لم يسجدوا حتى قام النبي «صلى الله عليه وآله» ثم كبر بهم وركعوا جميعاً، فتقدم الصف الآخر، واستأخر الصف المتقدم، فتعاقبوا السجود كما فعلوا أول مرة، وقصر العصر إلى ركعتين»[٣].

ونقول:

إن هذه الرواية صريحة في أن آية قصر الصلاة قد نزلت بعد أو حين تشريع صلاة الخوف، وثمة روايات أخرى يظهر منها أنهم يتحدثون عن آية القصر ويقصدون منها صلاة الخوف فقط[٤]، ولعل هذا قد نشأ عن كونهما قد نزلتا في زمان واحد.

---

(١) الآية ١٩٨ من سورة البقرة.

(٢) الآية ١٠٢ من سورة النساء.

(٣) الدر المنثور ج٢ ص٢١٠ عن عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وجامع البيان ج٥ ص١٥٦ والمصنف ج٢ ص٥٠٤.

(٤) راجع: الدر المنثور ج٢ ص٢١٠ عن عبد الرزاق عن طاووس، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن السدي والمصنف ج٢ ص٥١٧ وغيرها وجامع البيان ج٥ ص١٥٤.

وقد تقدم: أن صلاة الخوف قد شرعت في الحديبية، ثم صلاها النبي «صلى الله عليه وآله» في ذات الرقاع، التي كانت بعدها، فمعنى ذلك: أن قصر الصلاة قد شرع في الحديبية أيضاً، أو بعدها وذلك واضح لا يحتاج إلى بيان.

لكن ثمة رواية تقول: إن نزول الآية، وتشريع صلاة القصر قد كان قبل نزول آية صلاة الخوف بسنة؛ فشرع القصر على لسان رسول الله «صلى الله عليه وآله»، حين سأله تجار يضربون في الأرض عن كيفية صلاتهم، فراجع[1].

فيكون تشريع القصر، قبل غزوة الحديبية بسنة!

القصر في حالتي الأمن والخوف:

ومن الأمور التي تساءل بعض الناس عنها هو: أن آية القصر إنما تتحدث عن إيجاب القصر بشرط خوف الفتنة من قِبَل الذين كفروا، مع أن القصر ثابت مع خوف الفتنة وبدونه.

وقد حاول البعض الهروب من هذا الإشكال بدعوى: أن القصر لم يذكر في القرآن أصلاً[2].

---

(١) الدر المنثور ج٢ ص٢٠٩ وجامع البيان ج٥ ص١٥٥ عن علي «عليه السلام»، وبهجة المحافل ج١ ص٢٢٨.

(٢) سنن النسائي ج٣ ص١١٧ وسنن البيهقي ج٣ ص١٣٦ وسنن ابن ماجة ج١ ص٣٣٩ ومجمع البيان ج٥ ص١٣٦ والدر المنثور ج٢ ص٢٠٩ و ٢١٠ عنهم وعن عبد بن حميد، وابن حبان، وابن أبي حاتم. والإحسان في تقريب صحيح ابن حبان ج٦ ص٤٤٤ والمستدرك على الصحيحين ج١ ص٢٥٨ والموطأ (المطبوع مع تنوير الحوالك) ج١ ص١٦٢ والمصنف للصنعاني ج٢ ص٥١٨ ومسند أحمد بن حنبل ج٢ ص٦٥ و ٦٦.

وبعض آخر: كعائشة، وسعد بن أبي وقاص، ادعوا: أن الواجب هو القصر في حال الخوف فقط، أما في حال الأمن، فكانا يتمان في السفر[1].

وروي عن عائشة خلاف ذلك أيضاً[2].

وقد يحلو للبعض أن يدعي: أن القرآن قد نسخ بالسنة، حيث إن القرآن نص على القصر في حالة الخوف، ثم نسخ ذلك بقول النبي «صلى الله عليه وآله»، حيث جعله «صلى الله عليه وآله» في مطلق السفر[3].

إلى غير ذلك مما لا مجال لتتبعه.

ونقول:

إن مجرد كون القرآن قد نص على القصر في مورد خوف الفتنة، ثم جاء تعميم ذلك إلى مطلق السفر على لسان النبي «صلى الله عليه وآله»، لا يوجب اعتبار ذلك من قبيل نسخ القرآن بالسنة، إذ قد يكون القرآن قد ذكر لهم ما كان محلاً لابتلائهم، أو أورد ذلك مورد الغالب؛ فإذا كان القرآن قد

---

(١) راجع: الدر المنثور ج٢ ص١١٠ عن ابن جرير، وابن أبي حاتم، وعبد الرزاق، ونصب الراية ج٢ ص١١٨ و ١٨٩ ونيل الأوطار ج٣ ص٢٤٩ وراجع: الجامع الصحيح ج٢ ص٤٣٠ وعن عائشة في المصنف للصنعاني ج٢ ص٥١٥ وراجع أيضا: الأم ج١ ص١٥٩.

(٢) راجع: الأم ج١ ص١٥٩ وصحيح مسلم ج٢ ص١٤٢ و ١٤٣ والمصنف للصنعاني ج٢ ص٥١٥ والإحسان في تقريب صحيح ابن حبان ج٦ ص٤٤٦ و٤٤٧ والدر المنثور ج٢ ص٢١٠ عن بعض من تقدم وعن البخاري، ومالك، وعبد بن حميد، وأحمد، البيهقي في سننه.

(٣) راجع: بهجة المحافل ج١ ص٢٢٧ و ٢٢٨.

بيَّن قسماً مما يجب فيه القصر، ثم بينت السنة باقي الموارد، فليس ذلك من قبيل النسخ، بل هو إما من باب إلقاء الخصوصية، أو من باب التعميم، والتتميم، إذ ليس فيه إلغاء للحكم الثابت بالقرآن.

وقد أشارت الروايات إلى ذلك أيضاً، فقد روي: أن يعلى بن أمية قال لعمر بن الخطاب: ليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا، وقد أمن الناس.

فقال له عمر: عجبت مما عجبت منه، فسألت رسول الله «صلى الله عليه وآله» عن ذلك؛ فقال: صدقة تصدق الله عليكم، فاقبلوا صدقته[1].

وعن أبي العالية، قال: «سافرت إلى مكة، فكنت أصلي بين مكة والمدينة ركعتين، فلقيني قراء أهل هذه الناحية، فقالوا: كيف تصلي؟!

---

(١) الدر المنثور ج٢ ص٢٠٩ عن ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأحمد ومسلم والنسائي وأبي داود، والترمذي، وابن ماجة، وابن الجارود، وابن خزيمة، والطحاوي، وابن جرير ج٥ ص١٥٤ وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس في ناسخه، والإحسان في تقريب صحيح ابن حبان ج٦ ص٤٤٨ و ٤٥٠ ونصب الراية ج٢ ص١٩٠ وصحيح مسلم (باب صلاة المسافر)، ج٢ ص١٤٣ وسنن أبي داود ج٢ ص٣ وسنن ابن ماجة ج١ ص١٧٦ ومسند أحمد ج١ ص٢٥ و ٣٦ وسنن النسائي ج٣ ص١١٦ و١١٧ والجامع الصحيح (كتاب التفسير) ج٥ ص٢٤٢ و ٢٤٣ وبهجة المحافل ج١ ص٢٢٧ و ٢٢٨ وسنن البيهقي ج٣ ص١٣٤ و ١٤٠ و ١٤١ وسنن الدارمي ج١ ص٣٥٤ ومصابيح السنة ج١ ص٤٦٠ وشرح معاني الآثار ج١ ص٤١٥ والمصنف ج٢ ص٥١٧ والأم ج١ ص١٥٩.

قلت: ركعتين.

قالوا: أسنة أو قرآن؟!

قلت: كل ذلك سنة وقرآن. صلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» ركعتين.

قالوا: إنه كان في حرب.

قلت: قال الله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ﴾[1].

وقال: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاَةِ﴾[2] فقرأ حتى بلغ: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ﴾[3]»[4].

إتمام عثمان للصلاة في منى وعرفات:

ومن الأمور التي طعن بها الصحابة والمسلمون على عثمان بن عفان[5]: أنه أتم الصلاة بمنى وبعرفات، فخالف بذلك رسول الله «صلى الله عليه وآله»، الذي قصر الصلاة فيهما، وكذلك أبو بكر وعمر، وعثمان نفسه عدة

---

(١) الآية ٢٧ من سورة الفتح.

(٢) الآية ١٩٨ من سورة البقرة.

(٣) الآية ١٠٣ من سورة النساء.

(٤) جامع البيان (ط دار الفكر) ج٥ ص٣٣٠ والدر المنثور ج٢ ص٢٠٩ عنه والأم ج١ ص١٥٩ ونيل الأوطار ج٣ ص٢٤٧.

(٥) تاريخ الأمم والملوك ج٣ ص٣٢٢ وأنساب الأشراف ج٥ ص٣٩ وأحكام القرآن للجصاص ج٢ ص٢٥٤.

سنوات أيام خلافته[1].

الصامدون والمتزلفون:

وقد كان ابن عمر بعد أن يتم خلف عثمان، يعيد صلاته بعد أن يرجع إلى بيته[2] أما ابن مسعود الذي اعترض على عثمان، لفعله ذاك، فإنه عاد فصار يصلي أربعاً، بحجة أن الخلاف شر[3] وكذلك تماماً كان من عبد

---

(١) راجع: صحيح البخاري ج١ ص١٢٦ و ١٨٩ وصحيح مسلم ج٢ ص١٤٥ و١٤٦ والموطأ (مطبوع مع تنوير الحوالك) ج١ ص٣١٤ والكامل لابن الأثير ج٣ ص١٠٣ ونصب الراية ج٢ ص١٩٢ و ١٨٧ وسنن النسائي ج٣ ص١٢٠ و ١١٨ ومسند أحمد ج١ ص٣٧٨ وج٢ ص١٤٨ والمصنف للصنعاني ج٢ ص٥١٦ و ٥١٨ وسنن البيهقي ج٣ ص١٣٦ و ١٢٦ و ١٤٤ و ١٥٣ وسنن أبي داود ج٢ ص١٩٩ والأم ج٧ ص١٧٥ وج١ ص١٥٩ ونيل الأوطار ج٣ ص٢٤٩ والمحلى ج٤ ص٢٧٠.

وراجع: الجامع الصحيح ج٢ ص٢٢٨ و ٢٣٠ وج٣ ص٢٢٩ وكنز العمال ج٨ ص١٥١ و ١٥٢ والبداية والنهاية ج٧ ص١٥٤ وتاريخ الأمم والملوك ج٣ ص٣٢٢ وسنن الدارمي ج١ ص٣٥٤ وج٢ ص٥٥ و ٥٦ وأنساب الأشراف ج٥ ص٣٩، والكامل في التاريخ ج٣ ص١٠٣ والغدير ج٨ ص٩٩ فما بعدها.

(٢) المحلى ج٤ ص٢٧٠ والموطأ (مطبوع مع تنوير الحوالك) ج١ ص١٦٤.

(٣) الأم ج١ ص١٥٩ وج٧ ص١٧٥ وسنن البيهقي ج٣ ص١٤٤ والغدير ج٨ ص١٠٠ عنهم وصحيح البخاري ج١ ص١٢٦ والبداية والنهاية ج٧ ص١٥٤ والمصنف ج٢ ص٥١٦ والكامل في التاريخ ج٣ ص١٠٤.

الرحمن بن عوف، فإنه ناقش عثمان أولاً، ثم تابعه وعمل بعمله أخيراً[١].

ولكن علياً أمير المؤمنين «عليه السلام» وحده الذي أصر على الرفض، فقد روي عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: اعتل عثمان وهو بمنى، فأتى علي، فقيل له: صل بالناس.

فقال: إن شئتم صليت لكم صلاة رسول الله «صلى الله عليه وآله»، يعني ركعتين.

قالوا: لا، إلا صلاة أمير المؤمنين ـ يعني عثمان ـ أربعاً. فأبى[٢].

معاوية والأمويون، وسنة عثمان:

ولكن معاوية حين قدم حاجاً صلى الظهر ركعتين، فجاءه مروان بن الحكم، وعمرو بن عثمان فقالا له: «ما عاب أحد ابن عمك بأقبح مما عبته به.

فقال لهما: وما ذاك؟!

قالا: له: ألم تعلم أنه أتم الصلاة بمكة؟

قال: فقال لهما: ويحكما، وهل كان غير ما صنعت؟ قد صليتهما مع رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ومع أبي بكر، وعمر.

قالا: فإن ابن عمك قد أتمها، وإن خلافك إياه له عيب.

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ج٣ ص٣٠٢ وأنساب الأشراف ج٥ ص٣٩ والكامل في التاريخ ج٣ ص١٠٣ والبداية والنهاية ج٧ ص١٥٤ وراجع: العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ قسم ٢ ص١٤٠ والغدير ج٨ ص٩٨ ـ ١٠٢ عنهم.

(٢) المحلى ج٤ ص٢٧٠ وحاشية ابن التركماني على سنن البيهقي مطبوعة بهامش السنن ج٣ ص١٤٤، والغدير ج٨ ص١٠٠.

قال: فخرج معاوية إلى العصر، فصلاها بنا أربعاً»[1].

وقال ابن عباس، بعد أن ذكر صلاة عثمان شطراً من خلافته قصراً: «ثم صلاها أربعاً، ثم أخذ بها بنو أمية»[2].

أعذار لا تصح:

قد ذكروا أعذاراً كثيرة للخليفة، ونحن نختار منها نموذجاً، ونحيل القارئ في الباقي إلى المصادر فنقول:

١ ـ لقد اعتذر الخليفة نفسه بأنه إنما فعل ذلك لأنه تأهل بمكة لما قدمها[3].

وقال العسقلاني: «هذا الحديث لا يصح لأنه منقطع، وفي رواته من لا يحتج به، ويرده الخ..»[4].

ويرده أيضاً: أن النبي «صلى الله عليه وآله» كان يسافر بزوجاته، ويقصر[5].

---

(١) مسند أحمد ج٤ ص٩٤ ومجمع الزوائد ج٢ ص١٥٦ وعن أحمد والطبراني، وقال: رجال أحمد موثقون.

(٢) الغدير ج٨ ص١٠١ وكنز العمال ج٨ ص١٥٤ عن عبد الرزاق والدارقطني.

(٣) فتح الباري ج٢ ص٤٧٠ عن أحمد والبيهقي ومسند أحمد ج١ ص٦٢ وأنساب الأشراف ج٥ ص٣٩ ومجمع الزوائد ج٢ ص١٥٦ وتاريخ الأمم والملوك ج٣ ص٣٢٢ والبداية والنهاية ج٧ ص١٥٤ والكامل في التاريخ ج٣ ص١٠٣ وزاد المعاد ج١ ص١٢٩ وفيه: أنه كان قد تأهل بمنى، وأحكام القرآن ج٢ ص٢٥٤.

(٤) فتح الباري ج٢ ص٤٧٠.

(٥) راجع المصدر السابق.

وقال العلامة الأميني: «ما المسوغ له ذلك، وقد دخل مكة محرماً؟ وكيف يشيع المنكر، ويقول: تأهلت بمكة مذ قدمت؟ ولم يكن متمتعاً بالعمرة ـ لأنه لم يكن يبيح ذلك أخذاً برأي من حرمها كما يأتي تفصيله ـ حتى يقال: إنه تأهل بين الإحرامين، بعد قضاء نسك العمرة، فهو لم يزل كان محرماً من مسجد الشجرة، حتى أحل بعد تمام النسك بمنى»..

إلى أن قال: «وقد صح من طريق عثمان نفسه عن رسول الله «صلى الله عليه وآله» من قوله: «لا يَنْكِحَ المحرم، ولا يُنْكِحُ، ولا يخطب»»[1].

ثم ذكر «رحمه الله» نصوصاً أخرى: حول عدم جواز التزوج حال الإحرام فلتراجع[2].

هذا بالإضافة: إلى أنه لا معنى للحكم بالإتمام للمسافر إذا تزوج امرأة في بلد ما لأن المرأة هي التابعة للرجل وليس العكس.

ولو كان حكم عثمان الإتمام لأنه تزوج امرأة هناك، فلماذا يتم سائر الناس الذين يأتمون به؟! ولماذا يصر على علي «عليه السلام» بالإتمام حينما أراده على الصلاة مكانه؟!

ولماذا يصرون على معاوية بالعمل بسنة عثمان، ثم يستمر بنو أمية على

---

(١) ذكر في الغدير ج٨ ص١٠٤، المصادر التالية: الموطأ ج١ ص٣٢١ وفي طبعة أخرى ٢٥٤ والأم ج٥ ص١٦٠ ومسند أحمد ج١ ص٥٧ و ٦٤ و ٦٥ و ٦٨ و ٧٣ وصحيح مسلم ج١ ص٩٣٥ وسنن الدارمي ج٢ ص٣٨ وسنن أبي داود ج١ ص٢٩٠ وسنن ابن ماجة ج١ ص٦٠٦ وسنن النسائي ج٥ ص١٩٢ وسنن البيهقي ج٥ ص٦٥ و ٦٦.

(٢) الغدير ج٨ ص١٠٤ و ١٠٥.

ذلك؟!

ولماذا يصلي ابن مسعود وعبد الرحمن بن عوف بأصحابه تماماً، لأن الخلاف شر؟!

ولماذا؟. ولماذا؟!..

٢ ـ وثمة عذر آخر، وهو أنه إنما أتم في منى وعرفة، لأنه كان له مال بالطائف[1].

وهو اعتذار لا يصح أيضاً، لأن وجود ملك أو دار في مكة فضلاً عن الطائف لا يوجب الإتمام. وقد قصر الصحابة الذين حجوا مع رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ولم يأمرهم النبي «صلى الله عليه وآله» بالإتمام، ولا أتموا بعد رسول الله «صلى الله عليه وآله»[2].

هذا بالإضافة إلى أن الذين ائتموا به لم يكن كلهم لهم أملاك هناك.

ولماذا يصر هو على علي «عليه السلام»، ويصر بنو أمية على الإتمام بعد ذلك؟! ولماذا؟! ولماذا؟!

٣ ـ واعتذر أيضاً بأنه خاف أن يظن أهل اليمن والأعراب المقيمون: أن الصلاة للمقيم ركعتان[3].

---

(١) أنساب الأشراف ج٥ ص٣٩ وتاريخ الأمم والملوك ج٣ ص٣٢٢ والكامل في التاريخ ج٣ ص١٠٣ والبداية والنهاية ج٧ ص١٥٤ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ قسم ٢ ص١٤٠ وسنن أبي داود ج٢ ص١٩٩.

(٢) الأم ج١ ص١٦٥ وسنن البيهقي ج٣ ص١٥٣.

(٣) راجع: أنساب الأشراف ج٥ ص٣٩ وتاريخ الأمم والملوك ج٣ ص٣٢٢ وزاد المعاد ج١ ص١٢٩ والبداية والنهاية ج٧ ص١٥٤ والكامل في التاريخ ج٣ =

ولكن هذا العذر غير مقبول أيضاً، إذ قد كان يمكن تعليم الناس على الحكم الشرعي بأسلوب آخر.

كما أن هذا الفعل قد يوجب أن يظن أهل اليمن، والأعراب: أن الصلاة في السفر أربع ركعات.

أضف إلى ذلك: أن رسول الله لم يفكر في تعليم الناس بهذه الطريقة، مع أنه كان يوجد في زمنه أعراب، وكان أهل اليمن يحجون في عهد أسلاف عثمان أيضاً.

وقد قال رسول الله «صلى الله عليه وآله» لأهل مكة، بعد أن صلى ركعتين: «أتموا الصلاة يا أهل مكة فإنا سفر أو قال: يا أهل البلد صلوا أربعاً فإنا سفر»[1].

وروي أن عمر أيضاً كان يفعل ويقول ذلك فراجع[2].

٤ ـ إن منى أصبحت قرية وصار فيها منازل، فتأول عثمان أن القصر إنما هو في حال السفر[3].

= ص١٠٣ وسنن أبي داود ج٢ ص٢٠٠ وسنن البيهقي ج٣ ص١٤٤ ونيل الأوطار ج٢ ص٢٦٠ وكنز العمال ج٨ ص١٥٢ عن البيهقي وابن عساكر والغدير ج٨ ص١٠٠ والمصنف ج٢ ص٥١٨.

(١) سنن البيهقي ج٣ ص١٣٦ و١٥٧ وأحكام القرآن للجصاص ج٢ ص٢٥٤.

(٢) سنن البيهقي ج٣ ص١٢٦ والمحلى ج٥ ص١٨ والموطأ ج١ ص١٦٤ وفتح الباري ج٢ ص٤٧٠.

(٣) زاد المعاد ج١ ص١٢٩.

ونقول:

معنى هذا: أن عثمان كان لا يعرف حكم القصر، وأنه كان يظن أن القصر إنما يجب في حال المشي في الصحراء فقط، فإذا بلغ المسافر قرية ونزل فيها، فإنه يتم حينئذٍ، مع أن النبي «صلى الله عليه وآله» قد قصر في مكة نفسها، وقد كانت مكة بلداً كبيراً ومعموراً أكثر من منى وعرفات بمراتب.

٥ ـ إنه أقام بها ثلاثاً والمقيم يتم[١].

وهو عذر واه إذ إن النبي «صلى الله عليه وآله» قد أقام في مكة ما يقرب من عشرة أيام، ولم يزل يصلي فيها قصراً[٢].

٦ ـ إنه كان قد نوى الإقامة بعد الحج، والاستيطان بمنى واتخاذها دار الخلافة ثم بدا له بعد ذلك[٣].

وعلى حسب نص آخر: أنه قد نوى الإقامة بعد الحج[٤].

والجواب عن ذلك:

أولاً: ما قاله العسقلاني من أن سنده مرسل.

ثانياً: إن الإقامة في مكة على المهاجرين حرام[٥].

ثالثاً: ولو صح ذلك أيضاً، فلماذا يتم سائر الناس؟.

---

(١) زاد المعاد ج١ ص١٢٩.

(٢) راجع: الغدير ج٨ ص١٠٨ و ١٠٩.

(٣) الغدير ج٨ ص١٠٩ وزاد المعاد ج١ ص١٢٩.

(٤) راجع: فتح الباري ج٢ ص٤٧٠ ونيل الأوطار ج٣ ص٢٦٠ وزاد المعاد ج٢ ص٢٥ والمصنف ج٢ ص٥١٦ وسنن أبي داود ج٢ ص١٩٩.

(٥) راجع المصادر في الهامش الآنف الذكر.

ولماذا يقتدي به الأمويون؟

ولماذا يصر هو على علي «عليه السلام» بالإتمام؟!

ولماذا كان قصر معاوية عيباً له، ولماذا؟ ولماذا؟!

٧ ـ إن الإمام حيث نزل فهو عمله ومحل ولايته، فكأنه وطنه[١]. والأسئلة الآنفة الذكر آتية هنا. هذا بالإضافة إلى أن النبي «صلى الله عليه وآله» كان إمام الخلائق، فلماذا لم يتم؟![٢].

وقد قصر أبو بكر وعمر، وعثمان نفسه شطراً من ولايته.

٨ ـ إن التقصير في السفر رخصة لا عزيمة[٣] كما اعتذر به المحب الطبري.

ونقول:

أولاً: إن ذلك لا يصح، بسبب ورود أحاديث كثيرة دالة على أن التقصير في السفر حكم إلزامي، ولا يجزي الإتمام عنه، بل لا بد من إعادة الصلاة لو صلى تماماً في موضع القصر عمداً[٤].

ثانياً: لو كان ذلك رخصة فلماذا يصر عثمان على الإتمام، حينما طلب من علي أمير المؤمنين أن يصلي بالناس؟! ولماذا يصر الأمويون بعد ذلك على العمل بسنة عثمان، وترك سنة رسول الله «صلى الله عليه وآله»؟!.

ثالثاً: لماذا يصر عثمان على الإتمام في هذا المورد بالذات، دون سائر

---

(١) راجع: الغدير ج٨ ص١٠٩ وفتح الباري ج٢ ص٤٧٠ وزاد المعاد ج١ ص١٢٩.

(٢) فتح الباري ج٢ ص٤٧٩ وزاد المعاد ج١ ص١٢٩.

(٣) الرياض النضرة ج٣ ص١٠٠.

(٤) راجع: الغدير ج٨ ص١١٠ ـ ١١٦.

الأسفار؟.

ولماذا ينكر عليه الصحابة ذلك، ويعترضون عليه فيه؟!

ولماذا لم يعتذر هو بهذا العذر لهم بالذات ليسكتهم عنه؟! بل اعتذر عن ذلك بأنه رأي رآه[1].

التقصير رخصة أم عزيمة:

قد تخيل البعض أن القصر في السفر رخصة، ولعل منشأ فهمهم هذا هو أن الآية قد قررت ذلك بعبارة: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ﴾[2].

قال العامري:

«ظاهرها يدل على أن رخصته مشروطة بالخوف، ودلت السنة على الترخيص مطلقاً..

إلى أن قال: ثم لا يبعد أن يبيح الله الشيء في كتابه بشرط، ثم يبيحه على لسان نبيه بانحلال ذلك الشرط، الخ..»[3].

وقد قال بعض الفقهاء: بأن التقصير رخصة، فراجع[4].

---

(١) راجع: تاريخ الأمم والملوك ج٣ ص٣٢٢ والغدير ج٨ ص١٠١ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ قسم ٢ ص١٤٠ والبداية والنهاية ج٧ ص١٥٤ والكامل في التاريخ ج٣ ص١٠٣ و ١٠٤.

(٢) الآية ١٠١ من سورة النساء.

(٣) بهجة المحافل ج١ ص٢٢٧.

(٤) راجع كنز العرفان ج١ باب صلاة الخوف، والقصر في السفر، وغير ذلك من كتب الفقه.

ولكن هذا التخيل مردود.

أولاً: للأخبار الكثيرة الدالة على أن التقصير في السفر عزيمة وليس رخصة، وكلام الرسول مفسر للقرآن، ومبين لمعناه، وقد ذكر العلامة الأميني «رحمه الله» طائفة منها[١].

ثانياً: لقد كان من الواضح: أن الكثيرين سوف لن تطيب نفوسهم بترك ركعتين من الصلاة، ويرون في هذا الأمر تضييعاً للأهداف الإلهية وتساهلاً في امتثال أوامره تعالى، فجاء التعبير بلا جناح ليدفع هذا الوهم، وليطمئنهم إلى أنه لا غضاضة عليهم، لو فعلوا ذلك، ولا نقص ولا حرج فيه.

نزول آية التيمم:

وقالوا في هذه الغزوة: نزلت آية التيمم[٢].

وقيل: بل شرع التيمم في غزوة بني المصطلق.

وقيل: في غزوة أخرى[٣].

ونحن نرجئ الحديث عن ذلك إلى غزوة بني المصطلق؛ فإلى هناك.

---

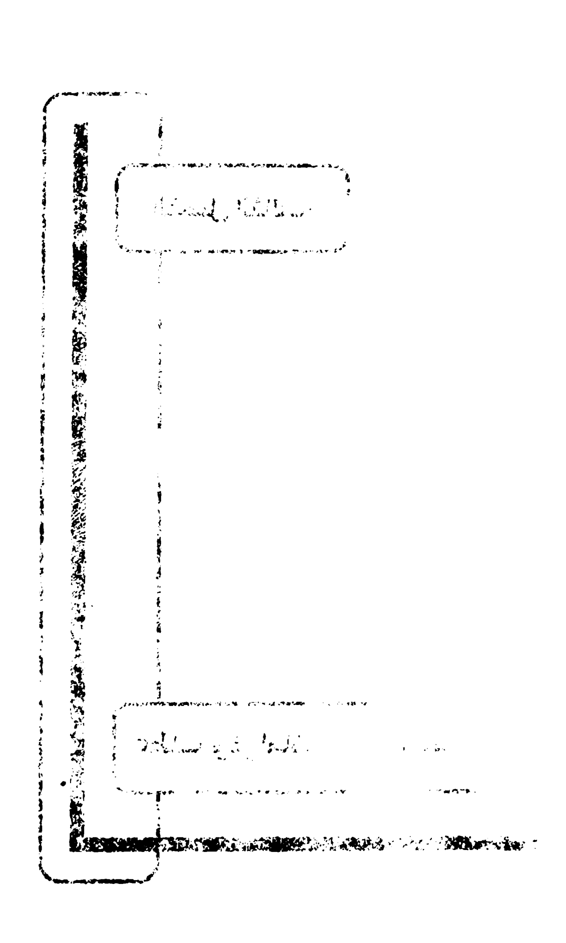
(١) راجع: كتاب الغدير ج٨.

(٢) تاريخ الخميس ج١ ص٤٦٤ وراجع: السيرة الحلبية ج٢ ص٢٧٥ و ٢٧٨ وشذرات الذهب ج١ ص١١.

(٣) السيرة الحلبية ج٢ ص٢٧٨.

الفصل الثالث:

عظات وكرامات أو سياسات إلهية



ماذا في هذا الفصل؟!

وهذا الفصل يتعلق ببعض ما يقال: إنه حصل في ذات الرقاع، وهي الأمور التالية:

١ ـ إلقاء الأضواء على قضية شراء النبي «صلى الله عليه وآله» جملاً من جابر بن عبد الله الأنصاري، وذلك في طريق العودة من هذه الغزوة، وظهور كرامة للنبي «صلى الله عليه وآله» بالنسبة لاستعادة ذلك الجمل قوته، بعد أن كان في آخر الركب.

ثم سوغ «صلى الله عليه وآله» جابراً الجمل وثمنه. بالإضافة إلى حديث جرى بين النبي «صلى الله عليه وآله» وجابر في طريق العودة إلى المدينة.. ثم إلقاء الأضواء على القيمة الحقيقية لهذين الحدثين بالمقدار الذي يسمح لنا به المجال.

٢ ـ ثم نتحدث عن قضية أخرى لجابر مع النبي «صلى الله عليه وآله»، ترتبط بقضاء دين كان على عبد الله والد جابر، وهي قضية مثيرة وقد تحدثنا عن بعض دلالاتها الهامة بصورة موجزة أيضاً.

٣ ـ ونذكر أيضاً ما قاله النبي «صلى الله عليه وآله» في هذه الغزوة، حينما جاء رجل بفرخ طائر، فأقبل أحد أبويه حتى طرح نفسه بين يدي

الذي أخذ فرخه، وألقينا الأضواء على هذه الحادثة حسبما اقتضته المناسبة.

٤ ـ ثم تكلمنا عن قصة أخرى يقال: إنها حدثت في هذه الغزوة حيث جاءت أعرابية إلى النبي «صلى الله عليه وآله» بابن لها، ليعالجه، فاستجاب «صلى الله عليه وآله» لطلبها، مع إلماحة إلى بعض دلالات هذه القضية بصورة موجزة أيضاً..

٥ ـ ثم نشير إلى قصة أخرى في هذه الغزوة ظهرت فيها كرامة للنبي «صلى الله عليه وآله»، حيث أكل أصحابه من ثلاث بيضات نعام، وشبعوا. والبيض في القصعة كما هو، مع إشارة موجزة إلى بعض ما يستفاد من هذا الحدث.

٦ ـ وينتهي بنا المطاف إلى الحديث عن قضية أخرى يقال: إنها قد حدثت في هذه الغزوة، وهي قصة ذلك الجمل الذي جاء يستعدي على صاحبه، فبادر النبي «صلى الله عليه وآله» إلى تفريج كربه، وحل مشكلته.

٧ ـ ثم استطردنا إلى الحديث عن الكرامات والمعجزات وعن لزوم معرفة النبي «صلى الله عليه وآله» بلغات البشر، وظهر لنا: أن ذلك كله وسواه من التصرفات المتميزة والملفتة إنما هي مقتضيات طبيعية لقيادته «صلى الله عليه وآله» ـ وكذلك الإمام «عليه السلام» ـ لمسيرة البشرية نحو كمالها المنشود، ونحو تحقيق الأهداف الإلهية من الخلق كله..

وقد اقتضى ذلك: أن نشير بصورة موجزة إلى جهات أخرى ترتبط بهذا البحث أو تنتهي إليه؛ فإلى ما يلي من مطالب.

ومن الله نستمد العون، والقوة، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

جمل جابر:

يقول المؤرخون: إن النبي «صلى الله عليه وآله» وهو في طريقه إلى المدينة اشترى من جابر جملاً بأوقية، واشترط له ظهره إلى المدينة، واستغفر له في الطريق خمساً وعشرين مرة، وفي الترمذي سبعين مرة.

زاد ابن سعد: وسأله عن دين أبيه فأخبره به[1].

وتفصيل ذلك:

أن جابراً كان على جمل ثقال في سفر، في آخر القوم؛ فمر به النبي «صلى الله عليه وآله»، فقال: من هذا؟!

فقلت: جابر بن عبد الله.

قال: فما لك؟!

قلت: إني على جمل ثقال.

قال: أمعك قضيب؟

قلت: نعم.

قال: أعطنيه، فضربه، فزجره؛ فكان من ذلك المكان من أول القوم.

قال: بعنيه.

قلت: بل هو لك يا رسول الله.

قال: بل بعنيه؛ فقد أخذته بأربعة دنانير، ولك ظهره إلى المدينة.

فلما قدمت المدينة، قال: يا بلال، اقضه وزده.

---

(١) تاريخ الخميس ج١ ص٤٦٤ والسيرة الحلبية ج٢ ص٢٧٣ وطبقات ابن سعد ج٢ ص٦١.

فأعطاه أربعة دنانير وزاده قيراطاً.

قال جابر رضي الله عنه: وأعطاني الجمل وسهمي مع القوم[1].

وفي لفظ عن جابر قال: دخل النبي «صلى الله عليه وآله» المسجد، فدخلت إليه، فعلفت الجمل في ناحية البلاط، فقلت: يا رسول الله، هذا جملك.

فخرج «صلى الله عليه وآله» فجعل يطوف بالجمل، قال: الثمن والجمل لك[2].

وحسب نص آخر قال جابر: «وتحدثت مع رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فقال لي: أتبيعني جملك هذا يا جابر؟

قال: قلت: يا رسول الله، بل أهبه لك.

قال: لا، ولكن بعنيه.

قال: قلت: فسمنيه يا رسول الله.

قال: قد أخذته بدرهم.

قال: قلت: لا، إذن تغبنني يا رسول الله.

قال: فبدرهمين.

---

(١) السيرة الحلبية ج٢ ص٢٧٣ وراجع دلائل النبوة لأبي نعيم ص٣٧٥ و٣٧٦ وراجع: الثقات ج١ ص٢٥٨ و٢٥٩ وراجع السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢١٨ وأشار الذهبي إلى قصة الجمل في تاريخ الإسلام. وراجع: نهاية الأرب ج١٧ ص١٦٠ و١٦١ وراجع: المواهب اللدنية ج١ ص١٠٧ وراجع: السيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٦٦ ولا بأس بمراجعة صحيح مسلم ج٤ ص١٧٦.

(٢) السيرة الحلبية ج٢ ص٢٧٣.

قال: قلت: لا.

قال: فلم يزل يرفع لي رسول الله «صلى الله عليه وآله» في ثمنه، حتى بلغ الأوقية.

قال: قلت: فقد رضيت يا رسول الله؟

قال: نعم.

قلت: فهو لك.

قال: قد أخذته.

ثم **قال**: يا جابر، هل تزوجت بعد؟[1].

قال: قلت: نعم يا رسول الله.

قال: أثيباً أو بكراً؟!

قلت: لا، بل ثيباً.

قال: أفلا جارية تلاعبها وتلاعب؟.

قال: قلت: يا رسول الله، إن أبي أصيب يوم أحد، وترك بنات له سبعاً[2]؛ فنكحت امرأة جامعة تجمع رؤوسهن، وتقوم عليهن.

---

(١) في الواقدي ذكر هذه المحادثة بعد قصة شرائه الجمل منه.

(٢) في الواقدي: تسع بنات. وفي صحيح مسلم ج٤ ص١٧٦: وترك تسع بنات أو سبع وفي شرح بهجة المحافل ج١ ص٢٣٨ تسعاً أوستاً وجمع بين هاتين الروايتين بأن منهن ثلاث متزوجات، لم يعدهن في رواية الست ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٣٨١ ـ ٣٨٣ وراجع صحيح مسلم ج٤ ص١٧٧ و ١٧٦ وراجع صحيح البخاري ج٢ ص٧ وراجع: بهجة المحافل ج١ ص٢٣٨ وشرحه بهامش نفس الجزء والصفحة.

قال: أصبت إن شاء الله أما إنا لو قد جئنا صراراً (موضع على ثلاثة أميال من المدينة) أمرنا بجزور؛ فنحرت وأقمنا عليها يومنا ذاك، وسمعت بنا، فنفضت نمارقها[1].

قال: قلت: والله يا رسول الله ما لنا من نمارق.

قال: إنها ستكون؛ فإذا أنت قدمت فاعمل عملاً كيساً.

قال: فلما جئنا صراراً أمر رسول الله «صلى الله عليه وآله» بجزور فنحرت، وأقمنا عليها ذلك اليوم، فلما أمسى رسول الله «صلى الله عليه وآله» دخل ودخلنا.

قال: فحدثت المرأة الحديث، وما قال لي رسول الله «صلى الله عليه وآله».

قالت: فدونك، فسمع وطاعة.

قال: فلما أصبحت أخذت برأس الجمل، فأقبلت به حتى أنخته على باب رسول الله «صلى الله عليه وآله» قال: ثم جلست في المسجد قريباً منه.

قال: وخرج رسول الله «صلى الله عليه وآله» فرأى الجمل، فقال: ما هذا؟.

قالوا: يا رسول الله، هذا جمل جابر جاء به.

قال: فأين جابر؟

قال: فدعيت له.

قال: يا بن أخي، خذ برأس جملك فهو لك.

ودعا بلالاً، فقال له: اذهب بجابر فأعطه أوقية.

قال: فذهبت معه، فأعطاني أوقية، وزادني شيئاً يسيراً.

---

(١) النمارق: الوسائد الصغيرة.

قال: فوالله ما زال ينمى عندي، ويرى مكانه من بيتنا، حتى أصيب أمس فيما أصيب لنا، يعني يوم الحرة[١].

وفي نص آخر: «ثم قدم رسول الله «صلى الله عليه وآله» قبلي، وقدمت بالغداة؛ فجئت المسجد فوجدته على باب المسجد، فقال: الآن حين قدمت؟

قلت: نعم.

قال: فدع جملك، وادخل فصل ركعتين.

قال: فدخلت فصليت ركعتين الخ..»[٢].

ثم ذكر هبة النبي «صلى الله عليه وآله» الجمل، وثمنه له.

وفي بعض روايات مسلم عن جابر: أن هذه القضية قد حصلت له، وهم مقبلون من مكة إلى المدينة[٣].

اختلافات الرواية في مقدار ثمن الجمل:

إن المراجع لنصوص هذه الرواية يجد: أن فيها العديد من موارد الاختلاف والتناقض، خصوصاً فيما يرتبط بقيمة جمل جابر.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢١٧ و ٢١٨ وراجع: المغازي للواقدي ج١ ص٣٩٩ ـ ٤٠١ ونهاية الأرب ج١٧ ص١٦١ و ١٦٢ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٦٦ والبداية والنهاية ج٤ ص٨٦ و ٨٧.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٣٨٢ وصحيح مسلم ج٤ ص١٧٧ وصحيح البخاري ج٢ ص٧ وبهجة المحافل ج١ ص٢٣٨ و ٢٣٩.

(٣) بهجة المحافل ج١ ص٢٣٧.

فقيل: اشتراه منه بأوقية[1] وهي أربعة دنانير.

قال الأشخر اليمني: «وهي أكثر الروايات، كما نقله البخاري عن الشعبي»[2].

وقيل: بأوقيتين[3].

وقيل: بثلاث[4].

وقيل: بأربع[5].

وقيل: بخمس[6].

وقيل: بست أواق[7].

وقيل: بثمان مئة درهم[8].

وقيل: بخمسة دنانير[9].

---

(١) راجع: السيرة الحلبية ج٢ ص٢٧٣ والثقات ج١ ص٢٥٩ والروض الأنف ج٣ ص٣٥٥ وبهجة المحافل ج١ ص٢٣٩.

(٢) شرح بهجة المحافل ج١ ص٢٣٩.

(٣) راجع: بهجة المحافل ج١ ص٢٣٩.

(٤) راجع: المصدر السابق.

(٥) السيرة الحلبية ج٢ ص٢٧٣ والروض الأنف ج٣ ص٣٥٥ وبهجة المحافل ج١ ص٢٣٩.

(٦) راجع: المصادر الثلاثة المتقدمة.

(٧) بهجة المحافل ج١ ص٢٣٩.

(٨) المصدر السابق.

(٩) السيرة الحلبية ج٢ ص٢٧٣ والروض الأنف ج٣ ص٣٥٥.

وقيل: بدينارين ودرهمين[1].

وقيل: بعشرين ديناراً[2].

وحملها البعض على أنها كانت دنانير صغاراً[3].

وقيل: بأربعة دنانير، بعد أن أعطاه درهماً ممازحاً له[4].

وهذا القول الأخير: لا ينافي القول بأنه اشتراه بأوقية، لأن ذلك في معنى الأوقية[5].

الزيادة المباركة:

والروايات تصرح: بأن النبي «صلى الله عليه وآله» زاد جابراً على ثمن جمله.

وتصرح بعض الروايات: بأنه قد زاده قيراطاً.

فقال جابر: «لا تفارقني زيادة رسول الله «صلى الله عليه وآله»؛ فحفظه حتى أصيب منه يوم الحرة، ففيه التبرك بآثار الصالحين»[6].

تاريخ قصة جمل جابر:

قيل: إن قصة جمل جابر قد كانت في غزوة ذات الرقاع حسبما تقدم.

---

(١) الروض الأنف ج٣ ص٣٥٥ عن صحيح مسلم.

(٢) السيرة الحلبية ج٢ ص٢٧٤ وبهجة المحافل ج٢ ص٢٣٧.

(٣) شرح بهجة المحافل ج١ ص٢٣٩.

(٤) السيرة الحلبية ج٢ ص٢٧٣ والروض الأنف ج٣ ص٣٥٥.

(٥) راجع: الروض الأنف ج٣ ص٣٥٥.

(٦) بهجة المحافل ج١ ص٢٤٠.

وبعض الروايات تقتصر على القول بأنها كانت في رجوعه من مكة إلى المدينة[1].

وقيل: كانت في رجوعه من غزوة تبوك[2]، وهي متأخرة عن غزوة ذات الرقاع.

وقد يناقش في ذلك: بأن سؤال النبي «صلى الله عليه وآله» له عن كونه قد تزوج أو لا، واعتذاره لتزوجه ثيباً بأنه قد لاحظ حال أخواته، اللواتي تركهن له أبوه المستشهد في أُحد يدل على أنه إنما تزوج بعد مقتل أبيه في أُحد، ولم يؤخر ذلك إلى غزوة تبوك.

إلا أن يقال: إنه قد يكون تزوج أكثر من مرة، وتكون مشكلة أخواته موجودة في المرتين، أو يكون قد تأخر زواجه طيلة هذه المدة، وإن كان ذلك بعيداً.

القيمة الحقيقية لهذا الحدث:

وإننا حين نراجع قصة جمل جابر، فإننا نجد فيها:

١ ـ ملامح غنية من الخلق الرفيع لرسول الله «صلى الله عليه وآله»، لما انطوت عليه من لطف ورقة، ومحبة وأريحية ظاهرة، تظهر لنا: أن علاقاته «صلى الله عليه وآله» بأصحابه إنما كانت من منطلق الحب والعطف والصفاء والمودة، مع إجلال منهم له وإكبار، وتقديس.

٢ ـ إننا نجد الرسول الأكرم «صلى الله عليه وآله» في هذه القصة ـ كما

---

(١) السيرة الحلبية ج٢ ص٢٧٣ وبهجة المحافل ج١ ص٢٣٧.

(٢) السيرة الحلبية ج٢ ص٢٧٣ وزاد المعاد ج٢ ص١١١.

هو في غيرها ـ يعيش آلام الآخرين، ويشاركهم الشعور بها. وقد كان والد جابر بن عبد الله قد استشهد في حرب أحد، وأصبح جابر هو المسؤول عن الأسرة بعد أبيه، وكان عليه أن يختار للزواج امرأة تستوعب وتتفهم الواقع الذي استجد نتيجة لذلك، وتشاركه في معالجته بأحسن وجه وأتمه.

وقد ظهرت رقة حال جابر، من الجهة المالية والمعيشية، في أن الجمل الذي أعده لهذه الأسفار البعيدة والشاقة كان من الضعف بحيث أصبح في آخر الركب.

ولم يكن الرسول «صلى الله عيه وآله» بالذي يغفل عن تفقد حال أصحابه، والوقوف عليها عن كثب ليشاركهم حياتهم حلوها ومرها.

وها هو يجد جابراً على جمله الضعيف المكدود في آخر الركب.

٣ ـ إن من الملاحظ: أن الرسول «صلى الله عليه وآله» كان يسير مع الناس، وفي أواخرهم أحياناً، فيعرف حال أصحابه في مسيرهم ذاك بصورة أتم وأوفى. ولم يكن ليقتصر على حملة الأخبار إليه «صلى الله عليه وآله»، فكان يندفع للتعرف على الأمور بنفسه، ومن دون أي وسائط، ربما تؤثر التوجهات السياسية والارتباطات الاجتماعية وغيرها على مستوى دقتهم، واستيعابهم لسائر الخصوصيات التي يكون الوقوف عليها مفيداً بل وضرورياً في كثير من الأحيان.

هذا كله: لو فرض أن هؤلاء النقلة على درجة من الحيطة الدينية والورع والصفاء، والوفاء. وقد لا يكون الكثيرون منهم كذلك بالفعل.

٤ ـ قد لاحظنا: أن النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله» قد دخل مع جابر ـ بأسلوب رضي وسليم ـ إلى حياته الخاصة، بل وإلى أعماقها، فعرف

السر الذي لأجله أقدم جابر على التزوج بامرأة ثيب.

وعرف ما يعاني منه جابر من ضغط الظروف، وما يتحمله من مسؤولية نجمت عن فقد أبيه ووجود أخواته السبع.

ثم عرف أيضاً: أن جابراً لا يملك شيئاً من النمارق، أو غيرها مما يتنعم به المتنعمون.

ثم إنه «صلى الله عليه وآله» لم يترك توصية جابر بأن يعمل عملاً كيساً، يتسم بالعقلانية والتدبير.

كما أنه قد أفسح في آماله وطموحاته حينما أخبره: أن حالته لسوف تتغير، وتتحسن من الناحية المعيشية، ولسوف يملك حتى النمارق في المستقبل، وما عليه من أجل الحصول على ذلك، والوصول إليه إلا أن يعمل عملاً كيساً.

٥ ـ إن عرض النبي «صلى الله عليه وآله» على جابر شراء بعيره بطريقة فيها نوع من المداعبة له، ليفتح قلبه، وليسقط حواجز الرهبة لديه، إنما أراد أن يجعل منه ذريعة لإيصال مال إليه، يستعين به على مصاعب الحياة، وعلى إحداث تغيير أساسي فيها، ولكن بطريقة لا تبقي مجالاً للتساؤل ولا للاعتراض من أحد، بخلاف ما لو بادر إلى تقديم هذا المال إلى جابر دون مبرر ظاهر.

٦ ـ ولا نريد أن نترك الحديث عن هذه القضية دون الإلماح إلى أن ذلك يعطينا درساً دقيقاً ورائعاً عن طبيعة العلاقات التي تربط بين القائد والرعية؛ فهي ليست علاقات السيد والمسود، والأمير والمأمور، أو القوي والضعيف أو ما إلى ذلك.

وإنما هي علاقات الإنسان بالإنسان من خلال الإحساس بالمسؤولية

والواجب الإلهي والإنساني.

ونزيد ذلك توضيحاً حين نقول: إن سلوك النبي «صلى الله عليه وآله» هذا من جهة ذاته ليس تواضعاً منه ولا هو إحسان وتفضل فقط، وإنما هو مقتضى إنسانيته الكاملة وهو عمل بواجبه الإلهي، والإنساني، وإن كان من جهة قياسه بما هو خارج عن مقام ذاته يعد من التواضع والإحسان والتفضل في أعلى درجاتها، وأوضح تجلياتها.

وفقنا الله للسير على هدى النبوة، والتأسي برسوله الأكرم الأعظم «صلى الله عليه وآله».

كرامة وتكريم:

قال الواقدي: وحدثني إسماعيل بن عطية بن عبد الله بن أنيس، عن أبيه، عن جابر بن عبد الله، قال:

لما انصرفنا راجعين[1]؛ فكنا بالشُّقرة، قال لي رسول الله «صلى الله عليه وآله»: يا جابر ما فعل دَين أبيك؟!

فقلت: عليه، انتظرت يا رسول الله أن يجذَّ نخله.

قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: إذا جذذت فأحضرني.

قال: قلت: نعم.

ثم قال: من صاحب دين أبيك؟

فقلت: أبو الشحم اليهودي له على أبي سقة (جمع وسق) تمر.

---

(١) أي من غزوة ذات الرقاع.

فقال لي رسول الله «صلى الله عليه وآله»: فمتى تجذها؟

قلت: غداً.

قال: يا جابر، فإذا جذذتها فاعزل العجوة على حدتها، وألوان التمر على حدتها.

قال: ففعلت، فجعلت الصيحاني على حدة، وأمهات الجرادين على حدة، والعجوة على حدة، ثم عمدت إلى جماع من التمر، مثل نخبة، وقرن، وشقحة، وغيرها من الأنواع، وهو أقل التمر، وجعلته حبلاً واحداً، ثم جئت رسول الله «صلى الله عليه وآله» فخبرته، فانطلق رسول الله «صلى الله عليه وآله» ومعه عِلية أصحابه، فدخلوا الحائط وحضر أبو الشحم.

قال: فلما نظر رسول الله «صلى الله عليه وآله» إلى التمر مصنفاً، قال: اللهم بارك له.

ثم انتهى إلى العجوة؛ فمسها بيده وأصناف التمر، ثم جلس وسطها، ثم قال: ادع غريمك. فجاء أبو الشحم.

فقال: اكتل.

فاكتال حقه كله من حبل واحد وهو العجوة، وبقية التمر كما هو.

ثم قال: يا جابر، هل بقي على أبيك شيء؟

قال: قلت: لا.

قال: وبقي سائر التمر؛ فأكلنا منه دهراً، وبعنا، حتى أدركت الثمرة من قابل، ولقد كنت أقول: لو بعت أصلها ما بلغت ما كان على أبي من الدين الخ..»[1].

---

(١) مغازي الواقدي ج١ ص٤٠١ و ٤٠٢.

مع الحدث في دلالاته وخصوصياته:

وفي وقفة قصيرة مع هذا الحدث نلمح باختصار شديد إلى النقاط التالية:

١ ـ إن رسول الله «صلى الله عليه وآله» لا ينسى أولئك الصفوة الأبرار، الذين استشهدوا في سبيل الله سبحانه، فيسعى لحل العقد والمشكلات التي ربما تكون لا تزال عالقة، وبحاجة إلى حل.

فها هو يريد إبراء ذممهم من حقوق الناس وديونهم ما وجد إلى ذلك سبيلاً، لكي تطيب سمعتهم ويذكرهم الناس بالإجلال والإكبار، ومن دون أي حزازة، أو غضاضة.

ثم لتطيب نفوس أبنائهم، وأقاربهم، ويزول شعورهم بالحرج أمام الناس وفي أنفسهم، حتى يواجهوا انفراجاً في حالتهم المعيشية، التي تتسم بشيء من الضيق والصعوبة.

٢ ـ رغم أن ذلك الدائن لعبد الله والد جابر كان رجلاً من اليهود، إلا أننا لم نجد تردداً من النبي «صلى الله عليه وآله» في أمر إرجاع المال إليه، ولا أخذ بنظر الاعتبار مواقف اليهود الحاقدة على الإسلام وعلى المسلمين، ومؤامراتهم وكيدهم، والتي كان ولا يزال هو والمسلمون يعانون منها.

وقد يكون من أسباب ذلك ـ بالإضافة إلى أن هذا هو حكم الإسلام، وهذه هي أخلاقياته، حتى مع أعدى أعدائه، وهو ينطلق في ذلك مما يملكه من قيم ومبادئ إنسانية وإلهية سامية ومقدسة ـ هو:

أنه يريد بذلك أن يقيم حركة التعامل فيما بين الناس على أسس وضوابط ثابتة، يمكن للناس أن يعتمدوا عليها، ويرجعوا إليها وأن يطمئنوا إلى هذا الثبات فيها ليمكنهم التحرك الفاعل والمؤثر بالفعل،

والتخطيط لبناء الحياة في المستقبل. إذ بدون هذا الثبات، ومن دون وضوح ضوابط التعامل، فإن الحياة تصبح قلقة، وغير مشجعة على القيام بمبادرات ذات طابع حيوي وشمولي.

٣ ـ إن والد جابر قد استشهد في حرب أحد، وكانت هذه القضية قد جرت حين رجوع النبي «صلى الله عليه وآله» من غزوة ذات الرقاع التي كانت بعد الحديبية، حسبما أثبتناه فيما سبق.

ومعنى ذلك هو: أنه قد مضت عدة سنوات، ولم يستطع جابر أن يقضي دين أبيه، ولعله قد قضى شطراً من ذلك الدين في السنوات والمواسم السابقة.

نعم، تمضي عدة سنوات، ولا ينسى النبي «صلى الله عليه وآله» ذلك الدين، الذي لم يستطع جابر أن يتخلص منه، ولم تسنح الفرصة بعد لرسول الله «صلى الله عليه وآله» أيضاً للمبادرة إلى ذلك!

٤ ـ إن النبي «صلى الله عليه وآله» قد قبل أن يكون وفاء دين عبد الله من نفس النخلات التي كانت له، ولم يبادر إلى تقديم أية ضمانة في أن يتم وفاؤها من بيت مال المسلمين. إذ إن عبد الله كان قد استفاد من ذلك المال، ولديه ما يمكن الاعتماد عليه في وفاء ذلك الدين. واستشهاده لا ينقل هذا الحق عن ماله ليصبح حقاً على بيت مال المسلمين.

٥ ـ إن طريقة وفاء دين عبد الله قد أخذت صفة الكرامة الإلهية من الله لرسوله «صلى الله عليه وآله»، حينما ظهرت البركة في التمر، حتى ليقول جابر، بعد أن استوفى ذلك اليهودي حقه من خصوص العجوة التي هي أفضل أنواع التمر:

«وبقي سائر التمر؛ فأكلنا منه دهراً وبعنا، حتى أدركت الثمرة من قابل، ولقد كنت أقول: لو بعت أصلها ما بلغت ما كان على أبي من الدين».

٦ ـ ونلفت النظر هنا إلى أن طريقة تعامل النبي «صلى الله عليه وآله» مع هذه القضية تشير إلى أنه «صلى الله عليه وآله» كان يخطط لإظهار هذا الأمر، بطريقة تجسيد الواقع. حيث نجد أنه «صلى الله عليه وآله» قد خطط ليكون الحدث في البستان نفسه، ولم يقنع بأن يؤتى بالثمرة إلى البيت.

ثم هو يأمره بتقسيم التمر كل قسم على حدة.

ثم هو يلمس العجوة بيده الشريفة، وكذا سائر الأنواع.

ثم يجلس في وسط التمر..

بالاضافة إلى: أنه لا يأتي وحده، بل يأتي ومعه علية أصحابه، وليس خصوص الأشخاص العاديين منهم. ثم يشهد الجميع هذا التكريم لجابر، ويشهدون هذه الكرامة الإلهية التي أظهرها الله على يد رسوله «صلى الله عليه وآله».

إلى غير ذلك من دروس وعبر يمكن استفادتها من هذا الحدث. فصلى الله على رسوله وعلى الأئمة الميامين من آله وسلم تسلمياً كثيراً.

رحمة الله بعباده:

وفي هذه الغزوة أيضاً جاء رجل بفرخ طائر فأقبل أحد أبويه حتى طرح نفسه بين يدي الذي أخذ فرخه، فعجب الناس من ذلك.

فقال «صلى الله عليه وآله»: أتعجبون من هذا الطائر؟ أخذتم فرخه،

فطرح نفسه رحمة لفرخه. والله، لربكم أرحم بكم من هذا الطائر بفرخه»[1].

وما يلفت في هذه الرواية ـ على تقدير صحتها، ولا نرى داعياً للوضع فيها ـ هو أننا نجده «صلى الله عليه وآله» يستفيد حتى من مناسبة كهذه ليقوم بدوره في تعريف أصحابه على أمر يلزمهم أن يعرفوه بعمق وصفاء. وذلك من خلال الاستفادة من أسلوب التجسيد الظاهر للحقيقة التي يراد اطلاعهم عليها، وإقناعهم بها. حيث يكون ذلك أوقع في النفس مما لو اكتفى بأسلوب التعليم النظري والمجرد، خصوصاً إذا أدركنا: أن هذا التجسيد قد ترك أثره النفسي فيهم، وأثار فيهم انفعالات ظهرت على شكل تعجب من رحمة ذلك الطائر بولده، فكان لا بد من الاستفادة من هذه الحالة النفسية وتوظيفها لصالح الإدراك الشعوري بالحقيقة التي يراد لهم لمسها، بروحهم وبمشاعرهم بالدرجة الأولى، ثم بعقلهم في مرحلة لاحقة.

النبي ﷺ يعالج ابن الأعرابية:

وروي: أنه في هذه الغزوة جاءت امرأة بدوية بابنها إلى النبي «صلى الله عليه وآله»، فقالت له: يا رسول الله، هذا ابني قد غلبني عليه الشيطان، ففتح فاه فبزق فيه، وقال: اخسأ عدو الله أنا رسول الله.

ثم قال رسول الله «صلى الله عليه وآله» لها: شأنك بابنك، لن يعود إليه

---

(١) السيرة الحلبية ج٢ ص٢٧٤ والمغازي للواقدي ج١ ص٣٩٨ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٦٥ والبداية والنهاية ج٤ ص٨٦ ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٣٧٩.

شيء مما كان يصيبه. فكان كذلك[١].

وذكرت هذه القصة في غزوة المريسيع أيضاً[٢] التي ستأتي في حوادث السنة السادسة.

ونقول:

١ ـ إن هذه الأعرابية قد جاءت بولدها إلى النبي «صلى الله عليه وآله» ليداويه لها. منساقة في ذلك بدافع من إحساسها الفطري بما لرسول الله «صلى الله عليه وآله» من قداسة وطهر، وكرامة على الله سبحانه، وبأنه مصدر للبركات والكرامات.

وقد استجاب «صلى الله عليه وآله» لها، وعالج ولدها بطريقة تكرس هذا الشعور لديها، ولدى كل من حضر وعاين ما يجري، حيث تفل في فم ولدها، وأخبرها بالنتيجة بصورة قطعية.

وذلك يكذب ما يريد البعض أن يدعيه من أنه صلى الله عليه وآله مجرد طارش ورسول، أبلغ الناس رسالة وانتهى، ولا شيء سوى ذلك.

ثم يقولون: إن القداسة إنما هي لرسالته وليست له، فلا داعي للغلو فيه، ولا للتبرك بآثاره.

٢ ـ إن ذلك يشير أيضاً: إلى أن على الناس أن يعوا: أن للأمور المعنوية والروحية دورها في دفع البلايا التي يتعرض لها الإنسان كما أن عليهم أن يؤمنوا بأن ما يعتري الإنسان من أعراض وأمراض، ليس كله ناشئاً عن

---

(١) السيرة الحلبية ج٢ ص٢٧٤.

(٢) السيرة الحلبية ج٢ ص٢٩٢.

تحولات مادية فيه، ولا يمكن تفسيره كله على هذا الأساس. فإن هناك قوى خفية تشارك أيضاً في التأثير في حياة الإنسان وفي سلامته. وإن معالجة آثار تصرفاتها لا يكون من خلال الوسائل المادية في أحيان كثيرة، بل لا بد من وسائل أخرى قد لا يؤمن بها كثير من الماديين.

كرامة أخرى لرسول الله ﷺ:

ويذكر المؤرخون في حوادث هذه الغزوة: أن رجلاً جاء للنبي «صلى الله عليه وآله» بثلاث بيضات من بيض النعام، فقال «صلى الله عليه وآله» لجابر: دونك يا جابر، فاعمل هذه البيضات.

قال جابر: فعملتهن، ثم جئت بهن في قصعة، فجعلنا نطلب خبزاً، فلم نجد، فجعل «صلى الله عليه وآله» وأصحابه يأكلون من ذلك البيض بغير خبز، حتى انتهى كل إلى حاجته، أي إلى الشبع، والبيض في القصعة كما هو[1].

وذكرت هذه القصة في غزوة المريسيع[2].

ونقول:

وفيها أيضاً: كرامة ظاهرة لرسول الله «صلى الله عليه وآله». وربما يكون ظهور هذه الكرامات ضرورياً من أجل أن لا يغتر المسلمون بأنفسهم، فيرون: أن ما يحققونه من انتصارات على أعدائهم، ثم ما يحصلون عليه من مكاسب، مادية، ومعنوية، وشوكة، ونفوذ، على مستوى المنطقة بأسرها، إنما كان بالدرجة الأولى بسبب هذه الألطاف الإلهية، التي يشملهم الله بها، وليس التأثير مقتصراً

---

(١) السيرة الحلبية ج٢ ص٢٧٤ والمغازي للواقدي ج١ ص٣٩٩.

(٢) السيرة الحلبية ج٢ ص٢٩٢.

على قدراتهم الذاتية، وحسن تدبيرهم في الاستفادة منها في الوقت المناسب، وفي المحيط المناسب.

ومن جهة ثانية، فإن من الواضح: أن وجود النبي «صلى الله عليه وآله» بين ظهرانيهم، لا ينبغي أن يؤثر على نوع ومستوى العلاقة التي يجب أن تحكم نظرتهم إليه «صلى الله عليه وآله».

فلا يجوز أن يعتادوا عليه، إلى درجة أن يصبح رجلاً عادياً فيما بينهم، بل لا بد من الاحتفاظ بذلك الشعور العفوي لديهم والذي يؤكد على ارتباطه «صلى الله عليه وآله» بالغيب، بالمصدر الأول جل وعلا..

فتأتي هذه الكرامات لتحدث التصحيح في مسار تعاملهم معه ونظرتهم إليه؛ لأن هذا التصحيح ضروري، ولا بد منه، إذا أريد لكل كلمة وموقف منه «صلى الله عليه وآله» أن يحدث الأثر العميق والدقيق في روح الإنسان، وفي مشاعره، وفي سلوكه، فضلاً عن أن يحدث التغيير الجذري في تكوينه الفكري والعقيدي بصورة عامة.

ولأجل ذلك قلنا: إن ظهور هذه الكرامات كان ضرورياً من فترة لأخرى حسبما تقتضيه المصلحة الإيمانية والإسلامية في مختلف المجالات، وعلى جميع المستويات. وهذا واضح لا يكاد يخفى على أحد.

جمل يستعدي على صاحبه:

وفي هذه الغزوة أيضاً ـ كما يقولون ـ: جاء جمل حتى وقف عنده «صلى الله عليه وآله» ورغا، فأخبر النبي «صلى الله عليه وآله» أصحابه بأن هذا الجمل يستعديه على سيده، (يزعم: أنه كان يحرث عليه منذ سنين، وأنه أراد

أن ينحره) وقال «صلى الله عليه وآله»: إذهب يا جابر إلى صاحبه، فأت به.

قال جابر (رض): فقلت: لا أعرفه.

قال: إنه سيدلك عليه.

قال جابر: فخرج بين يدي حتى وقف على صاحبه، فجئته به، فكلمه «صلى الله عليه وآله» في شأن الجمل[1].

ونقول:

قد ذكرت هذه القصة أيضاً في غزوة بني المصطلق (المريسيع)[2].

ونحن نسجل هنا النقاط التالية:

١ ـ قد ذكرت هذه الرواية: أن الناس كانوا يحرثون على الإبل في ذلك الزمان ولا ندري مدى صحة ذلك.

٢ ـ إن هذه الرواية تؤكد ما ورد في الروايات المتواترة، التي قد تعد بالمئات، وتؤكد على ما للحيوانات من حقوق يلزم مراعاتها، والالتزام بها. وقد ألف سماحة العلامة الحجة الشيخ علي الأحمدي «رحمه الله» كتاباً قيماً لم يطبع بعد، ولنا في هذا المجال كتاب باسم «حقوق الحيوان في الإسلام» فيمكن الرجوع إليه..

معرفة النبي ﷺ بلغات البشر، والحيوان والجماد، والشجر:

٣ ـ قد أوضحت هذه الرواية: ودلت الروايات الكثيرة غيرها على أن

---

(١) السيرة الحلبية ج٢ ص٢٧٣ وراجع: بصائر الدرجات ص٣٤٨ و ٣٥٠ و ٣٥١ و ٣٥٢.

(٢) السيرة الحلبية ج٢ ص٢٩٢.

النبي «صلى الله عليه وآله» كان يعرف ألسنة الحيوانات عموماً. وقد فهم ما قاله الجمل، الذي جاء إليه «صلى الله عليه وآله» ليشتكي سيده الذي كان يحرث عليه منذ سنين، والآن يريد أن ينحره الخ..

ونجد في كتب الحديث والتاريخ الشيء الكثير مما يتحدث عن كرامات لرسول الله «صلى الله عليه وآله»، منذ ما قبل بعثته، وحتى وفاته، مثل تسليم الحجر والشجر عليه «صلى الله عليه وآله»، وتسبيح الحصى في كفيه.

وكذلك امتثال الشجر أوامره، وشهادته له، ومجيء الشجرة إليه لتظله، وتسلم عليه، وتأمين أسكفة الباب، وحوائط البيت على دعائه، وتسبيح الطعام بين أصابعه.

وإخبار الشاة له بأنها مسمومة وشكوى البعير له قلة العلف، وكثرة العمل.

وشكوى بعض الطيور له «صلى الله عليه وآله» أخذ بيضه أو فراخه، وسجود البعير والغنم له وتكليم الحمار له، وشهادة الجمل عنده: أنه لصاحبه الأعرابي دون من ادعاه، وسؤال الظبية أن يخلصها لترضع ولدها وتعود، وغير ذلك[1].

ومن جهة ثانية: فقد دلت النصوص الكثيرة على أنه «صلى الله عليه وآله» كان يعرف لغات البشر أيضاً، وقد تكلم بعدد منها في مناسبات عديدة[2].

---

(١) هذه الكرامات وسواها موجودة في كتب الحديث والسيرة فراجع على سبيل المثال: السيرة الحلبية ج٣ ص٢٨٣ و ٢٨٤ والسيرة النبوية لدحلان (بهامش الحلبية ج٣ ص١٢٨ فما بعدها).

(٢) راجع: مكاتيب الرسول للأحمدي ج١ ص١٥ و ١٦.

سؤالان يحتاجان إلى جواب:

١ ـ السؤال الأول:

والسؤال الذي يواجهنا بادئ ذي بدء هو:

هل إن هذه القضايا وكثيراً غيرها مما زخرت به المجاميع الحديثية والتاريخية، وغيرها، لا بد من تصنيفها في عداد الكرامات والمعجزات، وخوارق العادات، التي تهدف إلى مواجهة الإنسان المكابر أو الشاك بالصدمة التي توصد أمامه كل أبواب التملص والتخلص، والتجاهل للواقع، ودلائله الظاهرة، وأعلامه الباهرة، وحججه القاهرة؟!.

أم أن الأمر يتعدى ذلك ليصب في خانة تجلي السنن والنواميس الحقيقية التي تحكم المسار العام فيما يرتبط بتبلور الشخصية القيادية الواقعية في نطاق هيمنة هذه القيادة على المسار الواقعي العام، من خلال تلك النواميس، وعلى أساسها؟!

علماً بأن ذلك لا يقلل من قيمة تلك الكرامات والمعجزات، بل هو يجليها بصفتها ضرورة حياتية في نطاق الهداية الإلهية التامة على أساس نواميس الواقع ومقتضياته.

٢ ـ السؤال الثاني:

وثمة سؤال آخر نعرض له هنا، وهو:

أنه إذا كان النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله» يعرف جميع اللغات؛ فلماذا يصر على مراسلة عظيم فارس، وعظيم الروم وملك الحبشة، والمقوقس، وغيرهم بخصوص اللغة العربية؟!

وهل ثمة خلفيات سياسية، أو تشريعية دينية أو غيرها وراء هذا

التمسك باللغة العربية؟!

وأكثر من ذلك: أننا نجد الإسلام لا يرضى في عباداته، وفي موارد معينة أخرى بغير اللغة العربية. فلا تصح الصلاة مثلاً باللغات الأخرى، من أي كان من الناس: العربي، والرومي، والحبشي، والفارسي، وغيرهم. فما هو السر والدافع إلى هذا الإلزام والالتزام، يا ترى؟!.

الإجابة والتوضيح:

ونحن في مقام الإجابة على هذين السؤالين، نقدم الحديث والإجابة على ثانيهما؛ فنقول:

١ ـ الإجابة على السؤال الثاني:

إنه يفترض في كل حضارة تستهدف إحداث تغييرات حقيقية وجذرية في المجالات الحياتية المتنوعة من سياسية واقتصادية، واجتماعية، وفكرية، وغيرها وحتى في بناء الشخصية الإنسانية، والتأثير والتغيير في مشاعر الإنسان، وأحاسيسه، وعواطفه، فضلاً عن خصائصه ومزاياه، وكل وجوده،

نعم.. إنه يفترض في هكذا حضارة أن تفرض على الشعوب والأمم التي تريد أن تحيا في ظلها هيمنة فكرها، وثقافتها، وأن تزرع فيها مصطلحاتها وتعابيرها الخاصة بها، ذات الإيحاءات والمداليل المعينة والهادفة، وتنفذ من خلال هذه المصطلحات وعلى أساس ذلك الفكر، وبروافد من تلك الثقافة إلى مناطق اللاوعي في الأحاسيس والمشاعر، وفي القلوب والضمائر لتلك الأمم والشعوب. وتتغلغل في أعماقها؛ لتصبح جزءاً لا يتجزء من وجودها، ومن شخصيتها، ومن كيانها العتيد.

بل لقد رأينا: أنه حتى الدول لا تألو جهداً في فرض لغتها، وعاداتها، ومفاهيمها على الشعوب التي تهيمن عليها.

وإذا كـان الله سبحانه قـد أرسـل نبيه إلى جميع الأمم فلا بـد ـ والحالة هذه ـ من أن تهيمن لغة القرآن، وثقافة الإسلام والإيمان على العالم بأسره. لأن القرآن كتاب العالم، ودستور البشرية جمعاء، ولعل هذا هو الذي يفسر لنا بعض ما ورد في الحث على تعلم اللغة العربية وتعليمها فراجع.

٢ ـ الإجابة على السؤال الآخر:

أما الإجابة على السؤال الآخر، وهو أول السؤالين المتقدمين، فإننا نقول:

هناك معجزات وكرامات في اتجاهات ثلاثة:

الأول: من الواضح: أن هناك معجزات قد ظهرت للنبي الأكرم «صلى الله عليه وآله» وللأنبياء السابقين، وكذلك للأوصياء، حينما كانوا يواجهون التحدي الوقح من أهل الشرك والعناد؛ بحيث لو لم تظهر المعجزة، أو الكرامة لاستطاع أولئك الشياطين أن يثيروا الشبهات المضعفة للدعوة؛ والموجبة لزعزعة درجة الطمأنينة والوثوق لدى كثير ممن آمن بها واطمأن إليها، أو يحدث نفسه بذلك.

فتأتي المعجزة لتثبت أولئك، وتشجع هؤلاء، ولتسحق أيضاً كبرياء المستكبرين، وتكسر شوكتهم، ويكون بها خزي المعاند، وبوار كيد الماكر والحاقد.

الثاني: وثمة معجزات وكرامات، وخوارق عادات أكرم الله بها أنبياءه وأولياءه تشريفاً لهم، وتجلة وتكريماً، وإعزازاً لجانبهم. وقد يستفيد منها

المؤمن القوي سمواً ورسوخَ قدم في الإيمان، ويتثبت بها ضعيف الإيمان، فيزداد بصيرة في الأمر، وتسكن نفسه، ويطمئن قلبه، على قاعدة قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾(1).

وعلى قاعدة: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾(2).

الثالث: ذلك القسم الذي ظهر فيه: أنه يتعامل فيه مع المخلوقات من موقع المدبر، والراعي، والحافظ لها، من موقع أنها جزء من التركيبة العامة، حيث لا بد من التعامل معها على هذا الأساس.

وهذا القسم الأخير هو الذي يعنينا البحث عنه هنا.

فنقول:

إن الله سبحانه قد أراد لهذا الإنسان أن يدخل إلى هذا الوجود، ليقوم بدور هام فيه. وقد اختار الله له هذه الأرض ليتحرك عليها، وينطلق فيها ومنها.

وكان عليه أن يستفيد مما خوله الله إياه من طاقات وإمكانات لإعمارها، وبث الحياة فيها، بل والهيمنة والتسلط على كل ما في هذا الكون، وتسخيره، والاستفادة مما أودعه الله فيه من طاقات وقدرات، من خلال تفعيل نواميسه الطبيعية وإثارة دفائنه وكوامنه وتوظيفها في مجالات البناء الإيجابي، والصحيح، الذي يسهم في إسعاد هذا الإنسان، وفي تكامله،

---

(1) الآية ٢٦٠ من سورة البقرة.

(2) الآية ١ من سورة الإسراء.

ونموه المطرد في مختلف جهات وجوده، حتى في جوانبه النفسية والروحية، والفكرية، والعقيدية، فضلاً عن النواحي الأخرى، من اجتماعية واقتصادية وغيرها.

كل ذلك وفقاً للخطة المرسومة في نطاق التربية الربانية، والإعداد والمواكبة المستمرة لهذا الإنسان في تحركه نحو الأهداف الإنسانية والإلهية السامية والنبيلة العليا، وهو دائب الكدح إلى الله، ومن أجله وفي سبيله، لا غير، وليس إلا.

﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ..﴾[1].

ولكي يتضح ما نرمي إليه بصورة أوفى وأصفى، نذكر هنا آيات قرآنية أشارت إلى أن جميع ما في هذا الكون مسخر للبشر.

وآيات أخرى، تتحدث عن وجود درجة من الشعور والإدراك لدى المخلوقات، من حيوانات وغيرها.

بالإضافة إلى نماذج من التعامل الإيجابي وآفاقه، وما يترتب على ذلك، فنقول:

تسخير المخلوقات للإنسان في الآيات القرآنية:

لقد أشارت الآيات القرآنية إلى تسخير الموجودات للإنسان، ويتضح ذلك بالتأمل في الآيات التالية:

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا..﴾[2].

---

(١) الآية ٦ من سورة الإنشقاق.

(٢) الآية ٦١ من سورة هود.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً..﴾[1].

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ..﴾[2].

﴿..وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ، وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَآتَاكُم مِن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا..﴾[3].

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأكُلُواْ مِنْهُ لَحماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا..﴾[4].

الشعور والإدراك لدى المخلوقات:

ثم إن الإنسان يريد أن يتعامل مع كون ليس جماداً بقول مطلق، وإنما كل الموجودات فيه تمتلك درجة من الشعور والإدراك، وإن كنا لا نعرف كنهه ولا حدوده.

وقد تحدث القرآن عن السماوات، والأرض، والجبال والطير وكل الموجودات، بطريقة تركز هذا المعنى، وتدفع أي تشكيك أو ترديد فيه. فلنقرأ معاً الآيات التالية:

قال تعالى مخاطباً نبيه موسى «عليه السلام»: ﴿..قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ

---

(١) الآية ٢٠ من سورة لقمان.

(٢) الآية ١٣ سورة الجاثية.

(٣) الآيات ٣٢ ـ ٣٤ من سورة إبراهيم.

(٤) الآيات ١٤ ـ ١٨ من سورة النحل.

إِلَى الجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً..﴾[١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾[٢].

وقال سبحانه عن داود: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ، وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾[٣].

وقال في آية أخرى عن داود أيضاً: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ..﴾[٤].

والمراد بالتأويب ترجيع التسبيح على ما يظهر.

وقال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾[٥].

وقال: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾[٦].

وقال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾[٧].

وتسبيح ما في السماوات والأرض، مذكور في عدة آيات[٨].

---

(١) الآية ١٤٣ من سورة الأعراف.

(٢) الآية ٧٢ من سورة الأحزاب.

(٣) الآيتان ١٨ و١٩ سورة ص.

(٤) الآية ١٠ من سورة سبأ.

(٥) الآية ١٣ من سورة الرعد.

(٦) الآية ٦ من سورة الرحمن.

(٧) الآية ٤٤ من سورة الإسراء.

(٨) راجع: الآيتان ١ و ٢٤ من سورة الحشر والآية ١ من سورة التغابن والآية ١ من سورة الصف والآية ١ من سورة الجمعة والآية ١ من سورة الحديد.

وقال سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾(٢).

وقال جل وعلا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾(٣).

فكل ما تقدم يشير بوضوح: إلى أن هذه المخلوقات تملك حالة شعورية وإدراكية معينة، وليست مجرد جمادات أو حيوانات خاوية من ذلك بصورة نهائية.

وهذا ما يفسر لنا: أننا نجد أن الله قد تعاطى معها بطريقة تكرس هذا الفهم، وترسخه، ولا تبقي مجالاً لأي تشكيك أو ترديد فيه.

نماذج حية من تسخير الموجودات العاقلة:

فإذا كان الله سبحانه قد سخر المخلوقات لهذا الإنسان، واتضح أن هذه المخلوقات تمتلك صفة الشعور والإدراك، ولها أعمال عقلانية ومرتبطة بالشعور ومستندة إليه فإننا نذكر هنا نموذجاً قرآنيا حياً، وواقعياً لهذا التسخير تجلت فيه طريقته، وأبعاده ومجالاته بصورة ظاهرة. حيث ذكرت

---

(١) الآية ٢١ من سورة الحشر.

(٢) الآية ١٨ من سورة الحج.

(٣) الآية ٤١ من سورة النور.

الآيات أن الله سبحانه قد سخر الريح، والطير، والجبال، والجن لسليمان وداود «عليهما السلام». بالإضافة إلى هيمنتهما بدرجة ما على نواميس الطبيعة التي تفيد الهيمنة عليها في تحقيق الغايات التي يتم السعي لها، والتحرك باتجاهها، كما أشار إليه الله سبحانه حين تحدث أنه تعالى قد ألان الحديد لداود.

فلنقرأ ذلك كله في الآيات التالية:

قال تعالى: ﴿.. وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ، وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ، وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ، وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾[١].

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ، وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾[٢].

وقال تعالى عن سليمان: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ، وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ، وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾[٣].

قصة سليمان وداود نموذج فذ:

وإذا راجعنا سورة النمل، فإننا نجد فيها نماذج فذة عن تعاطي سليمان

---

(١) الآيات ٧٩ ـ ٨٢ من سورة الأنبياء.

(٢) الآيتان ١٨ و ١٩ من سورة ص.

(٣) الآيات ٣٦ ـ ٣٨ من سورة ص.

وداود مع ما آتاهما الله سبحانه في هذا المجال. وأول ما يواجهنا في الحديث عنهما «عليهما السلام» هو أنه تعالى قد وفر لهما الأدوات الضرورية للتعامل مع هذه المخلوقات في نطاق رعايتها وهدايتها وتوجيهها. فنجدها تبدأ الحديث بأن الله قد آتاهما علماً، وعُلِّما منطق الطير، وأوتيا من كل شيء، ثم ذكرت الآيات نماذج تطبيقية لهذا العلم، وللمعرفة بجميع الألسنة، ثم لتأثير ما آتاه الله سبحانه في إدارة الأمور، وتوجيهها ورعايتها والهيمنة عليها بصورة حيوية وبناءة وإيجابية، لا تأتي إلا بالخير، ولا تؤدي إلا إلى الفلاح.

آيات من سورة النمل:

﴿.. وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالا الحَمْدُ للهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ، وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ المُبِينُ، وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ، حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ، فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِن قَوْلِهَا﴾[1].

ثم تحدثت الآيات عن قصته «عليه السلام» مع الهدهد، والدور الذي قام به، ثم ما كان من الإتيان بعرش بلقيس، بواسطة ما كان لدى ذلك الآتي به من علم من الكتاب. وأن ذلك قد تم قبل أن يرتد طرف سليمان إليه.

---

(١) الآيات ١٥ ـ ١٩ من سورة النمل.

مع آيات سورة النمل:

وقد أظهرت الآيات المتقدمة كيف تم توظيف كل القدرات المادية وغيرها في تحقيق رضا الله سبحانه، وبناء الحياة وتكاملها باتجاه الأهداف الإلهية ووفقاً للخطة المعقولة والمقبولة له تعالى. بدءاً من قصة تبسم سليمان من قول النملة، مروراً بقصة الهدهد، والإتيان بعرش بلقيس بتلك الطريقة المثيرة، ثم تنكير عرشها لها، وانتهاءاً بأمرها بدخول الصرح الذي حسبته لجة، مع أنه صرح ممرد من قوارير.

وقد تجسد ذلك كله من خلال حاكمية وإمامة سليمان عليه وعلى نبينا وآله الصلاة والسلام، ورعايته وهدايته التامة والشاملة.

وقد كانت هذه الهداية والرعاية مستندة إلى علم آتاه الله إياه، والى إمكانات ذات صفة شمولية: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾. فلم يكن ثمة أي قصور في القدرات الذاتية، فقد علم سليمان منطق الطير، وأوتي من العلم ما يكفيه في مهمته الكبيرة والخطيرة.

كما أنه لم يكن ثمة نقص في الإمكانات المادية، كما أشرنا. وكان سليمان أيضاً يحظى برعاية الله تعالى له، ولطفه به، وتسديده وتأييده إلى درجة العصمة.

فلم يبق والحالة هذه إلا المبادرة إلى القيام بالدور المرصود له في نطاق الاستفادة الواعية والإيجابية والبناءة من كل المخلوقات المسخرة لهذا الإنسان، وتوجيهها لتؤدي دورها في الحياة كاملاً غير منقوص..

وهذا ما حصل بالفعل، فكانت المعجزة الكبرى، وكان الإنجاز العظيم، وهذا ما سوف يتحقق بصورة أكثر رسوخاً وشموخاً وعظمة في عهد ولي الأمر قائم آل محمد «عليهم الصلاة والسلام».

إعادة توضيح وبيان:

إنه ما دام أن المفروض بالإنسان هو أن يتعاطى مع جميع المخلوقات التي سخرها الله تعالى له، فقد كان لا بد من أن يخضع تعامله هذا وكذلك تعامله مع نفسه، ومع ربه، ومع كل شيء لضوابط تحفظه من الخطأ ومن التقصير، أو التعدي.

ولقصور الإنسان الظاهر، فقد شاءت الإرادة الإلهية، من موقع اللطف والرحمة أن تمد يد العون له، وهدايته في مسيرته الطويلة المحفوفة بالمزالق والأخطار هداية تامة تفضي به إلى نيل رضا الله سبحانه، وتثمر الوصول إلى تلك الأهداف الكبرى والسامية وتحقيقها، وهي إعمار الكون وفق الخطة الإلهية، التي تريد من خلال ذلك بناء إنسانية الإنسان، وإيصاله إلى الله سبحانه، حيث يصبح جديراً بمقامات القرب منه تعالى، حيث الرضوان والزلفى.

وإذا كان كذلك فإنه يصبح واضحاً: أن المثل القرآني الذي يتمثل في تجربة سليمان وداود «عليهما السلام»، إنما أراد أن يجسد ولو بصورة مصغرة هذه الحقيقة بالذات ليتلمس هذا الإنسان الأهداف الإلهية، وهي تتجسد واقعاً حياً، ملموساً، وليس مجرد خيالات، أو شعارات، أو آمال وطموحات غير عقلانية، ولا مسؤولة.

وهي أيضاً تجسد معنى القيادة المطلوبة والصالحة لتحقيق هدف كهذا، حتى إن طائراً، وهو الهدهد، يضطلع بدور حيوي وفي مستوى مُلكٍ بأسره، وأحد الحاضرين في مجلس سليمان يأتي بعرش بلقيس ـ بواسطة العلم الذي عنده من الكتاب ـ قبل أن يرتد الطرف.

كما أن هذه الشواهد القرآنية، وتلك الكرامات والمعجزات النبوية،

ومنها قصة الجمل التي هي مورد البحث، قد رسخت هذه الحقيقة، سواء بالنسبة لدور الإنسان في الكون، وتعاطيه معه، أو بالنسبة إلى حقائق راهنة لا بد أن تأخذ دورها وحقها، ويحسب حسابها على مستوى التخطيط، وعلى مستوى الممارسة، أو بالنسبة إلى الدور الذي لا بد لهذه القيادة أن تضطلع به، في مقام الرعاية التامة، والهداية العامة، وما يتطلبه ذلك من طاقات ومن إمكانات، ومواصفات قيادية خاصة ومتنوعة، لا تحصل إلا بالرعاية والتربية الإلهية لها، ولا تكون إلا في نبي أو في وصي.

وتصبح معرفة لغات الحيوانات، والوقوف على كثير من أسرار الخلقة، ونواميس الطبيعة ضرورة لا بد منها لهذه القيادة، التي لا بد أن ترعى، وتوازن، وتربي، وتحفظ لكل شيء حقه، وكيانه، ودوره في الحياة. حيث لا بد لها من التدخل المباشر في أحيان كثيرة لحسم الموقف، ولحفظ سلامة المسار.

كما لا بد لها من توجيه الطاقات والاستفادة منها في الوقت المناسب وفي الموقع المناسب، بصورة قويمة وسليمة، كما كان الحال بالنسبة لنبي الله داود، ونبي الله سليمان عليهما وعلى نبينا محمد وآله الصلاة والسلام.

النقاط على الحروف:

وبذلك يتضح: أنه لا بديل عن قيادة المعصوم، إذ أن كل القيادات الأخرى إذا كانت عادلة لن يكون لها أكثر من دور الشرطي الذي ينجح في درء الفتنة حيناً، ويفشل أحياناً.

أما إذا كانت قيادة منحرفة، فهناك الكارثة الكبرى، التي عبرت عنها الكلمة المنسوبة إلى أمير المؤمنين علي «عليه الصلاة والسلام»، حيث يقول:

«أسد حطوم، خير من سلطان ظلوم، وسلطان ظلوم، خير من فتنة تدوم»[١].

وقد اتضح أيضاً: أن وجود الإمام المعصوم في كل عصر وزمان أمر حتمي وضروري حتى ولو كان غائباً ومستوراً، لأن هذا الإمام لسوف يحفظ ويرعى كثيراً من المواقع والمواضع في هذا الكون المسخر للإنسان، التي لولا حفظها ورعايتها لوقعت الكارثة ولساخت الأرض بأهلها.

وبذلك نعرف السر في أن الروايات قد ذكرت: أنه لو بقيت الأرض بغير إمام، أو لو أن الإمام رفع من الأرض ولو ساعة لساخت بأهلها، وماجت كما يموج البحر بأهله[٢].

وأصبح واضحاً معنى الرواية التي تقول: وأما وجه انتفاع الناس بي في غيبتي؛ فكالشمس إذا جللها عن الأنظار السحاب.

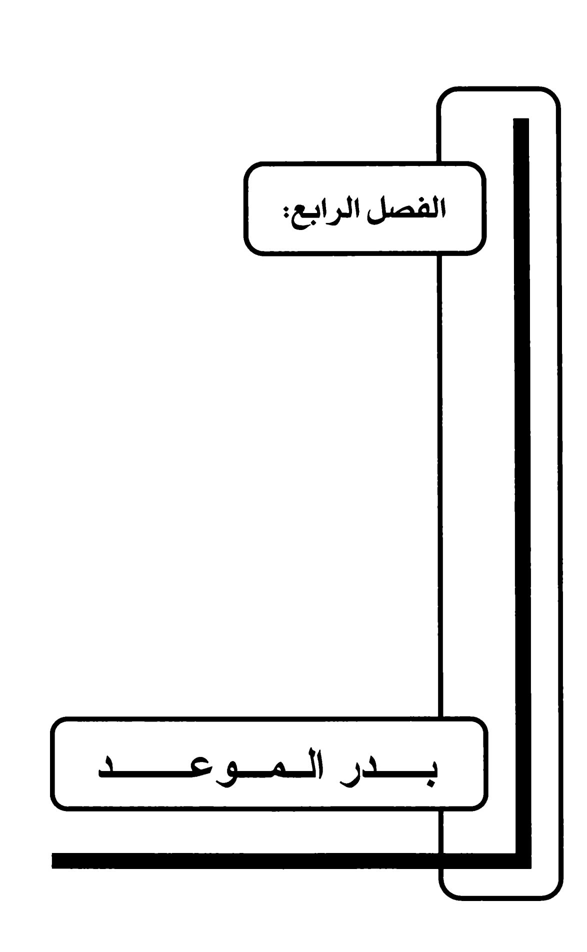
واتضح أيضاً: سر معرفة الأئمة بعلوم الأنبياء، وبألسنة جميع البشر، وبألسنة أصناف الحيوان أيضاً[٣]، إلى غير ذلك من خصائص وتفصيلات في علومهم «عليهم السلام» وفي حدود ولايتهم ورعايتهم لهذا الإنسان في هذا الكون الأرحب.

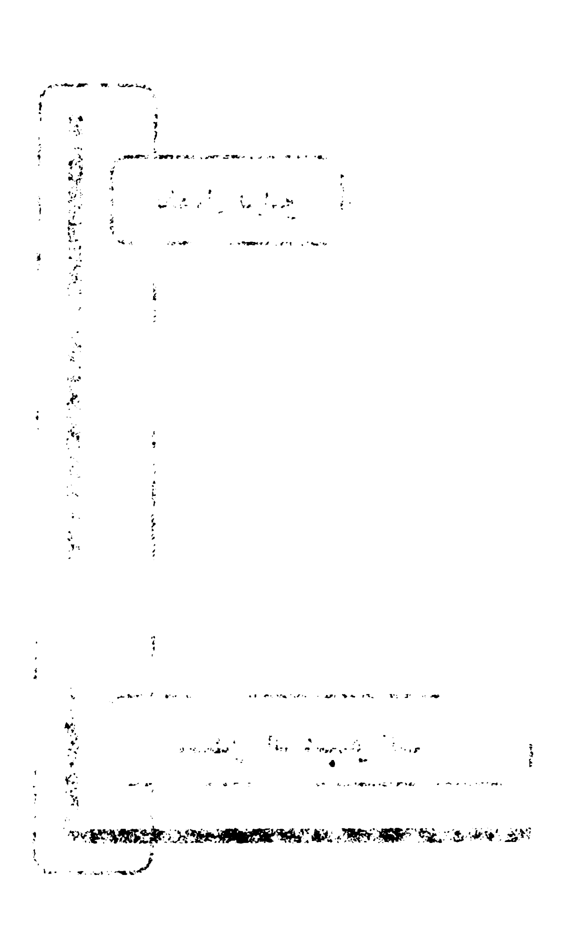
---

(١) البحار ج٧٥ ص٣٥٩ عن كنز الفوائد للكراجكي، وراجع: دستور معالم الحكم ص١٧٠ وغرر الحكم ودرر الكلم ج١ ص٤٣٧ وج٢ ص٧٨٤.

(٢) راجع بصائر الدرجات ص٤٨٨ و ٤٨٩ والكافي ج١ ص١٧٩ و ١٩٨ والغيبة للنعماني ص١٣٩ و ١٣٨.

(٣) راجع كتاب بصائر الدرجات ففيه تفاصيل واسعة حول علوم الأئمة «عليهم السلام» في جميع المجالات، وراجع أيضاً: البحار للعلامة المجلسي، والكافي ج١ وغير ذلك كثير.


الفصل الرابع:
بــــدر الــمــوعــــــد



بداية الحديث عن بدر الموعد:

كانت حرب أحد قد تمخضت عن نتائج مادية تختلف تماماً عن نتائجها المعنوية والسياسية.

فعلى صعيد الخسائر مني المسلمون بخسائر كبيرة، حيث قتل منهم العشرات، حينما خالف الرماة الذين كانوا على فتحة الجبل أمر رسول الله «صلى الله عليه وآله» له بالبقاء في أماكنهم، فسنحت الفرصة للمشركين، وأوقعوا بالمسلمين، وقتلوا منهم عدداً كبيراً من الناس.

ولكن هذه النتيجة لا تمثل كل الواقع، ولا يمكن اعتبارها معياراً تقاس عليه سائر النتائج، التي تمخضت عنها تلك الحرب، على صعيد الربح والخسارة والتأثير في الواقع النفسي لكلا الفريقين، ثم في الواقع السياسي والعسكري.

حيث إن النتائج كانت في هذه المجالات لصالح المسلمين، إذ انتهت المعركة بهزيمة حقيقية فاحشة مني بها المشركون في الجهات الثلاث جميعاً، أي من الناحية العسكرية، والنفسية، وعلى صعيد الحالة السياسية في المنطقة بصورة عامة.

غير أن أبا سفيان قد حاول أن يقوم بمبادرة إعلامية جريئة تحفظ

للمشركين بعض هيبتهم، وتعيد إليهم شيئاً من معنوياتهم حيث أعلن: أن المعركة التالية، والتي قد تكون هي الحاسمة، سوف تكون بعد عام من تاريخ غزوة أحد.

وقد نسي أو تناسى: أن نفس هذا الإعلان ليس في الحقيقة إلا إعلان فشلهم في تحقيق الأهداف التي كانوا يسعون إلى تحقيقها من خلال خوضهم هذه الحرب.

ثم كانت حركة المسلمين السريعة في مطاردتهم عقب انتهاء غزوة أحد، بمثابة فضيحة مخزية للمشركين، لا سيما وأنه «صلى الله عليه وآله» قد قرر أن تكون هذه المطاردة مقتصرة على خصوص جرحى أحد، بقيادة علي أمير المؤمنين «عليه السلام».

وبعد مرور نحو عام، واقتراب الموعد الذي ضربه أبو سفيان كان لا بد من التحرك. وكانت نتيجة هذا التحرك، المزيد من الخزي لأبي سفيان، وكل معسكر الشرك والبغي، والمزيد من العزة والشوكة للمسلمين، وللإسلام في ظل قيادة نبيه الأكرم «صلى الله عليه وآله».

فما الذي جرى في بدر الموعد؟! وما الذي نتج عنه؟.

هذا ما سوف نتعرض له في ما يلي من مطالب..

تاريخ غزوة بدر الموعد:

يذكر المؤرخون: أن غزوة بدر الصغرى (الموعد) (الثالثة)، قد كانت في هلال ذي القعدة في السنة الرابعة.

وقيل: في شوال.

وقد غاب فيها رسول الله «صلى الله عليه وآله» ست عشرة ليلة.

والمقصود هو: بدر الصفراء، التي كانت سوقاً للعرب في الجاهلية. يجتمعون فيها في كل عام لمدة ثمانية أيام، ابتداء من أول ذي القعدة، ثم يفترقون[1].

وقد ربح المسلمون فيها في تجارتهم في سوق بدر، في هذه المناسبة بصورة ملفتة، كما سنرى.

وأما قول موسى بن عقبة: إنها كانت في شوال سنة ثلاث[2] فلا يصح، لأنها كانت لأجل تنفيذ طلب أبي سفيان بعد انتهاء حرب أحد بأن يلتقوا للحرب في بدر، بعد عام. وأحد إنما كانت في السنة الثالثة كما هو معلوم[3].

---

(١) راجع في جميع ما ذكرناه، كلاً أو بعضاً: مغازي الواقدي ج١ ص٣٨٤ وتاريخ الخميس ج١ ص٤٦٥ والسيرة الحلبية ج٢ ص٢٧٥ وسيرة مغلطاي ص٥٣ والطبقات الكبرى لابن سعد ج٢ ص٥٩ وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص٢٠٤ ونهاية الأرب ج١٧ ص١٥٤.

وراجع: المواهب اللدنية ج١ ص١٠٨ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ قسم ٢ ص٢٩ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٢٢٩ وتاريخ ابن الوردي ج١ ص١٦٠ وأنساب الأشراف ج١ ص٣٣٩ والتنبيه والإشراف ص٢١٤ وزاد المعاد ج٢ ص١١٢ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٦٩ و ١٧٢ والبداية والنهاية ج٤ ص٨٧ و ٨٩ و ٩٣ و ٩٤ والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص٢٦٥ ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٣٨٨.

(٢) راجع: السيرة الحلبية ج٢ ص٢٧٥ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٧٢ والبداية والنهاية ج٤ ص٨٩ والدر المنثور ج٢ ص١٠١.

(٣) راجع: السيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٧٢ والبداية والنهاية ج٤ ص٨٩.

كما أن الأشبه: أنها كانت في ذي القعدة، أو قبل ذلك لأن أحداً كانت في ذي القعدة، وكان بينهما سنة[1].

والصحيح: أنها كانت في شعبان كما سيأتي في غزوة الخندق.

النص التاريخي لبدر الصغرى:

يذكر المؤرخون: أن أبا سفيان لما أراد أن ينصرف من أُحد نادى: يا محمد، الموعد بيننا وبينكم موسم بدر الصغرى لقابل، إن شئت نلتقي بها فنقتتل.

وعن مجاهد ـ كما في الوفاء ـ أنه قال: يا محمد، موعدكم بدر، حيث قتلتم أصحابنا.

فقال النبي «صلى الله عليه وآله» لعمر بن الخطاب: قل: نعم، إن شاء الله. فافترق الناس على ذلك.

ثم يذكر المؤرخون وقائع غزوة بدر الموعد.

ونحن من أجل أن نلمّ بأكثر الخصوصيات التي قيلت في هذه الغزوة وعنها، نجمع شتات كلمات الرواة والمحدثين، ونقلة الأخبار والمؤرخين، ونؤلف بينها، ثم نشير في نهاية ذلك إلى المصادر التي قد يكون فيها أكثر الذي ذكرناه، أو بعضه.

فنقول:

لما مضى على أُحد ما يقرب من عام، وقرب الموعد الذي ضربه أبو سفيان، كره الخروج وخاف من عواقبه، ثم قر رأيه بعد المشاورة على

---

(١) راجع: نهاية الأرب ج١٧ ص١٥٤.

الخروج شيئاً يسيراً، ثم يعود، فخرج في أهل مكة، حتى نزل مجنّة، من ناحية الظهران.

يقال: عُسفان. وكان في ألفي رجل، ومعهم خمسون فرساً.

ويقول البعض: إنه بعد أن خرج إلى عسفان أو مجنة ألقى الله الرعب في قلبه، فبدا له في الرجوع.

فلقي نعيم بن مسعود الأشجعي، وقد قدم معتمراً؛ فطلب منه: أن يلحق بالمدينة، ويثبط المسلمين، ويعلمهم: أن أبا سفيان في جمع كثير، ولا طاقة لهم بهم، ووعده أن يعطيه عشرة ـ وعند الواقدي: عشرين ـ من الإبل، يضعها على يدي سهيل بن عمرو، ويضمنها سهيل له. وحمله على بعير.

ومما قاله له، بعد أن ذكر له: أن هذا عام جدب: «قد بدا لي أن لا أخرج إليها، وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج؛ فيزيدهم ذلك جراءة؛ فلأن يكون الخُلف من قبلهم أحب الي من أن يكون من قبلي».

وبعد ضمان سهيل بن عمرو الإبل لنعيم، خرج مسرعاً، حتى أتى المدينة؛ فوجد الناس يتجهزون لميعاد أبي سفيان، فسألهم فأخبروه بما يريدون، فقال لهم: «بئس الرأي رأيتم، أتوكم في دياركم وقراركم، فلم يفلت منكم إلا الشريد، فتريدون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم عند الموسم؟! والله، لا يفلت منكم أحد».

وجعل يطوف بهذا القول في أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وآله».

فكره أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وآله» الخروج.

وزاد الواقدي قوله: «حتى نطقوا بتصديق قول نعيم، أو من نطق منهم.

واستبشر بذلك المنافقون واليهود، وقالوا: محمد لا يفلت من هذا الجمع».

حتى بلغ رسول الله «صلى الله عليه وآله» ذلك، وتظاهرت به الأخبار عنده، حتى خاف رسول الله «صلى الله عليه وآله» أن لا يخرج معه أحد.

فجاء أبو بكر بن أبي قحافة (رض)، وعمر بن الخطاب (رض)، وقد سمعا ما سمعا، فقالا: يا رسول الله، إن الله مظهر دينه، ومعز نبيه. وقد وعدنا القوم موعداً، ونحن لا نحب أن نتخلف عن القوم، فيرون أن هذا جبن منا عنهم؛ فسر لموعدهم؛ فوالله، إن في ذلك لخيرة.

فسر رسول الله «صلى الله عليه وآله» بذلك، ثم قال: «والذي نفسي بيده، لأخرجن ولو وحدي».

قال عثمان: «لقد رأيتنا وقد قذف الرعب في قلوبنا فما أرى أحداً له نية في الخروج».

فأما الجبان، فإنه رجع، وتأهب الشجاع للقتال، وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل.

واستخلف رسول الله «صلى الله عليه وآله» على المدينة عبد الله بن رواحة [أو عبد الله بن أبي سلول][1] وحمل لواءه الأعظم علي بن أبي طالب، في ألف وخمس مائة رجل. والخيل عشرة أفراس.

قال الواقدي[2]: «فرس لرسول الله «صلى الله عليه وآله»، وفرس لأبي

---

(١) هذا القيل ذكره في السيرة الحلبية ج٢ ص٢٧٥ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ قسم ٢ ص٢٩ ولم يذكر غيره، وكذا في السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢٢٠ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٦٩ والبداية والنهاية ج٤ ص٨٧.

(٢) المغازي ج١ ص٣٨٧.

بكر، وفرس لعمر، وفرس لأبي قتادة، وفرس لسعيد بن زيد، وفرس للمقداد، وفرس للحباب، وفرس للزبير، وفرس لعباد بن بشر».

وخرجوا ببضائع لهم وتجارات.

وقالوا: إن لقينا أبا سفيان فهو الذي خرجنا له، وإن لم نلقه ابتعنا ببضائعنا. فجعلوا يلقون المشركين، ويسألون عن قريش، فيقولون: قد جمعوا لكم، يريدون أن يرهبوا المسلمين.

فيقول المؤمنون: حسبنا الله ونعم الوكيل.

وفي نص آخر: قال لهم المنافقون: قد قتلوكم عند بيوتكم، فكيف إذا أتيتموهم في بلادهم، وقد جمعوا لكم، والله لا ترجعون أبداً.

ومهما يكن من أمر، فإنهم لما قربوا من بدر قالوا لهم: إنها امتلأت من الذين جمعهم أبو سفيان، يرعبونهم ويرهبونهم، ونزلت آية: **﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ..﴾**[1] فلما بلغوا بدراً وجدوا أسواقاً لا ينازعهم فيها أحد [وفي الحلبية[2] فأنزل الله: **﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ..﴾**]..

وقال مجاهد وعكرمة: في هذه الغزوة نزل قوله تعالى: **﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لله وَالرَّسُولِ..﴾**[3].

وعند أكثر المفسرين: نزلت هذه الآية في غزوة حمراء الأسد.

وبلغ المسلمون بدراً ليلة هلال ذي القعدة. والصحيح في شعبان.

---

(١) الآية ١٧٣ من سورة آل عمران.

(٢) السيرة الحلبية ج٢ ص٢٧٦.

(٣) الآية ١٧٢ من سورة آل عمران.

وقد أقام النبي «صلى الله عليه وآله» بها ثمانية أيام، ينتظر أبا سفيان.

وباع المسلمون تجاراتهم وبضائعهم في سوق بدر، وأصابوا بالدرهم درهمين.

وقد سمع الناس بمسيرهم، وذهب صيت جيشهم إلى كل جانب، فكبت الله بذلك عدوهم.

وانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين.

أما المشركون فرأى لهم أبو سفيان أن يخرجوا، فيسيروا ليلة أو ليلتين، ثم يرجعون؛ فإن كان محمد قد خرج احتجوا بأن السنة كانت سنة جدب، وإن لم يخرج كانت هذه لهم عليه.

فخرجوا، وهم ألفان، ومعهم خمسون فرساً، حتى انتهوا إلى مجنّة، وهو سوق معروف بناحية الظهران، وقيل: إلى عسفان، ثم رجعوا.

وفي نص آخر: أن ابن حمام قدم على قريش، فأخبرهم بمسير المسلمين إلى بدر، فأُرعب أبو سفيان، ورجع إلى مكة. فسماهم أهل مكة: جيش السويق. أي خرجوا يشربون السويق.

وبلغ المشركين خروج المسلمين إلى بدر وكثرتهم، وأنهم كانوا أصحاب الموسم، فقال صفوان بن أمية لأبي سفيان: نهيتك أن تعد القوم، ولم تسمع كلامي. قد اجترؤوا علينا ورأوا: أنّا قد أخلفناهم، ثم أخذوا بالكيد والتهيؤ لغزوة الخندق.

كانت تلك الصورة مأخوذة من نصوص ذكرت هنا وهناك في المصادر

المختلفة[1] أوردناها في سياق واحد، لتكون الصورة التي يرسمها لنا المؤرخون أكثر انسجاماً، واستجماعاً للملامح الضرورية التي يريدون توجيه الأنظار إليها.

وقد ذكروا أيضاً: أن عبد الله بن رواحة، أو حسان بن ثابت قد قال في جملة أبيات له:

وعدنا أبا سفيان وعداً لم نجد ... لميعاده صدقاً وقد كان وافيا[2]

---

(١) راجع في جميع ما تقدم، كله أو بعضه: تاريخ الخميس ج١ ص٤٦٥ و ٤٦٦ والسيرة الحلبية ج٢ ص٢٧٥ ـ ٢٧٧ وحبيب السير ج١ ص٣٥٦ وزاد المعاد ج٢ ص١١٢ والطبقات الكبرى ج٢ ص٥٩ و ٦٠ وتاريخ اليعقوبي ج٢ ص٦٧ وسيرة مغلطاي ص٥٣ وحياة محمد لهيكل ص٢٧٩ و ٢٨٠ ومغازي الواقدي ج١ ص٤٨٤ ـ ٤٩٠ والسيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢٢٠ وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص٢٠٣ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ قسم ٢ ص٢٩ والوفاء ص٦٩٠ والكامل في التاريخ ج٢ ص١٧٥ ونهاية الأرب ج١٧ ص١٥٤ و ١٥٥ والمواهب اللدنية ج١ ص١٠٨ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٢٢٩ و ٢٣٠ وتاريخ ابن الوردي ج١ ص١٦٠ وأنساب الأشراف ج١ ص٣٤٠ والثقات ج١ ص٢٤٤ و ٢٤٥ والتنبيه والإشراف ص٢١٤ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٦٩ والبداية والنهاية ج٤ ص٨٧ ـ ٨٩ والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص٢٦٥ ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٣٨٤ ـ ٣٨٨ والدر المنثور ج٢ ص١٠١ و ١٠٣ و ١٠٤ عن عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر.

(٢) راجع: البدء والتاريخ ج٤ ص٢١٤ وأنساب الأشراف ج١ ص٣٤٠ والسيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢٢١ ومغازي الواقدي ج١ ص٣٨٩ ونهاية الأرب ج١٧ ص١٥٦ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٧٠.

ولنا هنا مناقشات وشكوك في بعض ما ذكروه، كما أن لنا بعض الإيضاحات والتحليلات التي ربما تكون مفيدة هنا، ونحن نذكر ذلك فيما يلي من مطالب، فنقول:

آيات سورة آل عمران:

قد تقدم قولهم: إن آية: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ للهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ، الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللهِ وَ اللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[1].. قد نزلت في مناسبة بدر الموعد؛ لأن المسلمين قالوا ذلك.

ولكننا لا نستطيع قبول ذلك؛ فعدا عن تناقض الروايات في مكان نزولها: في المدينة، أو في الطريق إلى بدر، أو في بدر نفسها، كما تقدم، نسجل الأمور التالية:

الأول: قال العسقلاني، بالنسبة لآية: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ للهِ﴾: «والصحيح: أن هذه الآية نزلت في شأن حمراء الأسد، كما نص عليه العماد بن كثير»[2].

وقد روى المحدثون والمؤرخون، والمفسرون: أنها نزلت في حمراء الأسد، فراجع ما رووه عن: ابن عباس، والحسن، وابن جريج، وعائشة، وأبي السائب، والسدي، وقتادة، وأنس، ومن طريق العوفي. وعن عبد الله بن أبي بكر بن محمد

---

(١) الآية ١٧٢ ـ ١٧٤ من سورة آل عمران.

(٢) المواهب اللدنية ج١ ص١٠٨ وراجع: السيرة النبوية لدحلان ج١ ص٢٦٥.

بن عمرو بن حزم[1].

وروي أيضاً عن أبي رافع بطرق كثيرة، وكذا عن أبي مريم.

وعن جابر، عن الإمام الباقر «عليه السلام»: أنها نزلت في علي «عليه السلام» في حمراء الأسد[2].

الثاني: إن سياق الآيات لا يتلاءم مع غزوة بدر الصغرى، فهي تمدح الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح. وذلك إنما يناسب غزوة حمراء الأسد؛ حيث إن الذين قاموا بها هم خصوص أولئك الذين جرحوا في حرب أحد.

أما في بدر الصغرى، فكان قد مضى عام بكامله على تلك الجراح. ولم يكن في بدر الصغرى نفسها حرب ولا جراح.

الثالث: إن هذه الآيات تتمدح أولئك الذين قال لهم الناس: إن الناس

---

(١) تجد هذه الروايات كلها في الدر المنثور ج٢ ص١٠١ ـ ١٠٣ وقد نقلها بدوره بصورة متنوعة عن المصادر التالية: ابن إسحاق، وابن جرير، والبخاري، ومسلم، وأحمد، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، والحاكم، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل، وابن ماجة، والنسائي والطبراني، وعبد بن حميد، والخطيب، وابن مردويه.

(٢) تفسير البرهان ج١ ص٣٢٦ والدر المنثور ج٢ ص١٠٣ عن ابن مردويه. وقد يكون ثمة مبرر لاحتمال أن يكون ثمة تعمد لدعوى نزول الآيات في بدر الموعد، من أجل إبعاد هذا الأمر عن أن يكون فيه تكريم لعلي «عليه السلام»، وإشادة بمواقفه الرسالية والجهادية. وقد تعودنا من هؤلاء الشيء الكثير الذي يصب في هذا الاتجاه، كما هو معلوم.

قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيماناً. مع أن الروايات التي تتحدث عن قصة بدر الصغرى، قد صرح كثير منها بأن أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وآله» قد كرهوا الخروج إلى بدر الموعد، حتى نطقوا بتصديق قول نعيم بن مسعود، الذي كان يخذلهم ويُخَوِّفهم، واستبشر المنافقون واليهود، حتى بلغ رسول الله «صلى الله عليه وآله» ذلك، وتظاهرت به الأخبار عنده، حتى خاف رسول الله «صلى الله عليه وآله» أن لا يخرج منهم أحد.

حتى قال «صلى الله عليه وآله»: والذي نفسي بيده، لأخرجن ولو وحدي.

وقال عثمان بن عفان: لقد رأيتنا وقد قذف الرعب في قلوبنا، فما أرى أحداً له نية في الخروج..

مواقف لا بد من التأكد من صحتها:

ويذكر البعض: أن نعيم بن مسعود قدم المدينة: «وأرجف بكثرة جموع أبي سفيان. أي وصار يطوف فيهم، حتى قذف الرعب في قلوب المسلمين، ولم يبق لهم نية في الخروج، واستبشر المنافقون، واليهود، وقالوا: محمد لا يفلت من هذا الجمع.

فجاء أبو بكر، وعمر، إلى النبي «صلى الله عليه وآله»، وقد سمعا ما أرجف به المسلمون، وقالا له: يا رسول الله، إن الله مظهر نبيه، ومعز دينه، وقد وعدنا القوم موعداً لا نحب أن نتخلف عنه، فيرون أن هذا جبن. فسر لموعدهم، فوالله إن في ذلك لخيرة.

فسر رسول الله «صلى الله عليه وآله» بذلك ثم قال: والذي نفسي بيده، لأخرجن، وإن لم يخرج معي أحد، فأذهب الله عنهم ما كانوا يجدون، وحمل

لواء رسول الله «صلى الله عليه وآله» علي بن أبي طالب الخ..»[1].

ونقول:

إن ما يذكر هنا من موقف لأبي بكر وعمر لا يتلاءم مع سائر مواقفهما في مناسبات كهذه، فراجع موقفهما في غزوة بدر مثلاً، ثم موقفهما في الأحزاب، وخيبر، وغيرها. بالإضافة إلى فرارهما في المواطن، ومنها غزوة أُحد، وهي الغزوة التي ضرب فيها الموعد لبدر الصغرى هذه!!

وقد تقدم: أن المسلمين كرهوا الخروج، وتظاهرت بذلك الأخبار عند رسول الله «صلى الله عليه وآله» حتى خاف أن لا يخرج معه أحد، وقال: والذي نفسي بيده لأخرجن، ولو لوحدي.

وقال عثمان بن عفان: لقد رأيتنا، وقد قذف الرعب في قلوبنا فما أرى أحداً له نية في الخروج. فكلام عثمان نكرة في سياق النفي يشمل حتى عمر وأبا بكر، فلا يتلاءم مع ما يذكر من موقفهما هنا.

فإن صح ما نقل عن الشيخين هنا، ولا أراه يصح، فإننا نجد أنفسنا أمام احتمالين، لا بد أن يكون أحدهما هو السبب ونرجح ثانيهما، وهما:

الأول: أن يكونا قد رأيا تصميم رسول الله «صلى الله عليه وآله» على المسير، إلى درجة عرفا أنه «صلى الله عليه وآله» لن يتراجع عن قراره بأي ثمن كان، ولو كان وحده.

فموقفهما هذا لن يكون له أثر في ذلك، ولسوف يكون مفيداً في تسجيل موقف إيجابي لهما، يمكن أن يكون مفيداً لهما في تحسين موقعهما عند

---

(١) السيرة الحلبية ج٢ ص٢٧٦ والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص٢٦٥.

النبي «صلى الله عليه وآله» والمسلمين، ولا سيما بعد فرارهما في أحد، وبعد مشورتهما المتخاذلة في بدر.

الثاني: إنهما ربما يكونان قد وقفا من نعيم بن مسعود، أو من غيره على حقيقة أمر أهل مكة، وأنهم خائفون من مواجهة النبي «صلى الله عليه وآله» والمسلمين بالحرب، لا سيما مع ما نلمحه من وجود قدر من التفاهم والانسجام في المواقف أحياناً، كما تقدم في غزوة بدر، حول الاستشارة في الحرب، ثم في قصة الأسرى، وبعد ذلك في غزوة أحد حينما وضعنا بعض علامات الاستفهام حول تحركات الخليفة الثاني.

والخلاصة: أنهما إذا كانا قد علما بحقيقة أمر المشركين، فهما يعلمان مسبقاً: أن خروج النبي «صلى الله عليه وآله» والمسلمين إلى بدر الموعد لن يشكل أي خطر على مشركي قريش، إلا من الناحية الإعلامية والسياسية والنفسية. كما أنهما نفسيهما سوف لا يواجهان أي خطر يخشيانه، ولو في ضمن زحمة المعركة، كما قد حصل في أحد.

الأفراح والأتراح:

إننا ـ وإن كنا نقدر الواقدي في حدود معينة، ونراه منصفاً شيئاً ما، وهو من حيث نقله ينقل سيرة النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله» ـ بصورة أفضل وأدق مما ينقلها البعض، ولكننا نعتب عليه أحياناً ـ ليس لأجل إيراده ما ثبت بالدليل القاطع زيفه، أو التزيد فيه من الرواة، فإن ذلك أمر مألوف ومعروف، ولم ينج منه مؤلف في قضايا التاريخ وغيرها ـ بل لأجل وقوعه أحياناً ـ كغيره ـ في المتناقضات، أو فريسة لأصحاب الأهواء، وأهل

الزيغ من الحاقدين والموتورين، وقد وقع هنا في هذا الخطأ بالذات، حين صور لنا أن المشركين كانوا يعيشون أفراح التأهب لحرب بدر الموعد، وكان المسلمون يعيشون الأتراح، ويهيمن عليهم الرعب والخوف والجبن، فهو يقول عن المشركين:

«وتهيأوا للخروج، وأجلبوا. وكان هذا عندهم أعظم الأيام، لأنهم رجعوا من أحد والدولة لهم، طمعوا في بدر الموعد أيضاً بمثل ذلك من الظفر»[1].

ويقول عن المسلمين: «فيقدم القادم على أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فيراهم على تجهز، فيقول: تركت أبا سفيان قد جمع الجموع، وسار في العرب ليسير إليكم لموعدكم، فيكره ذلك المسلمون، ويهيبهم ذلك»[2].

ونقول:

قد ذكرنا في بداية الحديث: أن المشركين لم ينتصروا في أحد، بل انهزموا هزيمة نكراء.

وقد اتضح لديهم: أن ما جرى على المسلمين آنئذٍ لن يتكرر في المستقبل، لأن ذلك إنما نشأ عن عدم الانضباطية لدى الرماة، الذين كانوا يحرسون في الجبل، ولم يكن بسبب ضعف في القدرات الحربية، ولا لجبن في المقاتلين، أو خور في عزائمهم، ولا بسبب تفرق الأهواء، ولا لأجل نقص في كفاءة القيادة.

---

(١) المغازي للواقدي ج١ ص٣٨٤.

(٢) المغازي للواقدي ج١ ص٣٨٥.

وإنما هو مجرد خطأ شخصي أعقبته حركة قتالية فريدة، تجلت فيها كفاءات لا يمكن مواجهتها، في أي زمان أو مكان، ولا سيما من علي أمير المؤمنين «عليه السلام»، ثم بعض من لحقه من الصحابة الأخيار.

فلا معنى إذن: لابتهاج المشركين بحرب، لو كانت تشبه حرب أحد، فذلك يعني الدمار الكامل والشامل لهم.

وأما بالنسبة لحالة المسلمين، التي تحدث عنها الواقدي، فنحن لا نوافق المؤرخين، ولا المحدثين على ما ذكروه من خوف شامل في المسلمين من مواجهة المشركين في بدر الموعد؛ إذ لم يكن ثمة مبرر لذلك، لا سيما بعد أن حقق المسلمون انتصارات رائعة ومثيرة على المشركين في بدر وأحد، رغم خطأ الرماة الذي تسبب بحدوث كارثة.

ثم إنهم بجهود علي «عليه السلام» تلافوا الخطأ وهزموا عدوهم.

هذا بالإضافة إلى انتصاراتهم على اليهود، ثم تحركهم في المنطقة بصورة زادت من هيمنتهم ونفوذهم، وجعلتهم أكثر قوة وشوكة وثقة بالمستقبل.

ولنا أن نتساءل: إذا كان المسلمون ارتعبوا حتى خاف النبي «صلى الله عليه وآله» أن لا يخرج معه أحد، فكيف ارتفع هذا الخوف عنهم، حتى خرج من الشجعان معه ألف وخمس مئة رجل، مع أن الذين خرجوا معه إلى أُحد؛ ليدافعوا عن بلدهم المدينة، كانوا ألف رجل (رجع منهم ثلاث مئة مع ابن أبي) مع الإشارة إلى أن عدد المسلمين لم يكن يزيد عن الخارجين معه إلا يسيراً.

وهل يمكن أن يذكر لنا التاريخ اسم واحد من أولئك الذين تخلفوا عن الخروج خوفاً وجبناً؟!

أما مشركو مكة فقد تقلص نفوذهم في المنطقة بدرجة كبيرة، وتشكك كثير من الناس في قدرتهم على تحقيق نصر حاسم على المسلمين بسهولة، لا سيما بعد الهزائم سياسياً وعسكرياً التي لحقت بهم حسبما أشرنا إليه، ثم ما تتعرض له قوافلهم التجارية، وعدم قدرتهم على توفير الأمن لها، بالإضافة إلى توسع منطقة نفوذ المسلمين وتحالفاتهم، على حساب ما كان لهم من نفوذ وتحالفات.

ولعل ما يقال: عن رعب في المسلمين وتلكُّؤ قد أريد له أن يجسد المصداق للآيات التي تتحدث عن تخويف الناس لهم، مع أن الآيات تذكر تكذيباً لهذه الشائعة، وأن هذا التخويف قد زاد المسلمين إيماناً وتصميماً، ومع أن الآيات إنما نزلت في غزوة حمراء الأسد.

ولعله قد أريد ترتيب أجواء مناسبة، ليقدِّم أبو بكر وعمر مشورتهما بلزوم المواجهة، لتظهر شجاعتهما دون سائر المسلمين، وليعوضهما ذلك بعض ما كانا قد فقداه في حالات سابقة.

ولعل فيما ذكرناه كفاية لمن أراد الرشد والهداية.

المجتمع المفتوح:

وقد قرأنا فيما تقدم: أن نعيم بن مسعود الأشجعي، قد ذهب إلى المدينة بهدف تخذيل المسلمين عن الخروج إلى بدر الموعد. ولعل تردد المشركين إلى المدينة بتجاراتهم، ومتابعة شؤونهم ومصالحهم، هو من الأمور الواضحة والبديهية تاريخياً.

وربما يحمل ذلك بعض السلبيات للمسلمين أحياناً، كما لوحظ في هذه

المرة، التي قام فيها نعيم بدور مخرب، ومضر جداً.

ولكن من الواضح: أن الإسلام وهو يريد للآخرين، الذين يناوئونه أن يعيدوا النظر في مواقفهم، فترة بعد أخرى، فكان بعيداً عن أجواء التشنج يفسح لهم المجال للتعامل مع المسلمين بصورة مباشرة، ليلتمسوا بأنفسهم وبصورة عملية وميدانية محاسن الإسلام، وآدابه، وسياساته، وكل آفاقه بحرية تامة، ومن دون الاعتماد على الشائعات، ولا على الإعلام الموجه الذي قد يتحفظ الكثيرون تجاهه، لأنهم قد يتخيلونه غير قادر على أن يعكس بعض الواقعيات بدقة وأمانة.

ثم إن هذا التعامل الطبيعي والحر من شأنه أن يزيل عُقداً كثيرة ربما لا يمكن إزالتها بدونه، بل هي قد تزيد رسوخاً وتجذراً، وتتراكم حولها وفيها الأدران إلى درجة كبيرة وخطيرة، إذا كانت الأبواب موصدة أمامهم، ولا يعرفون عن الإسلام والمسلمين إلا نتفاً قد تتسرب ـ لسبب أو لآخر ـ فتصل إليهم سليمة أو مشوهة، حسب الظروف.

وبعد.. فإن الإسلام واثق من كل ما لديه، وليس ثمة شيء محرج له على الإطلاق، لا في المجال العقيدي، ولا التشريعي، ولا السلوكي، ولا في دائرة الدوافع والنوايا، ولا في محيط المرامي والأهداف، ولا في غير ذلك من مجالات.

وأما ما ينشأ عن التعامل مع المشركين من سلبيات أحياناً، فإنه يمكن تلافيه، ولا أقل يمكن التقليل من آثاره وأخطاره من خلال تحصين الأمة بالوعي، وبالإيمان، وبالتربية الصالحة في مختلف المجالات. بالإضافة إلى الدور الأساسي والمحوري، الذي تقوم به القيادة المؤهلة ـ وحدها ـ لأن

تهدي الأمة، وتقودها إلى الفلاح، والسداد والنجاح، وهي قيادة الأنبياء، والأئمة المعصومين «عليهم الصلاة والسلام».

استخلاف ابن أبي على المدينة:

وقد ذكر في ما تقدم: أن هناك من يقول: إن النبي «صلى الله عليه وآله» قد استخلف عبد الله بن أبي بن سلول على المدينة، حين سار إلى بدر الموعد.

ونحن نشك: في صحة ذلك ونرجح أن يكون ابن رواحة هو المستخلف عليها، كما ذكرته نصوص كثيرة أخرى؛ إذ من البعيد أن يستخلف النبي «صلى الله عليه وآله» رأس النفاق، ذلك الرجل الذي كان يميل إلى المشركين واليهود أكثر مما كان يميل إلى المسلمين، ولم تزل تظهر منه فلتات وكلمات خطيرة، لو أراد النبي «صلى الله عليه وآله» أن يجازيه عليها، لم يكن جزاؤه أقل من القتل؛ وإنما استخلف «صلى الله عليه وآله» علياً «عليه السلام» في غزوة تبوك خوفاً من تحرك المنافقين فيها كما سنرى إن شاء الله.

إلا أن يقال: إن من الممكن أن يكون النبي «صلى الله عليه وآله» يريد أن يتألفه بذلك، كما كان يتألف غيره بإسناد بعض المهام إليهم.

قوة الإسلام:

قال الواقدي: «وأقبل رجل من بني ضمرة، يقال له: مخشي بن عمرو ـ وهو الذي حالف رسول الله «صلى الله عليه وآله» على قومه، حين غزا رسول الله «صلى الله عليه وآله» ودّان في المرة الأولى ـ فقام ـ والناس مجتمعون في سوقهم، وأصحاب رسول الله «صلى الله عليه وآله» أكثر أهل ذلك الموسم ـ فقال: يا محمد، قد أخبرنا: أنه لم يبق منكم أحد، فما أعلمكم

إلا أهل الموسم!

فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»؛ ليرفع ذلك إلى عدوه من قريش: ما أخرجنا إلا موعد أبي سفيان، وقتال عدونا، وإن شئت مع ذلك ـ نبذنا إليك، وإلى قومك العهد، ثم جادلناكم قبل أن نبرح من منزلنا هذا.

فقال الضمري: بل نكف أيدينا عنكم، ونتمسك بحلفك. وسمع بذلك معبد بن أبي معبد الخزاعي، فانطلق سريعاً، وكان مقيماً ثمانية أيام، وقد رأى أهل الموسم، ورأى أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وسمع كلام مخشي؛ فانطلق حتى قدم مكة، فكان أول من قدم بخبر موسم بدر. فسألوه فأخبرهم بكثرة أصحاب محمد، وأنهم أهل ذلك الموسم، وما سمع من قول رسول الله «صلى الله عليه وآله» للضمري.

وقال: محمد في ألفين من أصحابه الخ..

قال البيهقي: فأفزعهم ذلك، ثم يذكر ملامة صفوان بن أمية لأبي سفيان»[1].

وقد يستشف البعض من هذه القضية: أن النبي «صلى الله عليه وآله» قد أحس من مخشي بن عمرو: أنه قد قال ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية؛ فقابله النبي «صلى الله عليه وآله» بهذا الأسلوب[2].

---

(١) مغازي الواقدي ج١ ص٣٨٨ وراجع: السيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٦٩ والبداية والنهاية ج٤ ص٨٨ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٢٢٩ و ٢٣٠ والسيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢٢٠ وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص٢٠٣ و ٢٠٤ ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٣٨٥ و ٣٨٧.

(٢) سيرة المصطفى ص٤٥٥.

ومن الواضح: أنه «صلى الله عليه وآله» لم يكن لينقض العهد، ولا يباشر حرباً مع أحد إلا إذا اضطرته الظروف وكان مع ذلك لين الطبع كريم النفس، قد بلغ الغاية من النبل والأخلاق الكريمة، حتى أنزل الله فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1].

وبعبارة أخرى: إنه إنما اتخذ هذا الموقف من أجل أن يعيد إلى ذلك الرجل توازنه، وليفهمه: أن الأمور أعمق وأخطر من أن يتلاعب ويستخف بها قاصرو النظر، الذين لا يشعرون بالمسؤولية، ولا يحسنون فهم الأمور.

ونقول:

إن كلام مخشي بن عمرو لا يوحي بأنه كان في مقام الاستهزاء، غير أن من الواضح: أن هذا الرجل، كان يسعده أن يرى المسلمين وقد أبيدت خضراؤهم، وقتلت رجالهم، وسبيت نساؤهم، ولعله صدق ما بلغه من ذلك، ثم فوجئ بعكس ما كان يتوقعه وسمع به. فجاء ليعرف السر في ذلك، وكأنه كان على قناعة بأن مشركي مكة قادرون على ذلك، وأن المسلمين على درجة كبيرة من الضعف والوهن في قبال المشركين.

وربما يكون ما جرى في أحد، الذي لم ينقل إليه، والى سائر الناس، في صورته الحقيقية قد عزز هذه القناعة لديه، لأنه إنما وقف على نتائج حرب أحد، ولم يعرف ملابساتها، وأنها لم تكن نتيجة ضعف حقيقي في عزيمة المسلمين، ولا لتخاذل منهم في ساحة الحرب والجهاد، وبذل المهج، وخوض اللجج في سبيل الله سبحانه، كما أنه لم يكن لأجل قوة متميزة في

---

(١) سيرة المصطفى ص٤٥٥.

جانب عدوهم جعلته ينتزع النصر انتزاعاً استناداً إلى قوة السيف، والسنان، وثبات في العزيمة، وشجاعة في الجنان، كما ربما يحاول القرشيون أن يشيعوه.

فأراد رسول الله الأعظم «صلى الله عليه وآله»: أن يبدد هذه الغشاوة عن بصره وبصر كل من يسمعون، أو سوف يبلغهم هذا القول، ويواجهه بالحقيقة الناصعة، ويقول له: إنه «صلى الله عليه وآله» ليس فقط قادراً على سحق قريش بكل ما لديها من حشد وعتاد وقوة، وإنما هو على استعداد لمواجهتها ومعها كل من يلتقون معها ويشاركونها الموقف والرأي، والبغي على الإسلام والمسلمين.

وقد أساءت قريش لنفسها حينما صورت للناس ضآلة أمر المسلمين، وضعفهم، فها قد انكشفت للناس أكاذيبها، ورأى الناس حتى القادمون من تجار وغيرهم بأم أعينهم قوة المسلمين، وعزتهم.

فإذا كان مخشي، قومه، بل وكذلك سائر القبائل التي حضرت ذلك الموسم التجاري الواسع، قد تحركت في نفوسهم نوازع خيانية، أو خالجتهم أحاسيس حول ضعف المسلمين، أو شعروا: أن لقريش بعض القوة بسبب ما جرى في أحد، فإن عليهم أن يتأكدوا من صحة تصوراتهم ومعلوماتهم قبل أن يقدموا على أي عمل، أو يتخذوا أي قرار.

فهناك أمور قد خفيت عليهم حتماً وجزماً. وما جرى في أحد لا يمكن أن يكون معياراً وميزاناً، ولا يفيدهم شيئاً في حسابات الربح والخسارة، والنصر والهزيمة، والقوة والضعف.

فقولهم: إنه «صلى الله عليه وآله» إنما أراد بذلك مقابلة حالة الاستهزاء والسخرية بالتهديد بنقض العهد لا يصح، فإن جوابه «صلى الله عليه وآله»

لا يتلاءم وهذا الأمر؛ وذلك لأنه «صلى الله عليه وآله» قد أعطى لمخشي وقومه حرية التصرف في هذا الاتجاه، واكتفى هو بالاحتفاظ لنفسه بحق المقابلة بالموقف الحازم والحاسم لو نقض الآخرون عهدهم. وذلك ظاهر لا يخفى.

لا بد من الندم:

إن من الواضح: أن ما أقدم عليه أبو سفيان في نهاية حرب أحد، حيث قطع على نفسه وعداً بلقاء المسلمين بعد عام في بدر الصغرى، كان خطأ فاحشاً، ورأياً فطيراً، تعوزه البصيرة بالأمور، والواقعية في النظرة وفي الموقف.

وذلك لأن المسلمين، بعد ما جرى في أحد، قد أصبحوا أكثر تصميماً على توجيه ضربة موجعة وقوية لكبرياء قريش، بعد أن وترتهم في حرب أُحد، التي لا بد أن يكون المسلمون قد استفادوا منها الدروس والعبر، ولن يسمحوا أبداً بتكرر الخطأ الذي وقعوا فيه فيها، مهما كان الثمن.

وقد أدرك أبو سفيان خطأه الكبير ذاك، ولكن بعد فوات الأوان، وكان صفوان بن أمية قد نبهه إلى ذلك فلم يلتفت إليه.

وذلك لأن المشركين، وإن كانوا قد فاجأوا المسلمين في بلادهم، ولم يجدوا الفرصة للإعداد والاستعداد، ولكن المشركين لم يحققوا ما حققوه في تلك الحرب نتيجة لتنامي قدراتهم القتالية، ولا لأجل ضعف في المسليمن. وذلك لأن القوى وإن لم تكن متكافئة بين الفريقين من حيث العدد والعدة، إلا أن حرب بدر قد أثبتت للجميع: أن ذلك ليس هو الفيصل في الحرب، وليس هو الذي يقرر نتائجها.

هذا بالإضافة إلى أن حرب أحد نفسها قد أثبتت للمشركين: أن نتائج هذه الحرب ـ لو استمرت ـ لن تكون أفضل من نتائج حرب بدر، لولا الخطأ الذي ارتكبه الرماة على الجبل حيث جعلهم النبي «صلى الله عليه وآله» هناك ليمنعوا من حصول أي تسلل محتمل للعدو فتركوا مراكزهم، من أجل الحصول على بعض الغنائم، ثم تسلل المشركون من ذلك الموضع بالذات، وأوقعوا بالمسلمين الذين كانوا قد انصرفوا عن الحرب إلى جمع الغنائم، حسبما أوضحناه في غزوة أحد في جزء سابق.

وحتى بعد أن بدأ المسلمون يستعيدون وضعهم القتالي، فإن المشركين أحسوا بالخطر الداهم، فآثروا ترك ساحة القتال والانصراف إلى مكة.

فلو كان بإمكانهم تسجيل نصر حاسم، فلن يجدوا المسلمين في حالة أضعف من الحالة التي هم عليها الآن، وقد كان يهمهم جداً إنهاء أمر المسلمين، والقضاء عليهم نهائياً والى الأبد.

وحتى حينما كان أبو سفيان يطلق وعوده باللقاء في بدر من العام المقبل، متبجحاً بما تحقق لهم في معركة أحد، فإنه لم يكن في موقع يمكنه من حسم الأمر لصالحه ولصالح المشركين آنئذٍ.

وقد أدرك في وقت متأخر: أن الخطأ الذي وقع فيه المسلمون في أحد ربما لن يتكرر في المستقبل، مع إدراكه أن أي حرب سيخوضها ضد المسلمين، سوف يكون المسلمون فيها أكثر استبسالاً وأعظم بلاء من ذي قبل.

كما أنهم سوف يكونون أكثر التزاماً بأوامر قيادتهم الإلهية، بعد أن صح لهم أن تلك القيادة لا تنقصها الحكمة ولا الشجاعة، ولا التدبير، وقد لمسوا صوابية مواقفها، وبُعد نظرتها إلى الأمور، ودفعوا ثمن التساهل في الالتزام

بأوامرها غالياً، وغالياً جداً.

ومن هنا: فإننا لا نفاجأ إذا رأينا المسلمين يصرون على الاحتفاظ بزمام المبادرة، وعلى الهيمنة العسكرية على المنطقة.

وكان لا بد لأبي سفيان من الاحتفاظ بماء الوجه، ولو شكلياً، ولكنه فشل في ذلك، حتى اضطر إلى أن يتراجع، ويخلف في وعده، متذرعاً بما لا يخفى على أحد وهنه وعدم واقعيته. حتى إن أهالي مكة أنفسهم كانوا يتندرون بما حدث، ويسمون جيشهم المهزوم روحياً ونفسياً، بأنهم جيش السويق، أي أنهم خرجوا لشرب السويق في الطريق، لا للحرب، والقتال.

ولو كان العام عام جدب فعلاً، فلماذا خرج أبو سفيان بهذا الجيش الكثيف من مكة؟ ألم يكن يدري حين جهز جيشه بهذا الجدب الذي زعمه، ثم اكتشفه بعد أن قطع مسافة من الطريق، وبلغ إلى مجنّة من ناحية مرّ الظهران؟!.

الإنتظار ثمانية أيام:

وإذا كانت بدر تستضيف الكثيرين الذين يأتونها من مناطق مختلفة، لأجل السوق؛ فإن حضور المسلمين في هذا السوق على هذه الصورة الملفتة والمثيرة، لسوف يكون له تأثيره القوي على الناس الذين يعيشون في المناطق على اختلافها. خصوصاً إذا لاحظ الناس هذا الإصرار من المسلمين على لقاء عدوهم، حتى إنهم لينتظرون ثمانية أيام، ثم يتخلف عدوهم عن الحضور، رغم أنه كان هو الطالب والراغب بمناجزة المسلمين وقتالهم في هذا الموضع.

وإذا كان هذا العدو هو مشركو مكة؛ بما لها من هيبة، ونفوذ، وليس عدواً عادياً من سائر القبائل، فإن القضية سوف تصبح أكثر حساسية بالنسبة لأولئك الناس، ولسوف يكون لها أكثر من مغزى عميق ودقيق، وأكثر من أثر سلبي وإيجابي على مشاعرهم وأحاسيسهم، وعلى نظرتهم إلى المستقبل، بصورة عامة.

وهكذا: فإن الكل سوف يدرك أن ما جرى في أحد لم يؤثر ولم يغير في المعادلة شيئاً، إن لم نقل: إنه قد كانت له آثار سلبية على المشركين، وإيجابية على المسلمين كما هو ظاهر.

الإتجار في بدر الموعد:

إن البعض قد رأى: أنه من غير المعقول أن يحمل المسلمون معهم إلى بدر بضائع للتجارة، ما داموا ذاهبين إلى القتال، وإلى منطقة يجتمع فيها خلائق من الناس الذين يلتقون مع قريش في أهدافها، وفي عقائدها ومواقفها تجاه الإسلام والمسلمين.

إذن.. فموضع لقاء المسلمين بالمشركين ليس هو بدر التي هي سوق للعرب.

كما أنهم قد ذهبوا إلى الحرب بلا بضائع، وليس لأجل البيع والشراء[1].

ونقول:

إننا لا نستطيع أن نوافق هذا الباحث على رأيه المشار إليه، وذلك لأن

---

(١) راجع: سيرة المصطفى ص٤٥٤.

سوق بدر لم يكن المجتمعون فيه مستدعين لخوض حرب تحتاج إلى تجهيزات كثيرة ومتنوعة، من خيول ودروع وأعتدة مختلفة.

كما أن سيطرة الجيش الإسلامي على الموقف سوف تمنحه الفرصة للتعامل مع الآخرين وعقد الصفقات التجارية بكل طمأنينة وثقة.

أضف إلى ذلك: أن جهاز الاستخبارات الإسلامي كان من القوة بحيث إنه كان يرصد أي تحرك يحصل في مختلف أنحاء الجزيرة العربية على اتساعها وترامي أطرافها، وينهيه إلى الرسول الأكرم في الموقع المناسب.

ويدل على ذلك: أنا نجد النبي «صلى الله عليه وآله» يفاجئ أعداءه، الذين يتآمرون، ويتأهبون لقتاله، وهم غارون، وقبل أن تصدر منهم أية بادرة أو أن يجدوا الفرصة لأي تحرك والتفاف، ولو من خلال إعادة تنظيم أمرهم، ولم شعثهم.

فجهاز الاستخبارات هذا لا يعجز عن رصد حالة الناس في تلك السوق. كما أنه لا يعجز عن موافاة النبي «صلى الله عليه وآله» في الوقت المناسب بحقيقة نوايا قريش، وما أزمعت عليه من كيد ومكر إعلامي فاشل.

ومن الجهة الأخرى: فإن المسلمين كانوا وما زالوا رغم حروبهم مع أعدائهم منفتحين حتى على أولئك الأعداء في النواحي التجارية والإنمائية.

حتى إننا لنجد تجار المشركين لا يزالون يترددون على المدينة بتجاراتهم المختلفة.

ويحدثنا التاريخ: أن النبي «صلى الله عليه وآله» نفسه كان يشجع هذا التوجه بصورة عامة. كما أوضحناه في كتابنا: السوق في ظل الدولة

الإسلامية، فراجع.

ويكفي أن نذكر: أنه «صلى الله عليه وآله» قد أطلق الصناع وأصحاب الحرف في خيبر لينتفع بهم المسلمون، كما سيأتي حين الحديث عن غزوة خيبر.

فالجيش الإسلامي إذن لا بد أن يقدم نموذجاً من الوفاء والتضحية والانضباطية أولاً. كما أنه في نفس الوقت يقيم علاقات تجارية مع الآخرين، ويتعامل معهم بطريقة سليمة وعفوية، وبريئة، من خلال إحساسه بالثقة وبالقوة والثبات.

أضف إلى ذلك: أن المسلمين كانوا يشكون في وفاء أبي سفيان بالوعد، قال: موسى بن عقبة: «وخرجوا ببضائعهم، وقالوا: إن لقينا أبا سفيان فهو الذي خرجنا له، وإن لم نلقه ابتعنا ببضائعنا»[1].

ومن يدري فلعل النبي «صلى الله عليه وآله» نفسه قد طلب من المسلمين ذلك، من أجل خدمة تلك العلاقات والروابط بالذات، ومن أجل أهداف تدخل في نطاق الحرب الإعلامية والنفسية للأعداء، وإعطاء فرص إيجابية إلى أولئك الآخرين الذين كانوا ينتفعون من هذه الفرص لتركيز قناعاتهم، وتبلور مفاهيمهم عن الإسلام والمسلمين، الأمر الذي ستكون له إيجابياته في المستقبل.

غزوة دومة الجندل:

إيضاحات:

١ ـ دومة الجندل: مدينة بينها وبين دمشق خمس ليال، وتبعد عن المدينة

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص٢٠٣ وراجع: السيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٧١ والبداية والنهاية ج٤ ص٨٩ ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٣٨٥.

خمس عشرة أو ست عشرة ليلة. وهي بقرب تبوك[١].

وقيل: دومة الجندل: اسم حصن[٢].

٢ ـ صاحب دومة الجندل هو أكيدر بن عبد الملك الكندي، وهو يدين بالنصرانية، وهو في طاعة هرقل ملك الروم[٣].

٣ ـ هذه الغزوة أول غزوات النبي «صلى الله عليه وآله» إلى الروم[٤].

٤ ـ قال المقدسي عن سنة خمس من الهجرة: «وهي سنة الزلازل»[٥].

تاريخ هذه الغزوة:

صرح البعض: بأن دومة الجندل كانت في أواخر السنة الرابعة[٦].

وقال بعض آخر: إنها كانت بعد غزوة ذات الرقاع بشهرين وأربعة أيام[٧].

وثالث يقول: إن الخندق كانت في السنة الرابعة،ودومة الجندل بعدها

---

(١) راجع: تاريخ الخميس ج١ ص٤٦٩ عن ابن سعد، والسيرة الحلبية ج٢ ص٢٧٧ وسيرة مغلطاي ص٥٤ ونهاية الأرب ج١٧ ص١٦٣ والمواهب اللدنية ج١ ص١٠٨ وزاد المعاد ج٢ ص١١٢ وطبقات ابن سعد ج٢ ص٦٢ وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص٢٣ والتنبيه والإشراف ص٢١٤ والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص٢٦٦.

(٢) تاريخ الخميس ج١ ص٤٦٩.

(٣) التنبيه والإشراف ص٢١٥ وحبيب السير ج١ ص٣٥٧.

(٤) البدء والتاريخ ج٤ ص٢١٤.

(٥) التنبيه والإشراف ص٢١٥.

(٦) راجع: السيرة الحلبية ج٢ ص٢٧٧.

(٧) نقله في تاريخ الخميس ج١ ص٤٦٩.

في الخامسة[١].

والأكثرون على أنها كانت في السنة الخامسة في شهر ربيع الأول منها[٢].

وعند ابن سعد: في شهر ربيع الأول على رأس تسعة وأربعين شهراً من مهاجره[٣].

هذه الغزوة:

قال البعض: «أراد رسول الله «صلى الله عليه وآله» أن يدنو إلى أدنى الشام، وقيل له: إنها طرف من أفواه الشام؛ فلو دنوت لها كان ذلك مما يفزع قيصر الخ..»[٤].

---

(١) تاريخ مختصر الدول ص٩٥.

(٢) راجع ما يلي: السيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٧٧ و ١٧٨ والبداية والنهاية ج٤ ص٩٢ ونقل عن الواقدي: أنها في ربيع الآخر. وتاريخ الخميس ج١ ص٤٦٩ والسيرة الحلبية ج٢ ص٢٧٧ والجامع للقيرواني ص٢٨١ وسيرة مغلطاي ص٥٤ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ قسم ٢ ص٢٩ وشذرات الذهب ج١ ص١١ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٢٣٢ وأنساب الأشراف ج١ ص٣٤١ وحبيب السير ج١ ص٣٥٧ وزاد المعاد ج٢ ص١١٢ والمغازي للواقدي ج١ ص٤٠٢ والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص٢٦٦.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٢ ص٦٢ ونهاية الإب ج١٧ ص١٦٣ والمواهب اللدنية ج١ ص١٠٨.

(٤) مغازي الواقدي ج١ ص٤٠٣ وراجع: السيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٧٧ والبداية والنهاية ج٤ ص٩٢ ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٣٩٠.

وقال بعض آخر: إنهم كانوا يعترضون المسافرين إلى المدينة وتجارهم[1].

غير أن جمعاً آخر من المؤرخين يقولون: إنه «صلى الله عليه وآله» سمع أن جمعاً من قضاعة وغسان تجمعوا بكثرة في دومة الجندل. وكان بها سوق عظيم، وتجار، بلغ رسول الله «صلى الله عليه وآله»: أنهم يظلمون من مر بهم. وأنهم يريدون أن يدنوا من المدينة.

فاستخلف «صلى الله عليه وآله» على المدينة سباع بن عُرفُطة الغفاري ـ وعند المسعودي: استخلف ابن أم مكتوم ـ وخرج لخمس ليال بقين من شهر ربيع الأول في ألف من أصحابه.

فكان يسير الليل ويكمن النهار، ومعه دليل من بني عُذْرة يقال له مذكور. وقد نكب عن طريقهم، فلما كان بينه وبين دومة يوم قال الدليل: يا رسول الله، إن سوائمهم ترعى عندك؛ فأقم حتى أنظر.

وسار مذكور حتى وجد آثار النعم؛ فرجع وقد عرف مواضعهم؛ فهجم النبي «صلى الله عليه وآله» على ماشيتهم؛ فأصاب من أصاب، وهرب من هرب في كل وجه.

وجاء الخبر إلى دومة الجندل، فتفرقوا، ورجع النبي «صلى الله عليه وآله».

وفي نص آخر: ونذر به القوم، فتفرقوا؛ فلم يجد إلا النعم والشاء، فهجم على ماشيتهم ورعاتهم فأصاب من أصاب، وهرب من هرب في كل وجه، وجاء الخبر أهل دومة، فتفرقوا.

---

(١) التنبيه والإشراف ص٢١٥.

ونزل «صلى الله عليه وآله» بساحتهم، فلم يلق بها أحداً؛ فأقام بها أياماً، وبث السرايا، وفرقها؛ فرجعوا ولم يصادفوا منهم أحداً ورجعت السرية بالقطعة من الإبل.

فرجع «صلى الله عليه وآله»، ودخل المدينة في العشرين من ربيع الآخر، فكانت غيبته خمساً وعشرين ليلة[1].

وقال المقدسي: «إن التجار والسابلة شكوا أكيدر الكندي عامل هرقل عليها، فسار إليها في ألف رجل، يسير الليل ويكمن النهار، وأحس بذلك أكيدر فهرب، واحتمل الرحل، وخلى السوق، وتفرق أهلها، فلم يجد رسول الله «صلى الله عليه وآله» أحداً، فرجع»[2].

كانت تلك صورة عما يقوله المؤرخون عن هذه الغزوة قد جمعنا

---

(١) راجع ما تقدم كله أو بعضه في المصادر التالية: تاريخ الخميس ج١ ص٤٦٩ وطبقات ابن سعد ج٢ ص٦٢ والسيرة الحلبية ج٢ ص٢٧٧ وأنساب الأشراف ج١ ص٣٤١ وسيرة مغلطاي ص٥٤ وحياة محمد لهيكل ص٢٨١ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ قسم ٢ ص٢٩ والوفاء ص٦٩١ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٢٣٢ والثقات ج١ ص٢٦٠ والتنبيه والإشراف ص٢١٥ وحبيب السير ج١ ص٣٥٧ وزاد المعاد ج٢ ص١١٢ وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص٢١٢ والمغازي للواقدي ج١ ص٤٠٣ ونهاية الأرب ج١٧ ص١٦٣ والمواهب اللدنية ج١ ص١٠٨ والبداية والنهاية ج٤ ص٩٢ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٧٧ والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص٢٦٦ ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٣٩٠ و ٣٩١.

(٢) البدء والتاريخ ج٤ ص٢١٤ وأشار إليه الذهبي في تاريخ الإسلام (المغازي) ص٢١٢ (السابلة: عابرو السبيل).

شتاتها، وألفنا بين متفرقاتها ومختلفاتها، فراجع المصادر التي في الهوامش.

وقبل أن نواصل الحديث نتوقف قليلاً لنسجل بعض الملاحظات والتحفظات فنقول:

مدة غيبته ﷺ عن المدينة:

قولهم: إن مدة غيبته «صلى الله عليه وآله» عن المدينة في هذه الغزوة كانت خمساً وعشرين ليلة لا يصح.

لأنهم يقولون: إن دومة الجندل تبعد عن المدينة مسافة خمس عشرة أو ست عشرة ليلة[1]، فالذهاب والإياب منها وإليها لسوف يستغرق أكثر من شهر.

يضاف إلى ذلك: أنه كان يسير الليل ويكمن النهار، فقد يحتاج المسير إليها والحالة هذه إلى أكثر من ذلك أيضاً.

هذا بالإضافة إلى أنهم يقولون: إنه أقام بها أياماً يبث السرايا، فكيف تكون مدة غيبته عن المدينة خمساً وعشرين ليلة فقط؟!.

رجوع النبي ﷺ قبل بلوغ دومة!!

قد ادَّعى البعض، كابن هشام: أن النبي «صلى الله عليه وآله» رجع قبل أن يصل إلى دومة الجندل[2].

---

(١) تقدمت مصادر ذلك في أول هذا الفصل تحت عنوان: إيضاحات.

(٢) راجع: السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢٢٤ وتاريخ الخميس ج١ ص٤٦٩ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٧٧ عن ابن إسحاق والبداية والنهاية ج٤ ص٩٢ ودلائل النبوة ج٣ ص٣٩٠.

وقد يكون لنا الحق في أن نشك في صحة هذا القول، ما دام أنه يعطي انطباعاً سلبياً عن حالة المسلمين، فإن الرجوع لا بد أن يكون لأحد سببين، أو كليهما، وكلاهما مرفوض.

وهما:

الأول: إنه خاف من التعرض لقيصر، فإنه قد راجع حساباته في الطريق؛ فأدرك أن هذا في غير صالحه؛ فآثر الرجوع، ولو تسبب ذلك بنوع من الشعور بالضعف لدى المسلمين، وسوف يؤكد ذلك هيبة ملك الروم في نفوسهم، وهذا مما لا يمكن قبوله في حق النبي «صلى الله عليه وآله».

الثاني: إنه قد أحس بأن المدينة تتعرض لخطر من نوع ما في حال غيابه عنها، سواء من داخلها، من قبل المنافقين واليهود وغيرهم ممن لم يسلم حتى الآن، أو من خارجها، من قبل قريش ومن معها من المشركين المتربصين حول المدينة، وفي سائر المناطق.

وهذه أيضاً نقطة ضعف أخرى، كان من المفروض أن يكون «صلى الله عليه وآله» قد حسب حسابها، وأعد العدة لمواجهتها، قبل أن يخرج من المدينة. فلا يمكن أيضاً قبول هذا السبب لما يتضمنه من نسبة القصور أو التقصير ـ والعياذ بالله ـ إلى ساحة قدس النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله».

التوجيه الأقرب:

وإذا صح أنه رجع ولم يبلغها، فالأظهر أنه قد بلغه أن أهلها قد عرفوا بمسيره إليهم، فتنحوا عنها إلى جهة غير معلومة، بحيث لم يعد ثمة فائدة من المسير إليهم.

لكن الذي يعترض طريق قبول ذلك هو تلك التفاصيل الكثيرة والدقيقة التي يذكرها المؤرخون مما كان قد حصل في غزوة دومة الجندل.

ولا سيما مع تصريحهم، بأنه لما كان بينه وبين دومة الجندل يوم، قال الدليل: يا رسول الله الخ.. وتصريحهم بأنه أقام أياماً يبث السرايا في النواحي.

فالأقرب أن يقال: إن هؤلاء الذين ادَّعوا: أنه قد رجع قبل أن يبلغها قد غلطوا في ذلك وليس الغلط من مثل هؤلاء بعزيز.

ونسجل هنا ما يلي:

ألف: إننا نلاحظ: أن النبي «صلى الله عليه وآله» يختار المسير ليلاً والكمون نهاراً، ليمكن له مفاجأة العدو، وأخذه على حين غرة، فيحقق بذلك الغرض من دون أن يتكبد المسلمون خسائر كبيرة، لو أن المشركين كانوا مستعدين للحرب، عارفين بمسير المسلمين إليهم.

ويكون بذلك قد قدم لنا أيضاً مثلاً في التدبير الحربي السليم، الذي يوفر مزيداً من الفرص لتسجيل النصر الحاسم، من خلال الاستفادة من عنصر التخفي في التحرك نحو الهدف المطلوب.

ب: إن تحرك النبي «صلى الله عليه وآله» والمسلمين، كان بهدف الحفاظ على حرية حركة الناس، وضرب مصدر المتاعب حينما أصبحت طرق المواصلات والإمدادات والتموين، الذي يأتي عن طريق التجارة مع المناطق الشمالية كسورية وما والاها غير آمنة. إنه «صلى الله عليه وآله» قد تحرك ليصبح طريق الناس آمناً، وليمكنهم من أن يتواصلوا وينفع بعضهم بعضاً من خلال نقل التجارب والمعارف، ونقل المنتجات، وغير ذلك.

وهذا يشير إلى أن حق الحرية هذا مقدس، ولا يمكن المساس به من أي كان، وأنه لا يمكن للحاكم العادل أن يقف تجاه انعدام الأمن موقف اللامبالاة، ويعتبر أن ذلك لا يعينه، وإنما هو مسؤولية غيره، بل عليه أن يبادر إلى تحمل مسؤولية حماية حرية الناس في تحركاتهم، وترددهم بتجاراتهم وغيرها، رغم أن ذلك يحمل في طياته خطر الاصطدام بعامل هرقل عظيم الروم، ثم بهرقل ذاته من بعده.

ج: يضاف إلى ما تقدم: أن ما جرى في بدر الموعد، قد أعطى المسلمين المزيد من النشاط، وجعلهم يتحركون بصورة أكثر حيوية وفاعلية، حينما توجهوا إلى شمال الجزيرة، بعد أن توطدت هيبتهم في الجنوب بسبب ما جرى في غزوتي بدر الموعد، وحمراء الأسد، وغيرهما.

ومعنى ذلك هو: أنهم قد عطفوا نظرهم إلى منطقة يعتبر قيصر الروم فيها هو الأقوى، والأعظم نفوذاً، ولا يتوقع القيصر أن تنشأ في جزيرة العرب حركة تجترئ عليه، أو تسمح لنفسها بالتفكير بالتطاول على هيبته وسلطانه.

د: والأكثر وقعاً وتأثيراً في هذه الغزوة: أن نجد النبي «صلى الله عليه وآله» حينما وصل إلى دومة الجندل، وفر أولئك الأشرار منها، قد بقي يبث السرايا والبعوث عدة أيام في مختلف الاتجاهات، بحثاً عن أولئك الأشرار الهاربين.

ومعنى ذلك هو: أن هذا الهجوم قد كان مدروساً بعناية، وهدوء، ويراد له أن يترك آثاره في المنطقة كلها، ولم يكن ثمة تسرع في اتخاذ القرار فيه، ولا كان ناشئاً عن اندفاع عاطفي، أو ما أشبه ذلك.

هـ : إن سرعة تحرك جيش بهذه الكثافة إلى بلد يبعد عنه مسيرة أيام كثيرة وثقته بنفسه، واطمئنانه إلى عدم جرأة أحد على العبث بالأمن في بلده من بعده، ليدل على مدى ثقة هذا الجيش بنفسه وبقدراته، وعلى أنه قادر على تسديد ضربته لكل من تسول له نفسه أن يتآمر أو يشارك في التآمر ضده، وعليه أن يحسب ألف حساب قبل أن يقدم على التحالف مع أعدائه ومناوئيه.

وإذا كان المسلمون أقوياء، فلسوف تتشوف نفوس الكثيرين للتحالف معهم، والوقوف إلى جانبهم، والعيش في كنفهم.

ولا أقل من أنهم سوف يسعون لإقامة علاقات طبيعية معهم. أما التحالف مع الأعداء، ومشاركتهم في مناوأة المسلمين، فإنه يصبح أكثر صعوبة خصوصاً من القبائل التي لا تتوفر لديها أعداد ضخمة وكافية لحماية نفسها من قوة لها هذا النشاط، وبهذا الحجم والمستوى.

وهذا من شأنه أن يضعف أمر قريش، ويقلل من الفرص المتاحة لجمع الحشود، وتحزيب الأحزاب لمواجهة المد الإسلامي العارم.

و : إن النبي «صلى الله عليه وآله» والمسلمين وهم يحاولون أن يقللوا من الخسائر البشرية ما أمكنهم، فإنهم يعتمدون طريقة الضغط السياسي والروحي، على الخصم، وكذلك إضعافه اقتصادياً بصورة رئيسية باستيلائهم على مواشيهم وأموالهم، الأمر الذي يضعف مقاومتهم، وقدرتهم على تنظيم المؤامرات، وبذل الأموال لتجييش الجيوش لحرب المسلمين.

وليس ذلك لأجل حب السلب والنهب، وجمع الأموال، والشاهد على ذلك: أننا نجده «صلى الله عليه وآله» يجعل فداء أسير من أسرى المشركين

تعليم عشرة أطفال من المسلمين القراءة والكتابة، رغم شدة حاجة المسلمين لأقل شيء من المال. وقد تقدم ذلك في غزوة بدر.

كما أننا نراه «صلى الله عليه وآله» حين يرتكب خالد بن الوليد جريمة في حق بعض القبائل ـ وذلك حينما أرسل خالداً لدعوة بني جذيمة، فآمنهم، فلما وضعوا السلاح أمر بهم فكتفوا، ثم عرضهم على السيف ـ نراه «صلى الله عليه وآله» لما بلغه ذلك تبرأ من فعل خالد، ثم أرسل علياً «عليه السلام» فودى لهم الدماء، وما أصيب لهم من الأموال، حتى إنه ليدي ميلغة الكلب[1].

دومة الجندل حقيقة أم خيال؟!:

قال العلامة الحسني: «إن أخبار هذه الغزوة أكثرها عن الواقدي، وأخباره في الغالب من نوع المراسيل، ومن البعيد أن يترك النبي «صلى الله عليه وآله» المدينة قرابة شهر كامل، كما يدَّعي المؤلفون في السيرة، إلى مكان بعيد مسافة تزيد عن خمسة عشر يوماً، والأعراب من حولها لا يزالون على الشرك، وهم يترقبون المسلمين، ويستغلون الفرصة المناسبة للوقيعة بهم. ومن ذا يمنعهم من المدينة إذا غاب عنها النبي «صلى الله عليه وآله» مع ألف من أصحابه وفيها من المنافقين ما لا يقل عدداً عن المسلمين وكانوا على اتصال دائم بقريش وأحلافها من المشركين؟

---

(١) راجع: الغدير ج٧ ص١٦٩ عن سيرة ابن هشام ج٤ ص٥٣ ـ ٥٧ وعن تاريخ أبي الفداء ج١ ص١٤٥ وعن أسد الغابة ج٣ ص١٠٢ وعن الإصابة ج١ ص٣١٨ وج٢ ص٨١ وعن البخاري كتاب المغازي.

من البعيد أن يتركها ليغزو أطراف الجزيرة المتاخمة لحدود الشام في مثل هذه الظروف إلا أن يكون مأموراً بذلك من الله سبحانه»[1].

ونقول:

١ ـ إننا لا نستطيع أن نوافق على ما ذكره العلامة الحسني «رحمه الله»، لأن ذلك لو كان، لكان مانعاً من التحرك نحو أي من المناطق الأخرى، قريبة كانت أو بعيدة. فإن كثيراً من الغزوات كان النبي «صلى الله عليه وآله» يغيب فيها أياماً كثيرة. فقد غاب في غزوة بدر الموعد ست عشرة ليلة، منها ثمانية أيام أقامها في بدر، والباقي في الطريق ذهاباً وإياباً، وكانت غيبته في ذات الرقاع خمس عشرة ليلة، وكانت غيبته في غزوة بني المصطلق ثمانية وعشرين يوماً.

فقد كان بإمكان الأعداء أن يغتنموا فرصة غيابه للإغارة على المدينة، بصورة سريعة وخاطفة، أو احتلالها، لا سيما مع وجود اليهود والمنافقين، والمشركين فيها وحولها.

٢ ـ ومن جهة ثانية، فإن سير الأحداث يعطي: أن الرسول الأكرم «صلى الله عليه وآله» كانت له أجهزة استخبارات قوية وفاعلة لا يفوتها رصد أية تحركات أو تجمعات مريبة، بل وحتى المؤامرات والنوايا أحياناً. وقد كانت مبثوثة في مختلف الأنحاء والأرجاء قريبة كانت أو بعيدة كما ألمحنا إليه فيما سبق.

ومن الواضح: أن مهاجمة المدينة في غياب الرسول «صلى الله عليه

---

(١) سيرة المصطفى ص٤٥٧.

وآله» يحتاج إلى جمع قوى كثيرة من مختلف القبائل ولن يخفى ذلك على عيون الرسول الأكرم «صلى الله عليه وآله».

٣ ـ أضف إلى ذلك: أن النبي كان قد عقد تحالفات ومعاهدات كثيرة في المنطقة، كما أنه قد عقد تحالفات مع سكان المدينة أنفسهم، يلزمهم فيها الدفاع والنصر، خصوصاً إذا هوجم، فكيف إذا هوجموا؟

٤ ـ وحين يظعن النبي «صلى الله عليه وآله» عن المدينة، فإنه لا يخليها نهائياً، بحيث لا تبقى فيها أية قوة عسكرية قادرة على ضبط الوضع داخلياً، والدفاع ضد العدو الخارجي قدر الإمكان لو دهمهم أمر، وإلى أن يأتي الرسول «صلى الله عليه وآله»، ويمسك هو بزمام المبادرة.

٥ ـ مضافاً إلى أن ضرب المدينة في غياب النبي «صلى الله عليه وآله» لا يحسم الأمر، بل هو سوف يعرض من تسول له نفسه ويقدم على ذلك إلى العقاب الصارم، الذي لن يكون قادراً على دفعه عن نفسه. فإن الكل كانوا أصغر من أن يجرؤوا على ذلك، بعد أن عجزت قريش وفشلت ذلك الفشل الذريع. ولم يكن لأي من القبائل ما كان لقريش من قوة وشوكة، ونفوذ ومنعة في المنطقة بأسرها.

ذكريات أبي موسى الأشعري في دومة الجندل:

ويذكر المؤرخون: أن تحكيم الحكمين قد كان بدومة الجندل[1].

---

(١) تاريخ الخميس ج١ ص٤٦٩ وصفين ص٥٣٥ و ٥٣٨ و ٥٤٠ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي الشافعي ج٢ ص٢٤٨ وراجع: مروج الذهب ج٢ ص٣٥٢ ومصادر ذلك كثيرة جداً فلتراجع كتب التاريخ، حين الحديث حول قضية صفين، ثم التحكيم.

وفي كتاب الخوارج عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: «مررت مع أبي موسى بدومة الجندل، فقال: حدثني حبيبي «صلى الله عليه وآله»: أنه حكم في بني إسرائيل في هذا الموضع حكمان بالجور، وأنه يحكم في أمتي حكمان بالجور في هذا الموضع.

قال: فما ذهبت الأيام حتى حكم هو وعمرو بن العاص فيما حكماه، قال: فلقيته.

فقلت: يا أبا موسى قد حدثتني عن رسول الله.

فقال: والله المستعان. كذا أورده المجد»[1].

موادعة عُيينة بن حصن الغادر:

ويذكر المؤرخون: أنه لما رجع النبي «صلى الله عليه وآله» من دومة الجندل وادع عيينة بن حصن الذي كانت أرضه قد أجدبت: أن يرعى بتغلمين وما والاه إلى المراض، وكان ما هناك قد أخصب، وهو موضع بينه وبين المدينة ستة وثلاثون ميلاً على طريق الربذة[2].

---

(١) تاريخ الخميس ج١ ص٤٦٩ وذكر هذه القصة أيضاً وإن لم يصرح بأن التحكيم كان وسيكون في دومة الجندل كل من: المسعودي في مروج الذهب ج٢ ص٣٩٢ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج١٣ ص٣١٥ وراجع ص٣١٦ وراجع: قاموس الرجال ج٦ ص١٠٨ و ١٠٩.

(٢) السيرة الحلبية ج٢ ص٢٧٧ والطبقات الكبرى لابن سعد ج٢ ص٦٣ وراجع: نهاية الأرب ج١٧ ص١٦٣ وسيرة مغلطاي ص٥٤ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ قسم ٢ ص٢٩ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٢٣٢.

وسيأتي: أنه لما سمن حافره، وانتقل إلى أرضه أغار على لقاح[1] رسول الله «صلى الله عليه وآله» بالغابة..

حكومة القيم، أم حكومة المشاعر؟!

وغني عن القول هنا: إن عيينة بن حصن كان لا يزال هو ومن معه على الشرك والكفر، الذي كان يناوئ الدعوة الإسلامية بكل الوسائل.

ولم يكن النبي «صلى الله عليه وآله» حين سمح له بما سمح يطمع في الحصول على أي نفع من قبله، فلم يكن يريد في مقابل ذلك مالاً، ولا كان يريد منه أن ينصره على عدوه، ويتقوى به على مناوئيه، لا في مال، ولا رجال.

كما أن عيينة لم يكن يملك قوة خارقة للعادة، بحيث يخشاه النبي «صلى الله عليه وآله» وينصاع لما يطلبه منه.

كما أننا نلاحظ: أن النبي «صلى الله عليه وآله» لم يحاول استغلال حاجة عيينة ومن معه، ليفرض عليهم شروطاً، ويحصل على امتيازات سياسية، أو مادية، أو غير ذلك. بل هو لم يطلب حتى السماح لدعاته بأن يطرحوا مع الناس هناك قضية الإسلام والإيمان، فضلاً عما هو أبعد من ذلك.

بل تصرف النبي «صلى الله عليه وآله» على أساس ما لديه من مثل وقيم، وقناعات ومنطلقات إيمانية وإنسانية، ومن ثوابت أخلاقية ودينية.

فالنبي «صلى الله عليه وآله» يرى أن الحرب إنما تهدف إلى منع قوى

---

(١) اللقاح: النياق الحلوب الغزيرة اللبن.

الهيمنة والاستكبار من فرض إرادتها، ومصادرة حرية الآخرين في الفكر وفي الإيمان. وإلى دفع غائلة العدو الذي يريد سحق قوى الخير، ونسف قواعد الإيمان. وليس للحرب أي دور حين تجري الأمور بصورة طبيعية. فإن السلاح الذي يعتمد عليه الإسلام هو الدليل القاطع والبرهان الساطع، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن..

بل إن كل الجرائم التي ارتكبها مشركو قريش في حق الإسلام والمسلمين لم تمنع النبي «صلى الله عليه وآله» من إرسال الأموال إلى مكة، حين علم أن أهلها يعانون من ضائقة كبيرة بسبب الجدب.

ولم يكن منطلقه في ذلك، ولا في موقفه هنا من عواطف ثائرة، تتحرك باندفاع وبعنفوان بصورة غير واعية ولا متزنة في الحالات الطارئة. بل منطلقه «صلى الله عليه وآله» هو القيم والمثل العليا، وكل المعاني الإنسانية الصافية والنبيلة، فليس ثمة تناقض بين الأحاسيس والمشاعر، وبين الموقف الرسالي والمبدئي.

بل إن مشاعره «صلى الله عليه وآله» وأحاسيسه قد نمت وتربت في ظل مبادئه وقيمه ومن خلالها، فمنها تنطلق وإليها تنتهي، وعلى أساسها تقوم وتدوم.

القسم الرابع

من الخندق إلى الحديبية

[illegible]

[illegible]

[illegible]

آيات حول غزوة الخندق:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الذِينَ خَلوْاْ مِن قَبْلكُم مَّسَّتْهُمُ البَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ الله أَلا إِنَّ نَصْرَ الله قَرِيبٌ﴾[1].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلنَا عَليْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً، إِذْ جَاؤُوكُم مِن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَل مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِالله الظُّنُونَا، هُنَالكَ ابْتُلِيَ المُؤْمِنُونَ وَزُلزِلُوا زِلزَالاً شَدِيداً، وَإِذْ يَقُولُ المُنَافِقُونَ وَالذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلا غُرُوراً﴾.

﴿وَإِذْ قَالت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْل يَثْرِبَ لا مُقَامَ لكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلا فِرَاراً، وَلوْ دُخِلتْ عَليْهِم مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلبَّثُوا بِهَا إِلا

---

(١) الآية ٢١٤ من سورة البقرة.

يَسِيراً، وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ الله مَسْؤُولاً، قُل لن يَنفَعَكُمُ الفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِنَ المَوْتِ أَوِ القَتْلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إلا قَليلاً، قُل مَن ذَا الذِي يَعْصِمُكُم مِنَ الله إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِن دُونِ الله وَلِيّاً وَلا نَصِيراً، قَدْ يَعْلَمُ اللهُ المُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ البَأْسَ إلا قَليلاً، أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاء الخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ المَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الخَوْفُ سَلقُوكُم بِأَلسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلى الخَيْرِ أُوْلئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلكَ عَلى الله يَسِيراً، يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إلا قَليلاً، لقَدْ كَانَ لكُمْ فِي رَسُول الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَاليَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً، وَلمَّا رَأَى المُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إلا إِيمَاناً وَتَسْليماً، مِنَ المُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَليْهِ فَمِنْهُم مَن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً، ليَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ المُنَافِقِينَ إن شَاء أَوْ يَتُوبَ عَليْهِمْ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً، وَرَدَّ اللهُ الذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللهُ المُؤْمِنِينَ القِتَال وَكَانَ اللهُ قَوِيّاً عَزِيزاً، وَأَنزَل الذِينَ ظَاهَرُوهُم مِنْ أَهْل الكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً، وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلى كُل شَيْءٍ قَدِيراً﴾[1].

---

(١) الآيات ٩ ـ ٢٧ من سورة الأحزاب.

تقديم:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، مَلكِ يَوْمِ الدِّينِ، إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾.

والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين، وبعد..

فان حديثنا في هذا االقسم سيكون ـ إن شاء الله ـ عن غزوة الأحزاب: «**الخندق**» وهي الغزوة التي سميت سورة قرآنية باسمها بسبب أهميتها البالغة..

وحيث إن الحديث عن هذه الغزوة سوف يتخذ منحى تحقيقياً وتتبعياً، بالإضافة إلى وقفات تحليلية سريعة ومقتضبة، ومتناثرة هنا وهناك، فسيكون من الصعب على القارئ لملمة أطراف الحديث وجمع شتات المطالب، وربط بعضها ببعض ولو في حدود الخطوط العامة للحدث. ولأجل ذلك رأينا أن نذكر نصاً مختصراً لهذه الغزوة يكاد يقتصر على عناوينها العامة.

فنقول:

موجز عن غزوة الخندق:

إنه في السنة الرابعة ـ كما هو الأقوى ـ أو في الخامسة ـ سار عدد من اليهود إلى مكة واستنفروا أهلها لقتال النبي «صلى الله عليه وآله»، واستئصال المسلمين. واتصلوا أيضاً بقبيلة غطفان، وقبائل عربية أخرى وحرضوهم على حرب محمد، ووعدوهم بالأموال؛ فساروا وهم ألوف كثيرة إلى المدينة لإنجاز هذا المهم.

فبلغ النبي «صلى الله عليه وآله» خبرهم، حفر خندقاً حول المدينة من الجهة المكشوفة منها. وجعل للخندق أبواباً، وجعل على الأبواب حرساً.

وقد شارك النبي «صلى الله عليه وآله» بنفسه في حفر الخندق، وظهرت له «صلى الله عليه وآله» حينئذٍ كرامات ومعجزات، سنذكرها في الموضع المناسب إن شاء الله تعالى.

وقد عسكر «صلى الله عليه وآله» إلى جنب جبل سلع، وجعل الخندق بينه وبين الأحزاب، وجعل النساء والصبيان في بعض حصون المدينة، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم. وكان لواء النبي «صلى الله عليه وآله» مع علي «عليه السلام».

ولما وافى الأحزاب فوجئوا بالخندق، ونزلوا في الجهة الأخرى منه، وحاصروا المسلمين.

وذهب حيي بن أخطب اليهودي إلى بني قريظة، ولم يزل بهم حتى نقضوا العهد مع المسلمين.

فلما بلغ النبي «صلى الله عليه وآله» ذلك أرسل إليهم من يثبت له الأمر فرجعوا إليه وأخبروه بأن ما بلغه صحيح؛ فاشتد الأمر على المسلمين

وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وعظم البلاء، ونجم النفاق، وكثر الخوض، وبلغت القلوب الحناجر.

وقال المنافقون والذين في قلوبهم مرض: ﴿**مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَ غُرُوراً**﴾.

وكان أمير المؤمنين «عليه السلام» على العسكر كله بالليل يحرسهم، فإن تحرك أحد من قريش نابذهم. وكان النبي «صلى الله عليه وآله» يحرس بنفسه بعض مواضع الخندق.

ولم يكن بين المسلمين والمشركين قتال إلا الرمي بالنبل والحصا. وكان المشركون يتناوبون على الخندق، فلا يمكنهم عبوره والمسلمون يمنعونهم بالنبل والحجارة.

وأصيب يومئذٍ سعد بن معاذ «رحمه الله» بسهم، رماه به حبان بن العرقة.

وقيل: رماه به أبو أسامة الجشمي، أو خفاجة بن عاصم.

فجعل سعد «رحمه الله» في خيمة رفيدة، التي كانت تداوي فيها الجرحى. ويبدو أن جماعات من المسلمين قد تركوا النبي «صلى الله عليه وآله» وفروا، واختبأوا في حديقة هناك وفيهم عمر بن الخطاب وطلحة، وقد كشفت عائشة أمرهم، وذلك بعد إصابة سعد بن معاذ.

كما إن النصوص تؤكد على: أن النبي «صلى الله عليه وآله» قد بقي في ثلاث مئة من المسلمين.

بل في نص آخر: إنه لم يبق مع النبي «صلى الله عليه وآله» سوى اثني عشر رجلاً فقط.

وقد تحدثت الآيات القرآنية عن هؤلاء الفارين، فراجع سورة الأحزاب.

ومهما يكن من أمر: فقد انتدب فوارس من المشركين فأتوا مكاناً ضيقاً من الخندق، وأكرهوا خيلهم على عبوره، فعبره عكرمة بن أبي جهل، وعمرو بن عبد ود، وضرار بن الخطاب الفهري، وهبيرة بن أبي وهب، وحسل بن عمرو بن عبد ود، ونوفل بن عبد الله المخزومي.

فخرج أمير المؤمنين «عليه السلام» في نفر من المسلمين، حتى أخذوا عليهم الثغرة التي اقتحموها. وطلب عمرو بن عبد ود البراز فلم يبرز إليه أحد من المسلمين، وخافوا منه خوفاً شديداً، لما يعرفون من شجاعته وفروسيته، وكان يعد بألف فارس. وطلب عليٌّ «عليه السلام» من النبي «صلى الله عليه وآله» أن يأذن له بمبارزته فلم يأذن له.

فكرر النداء، وأنشد الشعر، وعيَّر المسلمين المحجمين عنه فطلب علي الإذن مرة أخرى فلم يأذن له الرسول «صلى الله عليه وآله».

فلما كان في المرة الثالثة، ولم يبادر إلى ذلك سوى علي «عليه السلام» أذن له النبي «صلى الله عليه وآله» وعممه ودعا له، وقال: برز الإيمان كله إلى الشرك كله. فبارزه علي «عليه السلام» فقتله. وقتل ولده حسلاً، ونوفل بن عبد الله، وفر الباقون.

فقال «صلى الله عليه وآله»: «ضربة علي يوم الخندق تعدل (أو أفضل من) عبادة الثقلين إلى يوم القيامة».

وزعمت بعض الروايات: أن الذي قتل نوفلاً هو الزبير، وسيأتي الإشكال في ذلك.

وتزعم بعض الروايات: أن نعيم بن مسعود قد ساهم في إحداث

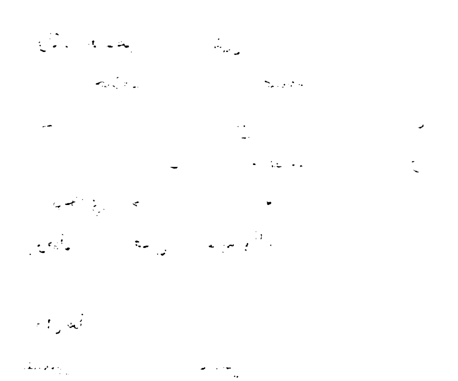
الفتنة بين بني قريظة وبين المشركين.

ولكن الظاهر: هو أن النبي «صلى الله عليه وآله» هو الذي ألقى فيما بينهم بذور الخلاف والشك كما سنوضحه.

ثم أرسل الله سبحانه الريح على المشركين فكانت تكفأ قدورهم، وتطرح خيامهم، وتعبث بكل ما يحيط بهم، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فعادوا بالخزي والخيبة، والرعب يلاحقهم، وكفى الله المؤمنين القتال.

وقال النبي «صلى الله عليه وآله» حينئذٍ: الآن نغزوهم ولا يغزوننا، فكان كما قال..

وفي هذا القسم تجد التفصيل لكل ذلك، مع بعض التحقيق والتكذيب والتصديق، والتعديل والتحليل، حسبما يقتضيه المقام فإلى ما يلي من مطالب وفصول:



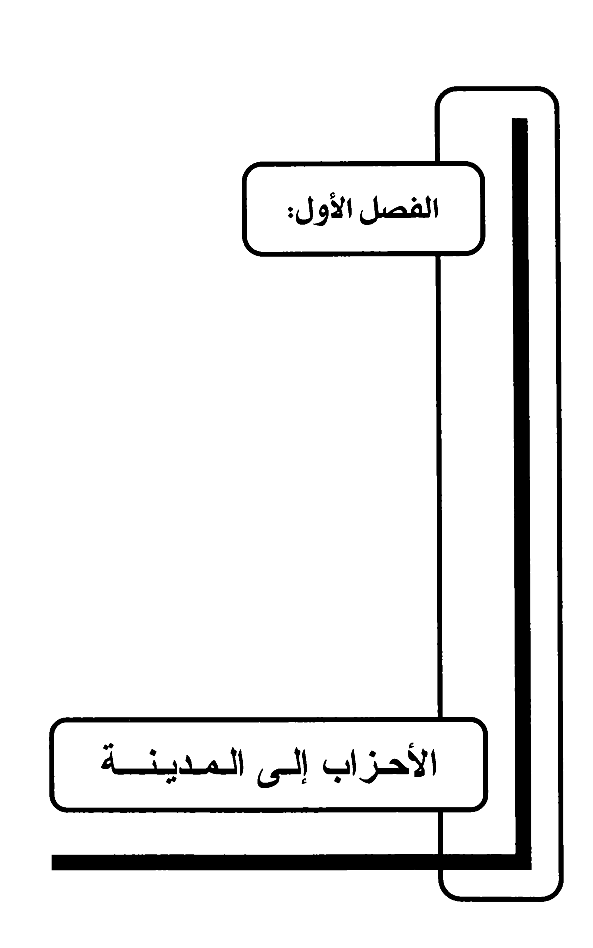
الباب الأول

التحضيرات لـغـزوة الـخـنـدق

[illegible]

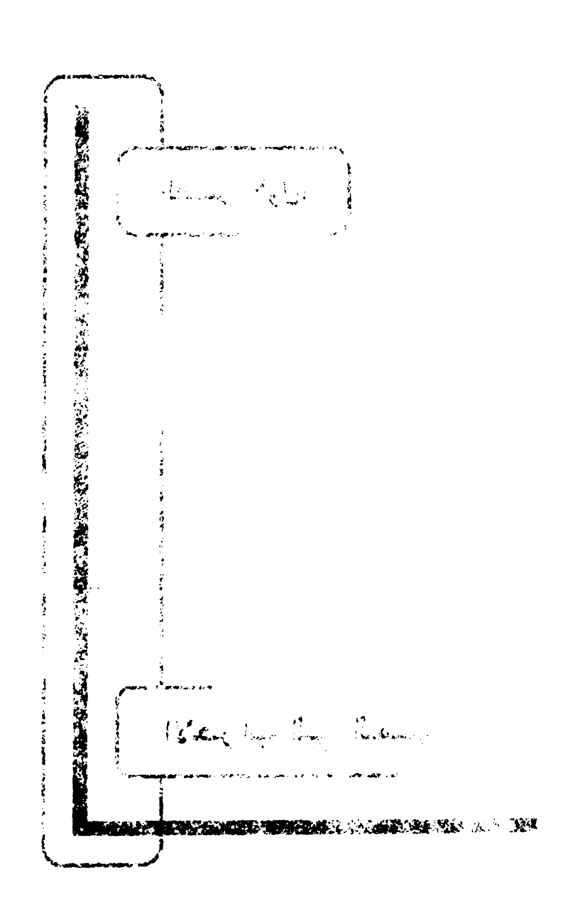
[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]



الفصل الأول:

الأحزاب إلى المدينة



تمهيد وبيان:

لقد كان لتوالي الحروب في المنطقة فيما بين المسلمين من جهة وبين أعدائهم من اليهود والمشركين ومن تبعهم من جهة أخرى، وانشغال المسلمين الدائم بهذه الحروب تأثير قوي على حالة المسلمين الإقتصادية، حيث اختلت الحياة التجارية والحرفية وظهرت عوارض خطيرة فيما يختص بالشأن الزراعي، حيث كانت الزراعة بمثابة العمود الفقري للإقتصاد بالنسبة لأهل المدينة على الخصوص.

وقد بدأت بوادر الحاجة الملحة في النواحي المعيشية، وشحة المواد الغذائية تظهر بصورة وبأخرى في هذا المجتمع الإسلامي الصغير الناشئ، والمحاط بالأعداء، والمستهدف بالشر والسوء من كل ناحية ومكان.

وبعد أن خاض المسلمون عدة حروب، ومروا بأزمات كثيرة في أكثر من اتجاه، وبعد كسر شوكة بني النضير، وكشف خياناتهم وإفشال مؤامراتهم، وبعد غزوة ذات الرقاع وغيرها.. جاء تأجيل المشركين للحرب في بدر الموعد بسبب رعبهم وخوفهم ثم استفادة المسلمين تجارياً من سوق بدر بهذه المناسبة أمراً يبعث على الإرتياح، ويثير البهجة والأمل، والشعور لديهم بإمكانية تحسن الأوضاع المعيشية، حيث يتوفر الوقت الكافي لإعادة

تنظيم مواسمهم الزراعية، والإنتعاش إقتصادياً في مجالات أخرى من حرفية، وتجارية وغيرها في أجواء يهيمن عليها السلام والأمن، والطمأنينة النسبية.

هذا بالإضافة إلى توفر الوقت لمواجهة المشكلات التي خلفتها الحروب السابقة، فردية كانت أو اجتماعية، ومحاولة وضع الحلول المناسبة لها، أو التخفيف من وطأتها. وعسى ولعل يمكنهم أيضاً ترتيب العلاقات بمن يحيطون بهم في المنطقة بصورة أكثر حميمية وصفاء، وصياغتها بصورة أكثر قوة وثباتاً عنها من ذي قبل.

ثم إنهم بعد وفوق كل ذلك يصبحون أقدر على ممارسة دور الإعلام المركز والهادئ للدعوة الإلهية التي يحملونها، ويقومون بواجبهم في نشرها، لتقوم على أسس متينة ورصينة من القناعات العقلية والوجدانية، ولتثمر من ثم حياة في الفكر، ويقظة في الضمير ومسؤولية وطهراً في الوجدان.

فجاءت حرب الأحزاب المفاجئة لتبدد كل هذه الآمال، ولتزيد من قسوة الظروف، ومرارة المعاناة، ولتكون الكابوس المخيف والمخيف جداً. خصوصاً بما تميزت به من حشد بشري هائل، وإعداد واستعداد لم تعرفه المنطقة من قبل. مع هذا الإجماع المستقطب تقريباً على العداء لهم من مختلف القبائل والديانات والشعوب التي تعيش في المنطقة. يصاحبه اطمينان إلى التعاطف والتأييد من كل الآخرين من أي الديانات، أو الفئات كانوا، في جزيرة العرب، أو في خارجها.

ثم إن حركة الأحزاب قد جاءت محرجة للمسلمين إلى درجة كبيرة وخطيرة من الناحية العسكرية والاستراتيجية الحربية، لأنها اتخذت صفة

هجوم شامل عليهم، من مختلف المواضع والمواقع، ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾.

يقابل ذلك: ضعف ظاهر لدى المسلمين، في العدة وفي العدد، واختراق خطير من قبل الأعداء لصفوف أهل الإيمان، من خلال قوى النفاق التي كانت تتغلغل داخل جسم هذا المجتمع الإسلامي الصغير والناشئ.

هذا كله، بالإضافة إلى المشاكل المعيشية والحياتية على مستوى الفرد والجماعة. سواء تلك المشاكل الناشئة عن الحروب والمواجهات مع الأعداء، أو المشاكل التي تنشأ عادة من صياغة حياة اجتماعية لفئات تعاني أصلاً من تناقضات كثيرة فيما بينها، بسبب اختلافها في مستوياتها وفي حالاتها الطبيعية والعارضة، وبسبب وجود الكثير مما هو من مخلفات الجاهلية الرعناء.

ولا ننسى هنا الإشارة إلى ضعف تأثير العامل القبلي لدى الفريق الإسلامي، لأن المسلمين كانوا لا يشكلون تياراً قبلياً زاخراً وهادراً ذا لون واحد، لأنهم عبارة عن مجموعات صغيرة من قبائل شتى، فيبقى الشعور والعصبية للقبيلة هو العامل الأضعف تأثيراً على صعيد رص الصف، وتقوية البنية، وتأكيد اللحمة الداخلية. وإنما الحالة الإيمانية والدينية وحدها هي التي توحدهم، وتشد من أزرهم، وتشحذ فيهم الهمم، وتبعث فيهم روح الإباء والشمم. وقد كانت هذه الروح في بدايات تكوينها لدى الكثيرين منهم فلم تكن مؤهلة للصمود كثيراً وطويلاً في المواضع الصعبة والخطيرة.

وأخيراً.. نشير إلى أن تحزيب الأحزاب قد انطلق من خلال قناعة تامة،

ومن شعور أكيد بأن قوة المسلمين قد بلغت حداً لم يعد يمكن القضاء عليها إلا بحشد كامل وشامل لكل القدرات والقوى المادية والمعنوية على مستوى المنطقة بأسرها. وهذا ما حصل بالفعل، كما سنرى. ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين.

تحزيب الأحزاب في روايات المؤرخين:

لقد ذكر المؤرخون ـ والنص في أكثره للواقدي ـ: أنه لما أجلى النبي «صلى الله عليه وآله» يهود بني النضير، ساروا إلى خيبر. وكان بها من اليهود قوم أهل عدد وجلد (وليس لهم من البيوت والأحساب ما لبني النضير) فخرج عدد من اليهود، بعضهم من بني وائل والباقون من بني النضير، وهم بضعة عشر رجلاً، أو حوالي عشرين، خرجوا إلى مكة يدعون قريشاً واتباعها إلى حرب محمد «صلى الله عليه وآله». وكان ذلك في السنة الرابعة، أو الخامسة أو السادسة للهجرة.

وهؤلاء هم ـ كما ورد في النصوص المختلفة ـ: حيي بن أخطب، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وهوذة بن الحقيق، وهوذة بن قيس الوائلي (أو الوالبي كما في الإرشاد) وهو أوسي من بني خطمة، وابو عامر الراهب أو أبو عمار، ـ الوائلي ـ أو أبو عمارة الوالبي، كما عند المفيد في نفر من بني والبة.

وزاد البعض: سلام بن مسلم.

وأضاف آخر: «حوج بن عامر، وأبا رافع، والربيع بن أبي الحقيق»[1].

---

(١) راجع: جامع البيان ج٥ ص٨٦ وتفسير القرآن العظيم ج٢ ص٥١٣ ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٤٠٨ فقد ذكر أبا عمار وحوج بن عمرو.

وأضاف غيره: «سلام بن أبي الحقيق، لكن عند ابن الأثير: عبد الله بن سلام بن أبي الحقيق».

قال المفيد: «فصاروا إلى أبي سفيان لعلمهم بعداوته لرسول الله، وتسرعه لقتاله، فذكروا له ما نالهم منه. وسألوه المعونة على قتاله، فقال: إنا لكم حيث تحبون، فاخرجوا إلى قريش، فادعوهم إلى حربه، واضمنوا النصرة لهم، والثبوت معهم حتى تستأصلوه. فطافوا على وجوه قريش، ودعوهم إلى حرب النبي».

ويستمر الواقدي وغيره فيقولون: فقالوا لقريش: نحن معكم حتى نستأصل محمداً.

أو قالوا: سنكون معكم عليه، حتى نستأصله ومن معه.

قال أبو سفيان: هذا الذي أقدمكم ونزعكم؟

قالوا: نعم. جئنا لنحالفكم على عداوة محمد وقتاله.

قال أبو سفيان: مرحباً وأهلاً، أحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمد.

زاد في نص آخر قوله: «ولكن لا نأمنكم إلا إن سجدتم لآلهتنا، حتى نطمئن إليكم؛ ففعلوا»[1].

قال النفر: فأخرج خمسين رجلاً من بطون قريش كلها، أنت فيهم، وندخل نحن وأنت بين أستار الكعبة، حتى نلصق أكبادنا بها ثم نحلف

---

(١) ويقال: إن ذلك أيضاً قد كان في مرة سابقة، وذلك حين جاء كعب بن الأشرف ومن معه، يطلبون منهم المسير إلى حرب محمد «صلى الله عليه وآله» والمسلمين. وربما يكون ذلك قد حصل مرة واحدة، لكن الأمر قد اشتبه على الرواة. والله هو العالم بحقيقة الحال.

بالله جميعاً: لا يخذل بعضنا بعضاً، ولتكونن كلمتنا واحدة على هذا الرجل، ما بقي منا رجل.

ففعلوا، فتحالفوا على ذلك، وتعاقدوا.

ثم قالت قريش بعضها لبعض: قد جاءكم رؤساء أهل يثرب وأهل العلم والكتاب الأول، فسلوهم عما نحن عليه ومحمد: أينا أهدى؟!

قالت قريش: نعم.

فقال أبو سفيان: يا معشر اليهود، أنتم أهل الكتاب الأول والعلم، أخبرونا عما أصبحنا فيه نحن ومحمد، ديننا خير أم دين محمد؟! فنحن عُمّار البيت، وننحر الكوم (أي الناقة عالية السنام)، ونسقي الحجيج، ونعبد الأصنام.

قالوا: اللهم أنتم أولى بالحق، إنكم لتعظمون هذا البيت وتقومون على السقاية، وتنحرون البُدْن[1]، وتعبدون ما كان عليه آباؤكم، فأنتم أولى بالحق منه. فأنزل الله في ذلك: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِنَ الكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً﴾**[2]. فاتّعدوا لوقت وقتوه.

وفي نص آخر: «فلما قالوا ذلك لقريش نشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله «صلى الله عليه وآله» وأجمعوا لذلك واتّعدوا له».

فقال صفوان بن أمية: يا معشر قريش، إنكم قد وعدتم هؤلاء القوم لهذا الوقت وفارقوكم عليه، ففوا لهم به! لا يكون هذا كما كان وعدنا محمداً

---

(١) الآية ٥١ من سورة النساء.

(٢) البُدْن: النياق والأبقار التي كانت تُسمَّن لتُنحَر لدى البيت الحرام.

بدر الصفراء، فلم نف بموعده، واجترأ علينا بذلك. وقد كنت كارهاً لميعاد أبي سفيان يومئذٍ.

فخرجت اليهود حتى أتت غطفان [وقيس عيلان] وأخذت قريش في الجهاز، وسيرت في العرب تدعوهم إلى نصرها، وألَّبوا أحابيشهم ومن تبعهم.

ثم خرجت اليهود حتى جاؤوا بني سليم، فوعدوهم يخرجون معهم إذا سارت قريش، ثم ساروا في غطفان، فجعلوا لهم تمر خيبر سنة، وينصرونهم ويسيرون مع قريش إلى محمد، إذا ساروا.

فأنعمت بذلك غطفان، ولم يكن أحد أسرع إلى ذلك من عيينة بن حصن.

قال ابن خلدون: وخرج بهم عيينة بن حصن على أشجع[1].

---

(١) المغازي للواقدي ج١ ص٤٤١ ـ ٤٤٣، وذكرت هذه النصوص باختصار أو بتفصيل في المصادر التالية: سبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥١٢ و ٥١٣ وعيون الأثر ج٢ ص٥٥ وحبيب السير ج١ ص٣٥٩ والكامل في التاريخ ج٢ ص١٧٨ والثقات ج١ ص٢٦٤ و ٢٦٥ والدر المنثور ج٢ ص١٧٢ عن ابن إسحاق، وابن جرير وجامع البيان ج٥ ص٨٦ والإكتفاء للكلاعي ج٢ ص١٥٨ والسيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢٢٥ و ٢٢٦ وإعلام الورى ص٩٠ وتفسير القرآن الكريم ج٢ ص٥١٣، والوفاء ص٦٩٢ وأنساب الأشراف ج١ ص٣٤٣.

وراجع: دلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٣٩٩ و ٣٩٨ ففيه نصوص تختلف عن الذي ذكرناه وراجع ص٤٠٨ و ٤٠٩ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٢٣٣ وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص٢٣٣ فما بعدها والبداية والنهاية ج٤ ص٩٤ و٩٥ وجوامع السيرة النبوية ص١٤٨ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٨١ و ١٨٢ والبدء والتاريخ ج٤ ص٢١٦ و ٢١٧ وتجارب الأمم ج١ ص١٤٩ =

وذكر البعض: أن كنانة بن أبي الحقيق جعل نصف تمر خيبر لغطفان في كل عام[1].

وذكروا أيضاً: أن قريشاً كتبت إلى رجال من بني سليم، بينهم وبينهم أرحام، استمداداً لهم، فأقبل أبو الأعور بمن تبعه من بني سليم مدداً لقريش. ثم كتب اليهود إلى حلفائهم من بني سعد أن يأتوا إلى إمدادهم[2].

وحسب نص البلاذري: «وكان عيينة بن حصن الفزاري أسرع القوم إلى إجابتهم، ثم أتوا بني سليم بن منصور فسألوهم مثل ذلك فأنجدوهم

= ونهاية الأرب ج١٧ ص١٦٦ و١٦٧ وزاد المعاد ج٢ ص١١٧ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ ق٢ ص٢٩ والسيرة الحلبية ج٢ ص٣٠٩ و ٣١٠ والسيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٢ وتهذيب سيرة ابن هشام ص١٨٨ و ١٨٩ وتفسير القمي ج٢ ص١٧٦ ـ ١٨٨ والبحار ج٢٠ ص٢١٦ ـ ٢٣٣ و ١٩٧ و ٢٥٠ و ٢٥١ وشرح بهجة المحافل ج١ ص٢٦٢ و ٢٦٣ وتاريخ الخميس ج١ ص٤٨٠ والمواهب اللدنية ج١ ص١١٠ وإمتاع الأسماع ج١ ص٢١٦ ـ ٢١٨ وحدائق الأنوار ج٢ ص٥٨٤ باختصار، والإرشاد للمفيد ص٥٠ و ٥١ وكشف الغمة للأربلي ج١ ص٢٠١ و ٢٠٢ ومجمع البيان ج٨ ص٣٤٠.

(١) الإكتفاء للكلاعي ج٢ ص١٥٨، لكن ذكرت مصادر أخرى: أنهم جعلوا لهم تمر خيبر سنة، فراجع: إمتاع الأسماع ج١ ص٢١٧ وأنساب الأشراف ج١ ص٣٤٣ والسيرة الحلبية ج٢ ص٣١٠. وراجع أيضاً: تاريخ الخميس ج١ ص٤٨٠ والمغازي للواقدي ج٢ ص٤٤٣ ووفاء الوفاء ج١ ص٣٠١ وفتح الباري ج٧ ص٣٠١ والسيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٢.

(٢) تاريخ الخميس ج١ ص٤٨٠ وراجع: الإكتفاء للكلاعي ج٢ ص١٥٩ ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٣٩٨ و ٣٩٩.

وساروا في جميع العرب ممن حولهم، فنهضوا معهم. فخرجت قريش في من ضوى إليها ولافها من كنانة وثقيف وغيرهم ولحقتهم أفناء العرب عليه قادتها وكبراؤها»[١].

تجمع القوى:

ويستمر الواقدي فيقول:

وخرجت قريش ومن تبعها من أحابيشها أربعة آلاف.

وعقدوا اللواء في دار الندوة.

زاد في بعض المصادر قوله: «وحمله عثمان بن أبي طلحة، وقائد القوم أبو سفيان».

وقادوا معهم ثلاث مئة فرس، وكان معهم من الظهر ألف بعير، وخمس مئة بعير.

وأقبلت سليم فلاقوهم بمر الظهران، وبنو سليم يومئذٍ سبع مئة يقودهم سفيان بن عبد شمس، حليف حرب بن أمية، وهو أبو أبي الأعور، الذي كان مع معاوية بن أبي سفيان بصفين.

لكن عند القمي: أن قائدهم هو عباس بن مرداس. وخرج أيضاً الأقرع بن حابس في قومه.

وخرجت قريش يقودها أبو سفيان بن حرب.

وخرجت بنو أسد، وقائدها طلحة (طليحة ظ) بن خويلد الأسدي.

---

(١) أنساب الأشراف ج١ ص٣٤٣.

وخرجت بنو فزارة وأوعبت[1]، وهم ألف يقودهم عيينة بن حصن.

ونص آخر يقول: «خرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن».

وخرجت أشجع وقائدها مسعود بن رخيلة (أو مسعر بن زحيلة أو جبلة) وهم أربع مئة، ولم توعب أشجع.

[وعند المفيد: ووبرة بن طريف في قومه من أشجع].

وخرج الحارث بن عوف يقود قومه بني مرة، وهم أربع مئة[2].

---

(١) أُوعبَ القوم: خرجوا كلهم إلى الغزو.

(٢) المغازي للواقدي ج١ ص٤٤٤ وذكر ذلك باختصار أو بتفصيل في المصادر التالية: الإكتفاء ج٢ ص١٥٩ إعلام الورى ص٩٠ وفاء الوفاء ج١ ص٣٠١ والسيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٢ وتاريخ الخميس ج١ ص٤٨٠ و ٤٨١ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٢٣٣ و ٢٣٦ والوفاء ص٦٩٢ و ٦٩٣ والثقات ج١ ص٢٦٥، وعيون الأثر ج٢ ص٥٥ وتهذيب سيرة ابن هشام ص١٩٠ والكامل في التاريخ ج٢ ص١٧٨ والسيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢٣٠ و ٢٣١ ومناقب آل أبي طالب ج١ ص١٩٧ وتهذيب سيرة ابن هشام ص١٨٩ وراجع: جوامع السيرة النبوية ص١٤٨ وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص٢٣٣ و٢٣٤ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٨٢ والبداية والنهاية ج٤ ص٩٥ وراجع ص١٠٢ وراجع: المواهب اللدنية ج١ ص١١٠ والسيرة الحلبية ج٢ ص٣١١ والإمتاع ج١ ص٢١٨ و٢١٩ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥١٣ و٥١٤ والإرشاد للمفيد ص٥١ وكشف الغمة للأربلي ج١ ص٢٠٢ وتفسير القمي ج٢ ص١٧٧ والبحار ج٢٠ ص٢١٧ عنه وص ١٩٧ و٢٥١ ومجمع البيان ج٨ ص٣٤٠ ونهاية الأرب ج١٧ ص١٦٧ وعيون الأثر ج٢ ص٥٦ ومحمد في المدينة ص٥٤ وراجع: فتح الباري ج٧ ص٣٠١ وشرح الأخبار ج١ ص٢٩١.

الأحزاب إلى المدينة:

ووافى الأحزاب المدينة بعد أن فرغ رسول الله «صلى الله عليه وآله» من حفر الخندق[1]. وكان الذين وافوا من قريش، وسليم، وغطفان، وأسد عشرة آلاف بقيادة أبي سفيان؛ فنزلت قريش برومة، ووادي العقيق في أحابيشها، ومن ضوى إليها من العرب، ونزلت غطفان بالزغابة إلى جانب أحد.

وجعلت قريش تسرح ركابها في وادي العقيق، في عضاهه وليس هناك شيء للخيل إلا ما حملوه معهم من علف، وكان علفهم الذرة. وسرحت غطفان إبلها إلى الغابة، في أثلها وطرفائها.

وقدموا في زمان حصد الناس زرعهم قبله بشهر. وأدخلوا حصادهم، وأتبانهم. وكانت غطفان ترسل خيلها في أثر الحصاد ـ وكانت خيل غطفان ثلاث مئة ـ فيمسك ذلك من خيلهم لكن إبلهم كادت تهلك من الهزال. وكانت المدينة ليالي قدموا جديبة[2].

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص٢٣٦ والسيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢٦٢ والإكتفاء للكلاعي ج٢ ص١٦٢ وتاريخ الخميس ج١ ص٤٨٣ وحدائق الأنوار ج٢ ص٥٨٧ وكشف الغمة للأربلي ج١ ص١٩٧ وغير ذلك.

(٢) المغازي للواقدي ج٢ ص٤٤٤. وراجع إجمال أو تفصيل ذلك في: الكامل في التاريخ ج٢ ص١٨٠ ووفاء الوفاء ج١ ص٣٠١ والثقات ج١ ص٢٦٦ والإكتفاء للكلاعي ج٢ ص١٦٢ وتهذيب سيرة ابن هشام ص١٩٠ والسيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢٣٠ و ٢٣١ وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص٢٣٦ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٢٣٦ و ٢٣٧ والسيرة النبوية لابن كثير =

ويقول نص آخر: نزلت كنانة برومة، وغطفان بالزغابة إلى نقمي[1].

وعند البعض: نزلت قريش بمجتمع السيول من رومة، بين الجرف وزغابة. ونزل عيينة في غطفان ومن معه من أهل نجد إلى جانب أحد بباب نعمان (أو ذنب نقمي)[2].

ونص آخر يقول: نزلت قريش بمجتمع السيول من رومة، بين الجرف ورباعة[3] ولعله تصحيف: زغابة.

أما القمي فقال: نزلت قريش وحلفاءها من كنانة بالعقيق ونزلت فزارة بالزغابة ونزلت سليم وغيرهم حصن بني ذبيان[4].

مناقشات وإيضاحات:

ولنا فيما تقدم العديد من المناقشات والتحفظات، كما أنه يحتاج إلى بعض الإيضاحات. ونحن نذكر فيما يأتي نماذج لكلا هذين الأمرين، فنقول:

= ج٣ ص١٩٧ و ١٩٨ والبداية والنهاية ج٤ ص١٠٢ و ١٠٣ وراجع: سبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٢٥ و ٥٢٦ وتفسير القمي ج٢ ص١٧٩ و١٨٠ والبحار ج٢٠ ص٢٢١ وعيون الأثر ج٢ ص٥٨.

(١) المغازي للواقدي ج٢ ص٤٥٥.

(٢) الإكتفاء للكلاعي ج٢ ص١٦٢ وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص٢٣٦ وفتح الباري ج٧ ص٣٠٧ ووفاء الوفاء ج١ ص٣٠١ وتاريخ الخميس ج١ ص٤٨٣ وفيه: أنه واد بجانب أحد. وراجع: دلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص١٠٩ وفيه: نزلوا بنقمين. وجوامع السيرة النبوية ص١٤٩.

(٣) تاريخ الخميس ج١ ص٤٨٣.

(٤) تفسير القمي ج٣ ص١٨٠ والبحار ج٢٠ ص٢٢١ عنه.

تاريخ غزوة الخندق:

لقد اختلف المؤرخون في تاريخ غزوة الخندق.

فقالت طائفة منهم: إنها كانت سنة خمس من الهجرة.

ذهب إلى ذلك: الواقدي وابن إسحاق، والمقريزي، والطبري، وابن الأثير، والبيهقي، والذهبي، وابن حبيب، وابن الكازروني والمقدسي، وابن القيم، وابن حجر، وابن العماد، والمسعودي.

وكذا روي عن عروة، وقتادة وأحمد، وغيرهم كثيرون، كما يتضح من المصادر في الهامش[1].

---

(١) لكي تجد القول بأن هذه الغزوة كانت في السنة الخامسة، إما بصورة قول تبناه المؤلف أو يذكره بلفظ قيل، راجع المصادر التالية: المغازي للواقدي ج٢ ص٤٤٠ و ٤٤١ وتاريخ ابن الوردي ج١ ص١٦٠ والسيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢٢٤ و٢٤١ والإكتفاء للكلاعي ج٢ ص١٥٨ ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٣٩٥ والبدء والتاريخ ج٤ ص٢١٧ وصححه، وشذرات الذهب ج١ ص١١، ومختصر التاريخ ص٤٢ والمختصر في اخبار البشر ج١ ص١٣٤ وعيون الأثر ج٢ ص٥٥ و٦٤ وتاريخ اليعقوبي ج٢ ص٥٠ والكامل في التاريخ ج٢ ص١٧٨ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٢٣٣ وتهذيب سيرة ابن هشام ص١٨٨ و١٩٥ وتفسير القمي ج٢ ص١٧٦ والبحار ج٢٠ ص٢١٦ و ٢٠٨ عنه ونقله في ص٢٧١ عن إعلام الورى لكن الموجود في إعلام الورى أنها في الرابعة. والمحبر ص١١٣ ومروج الذهب ج٢ ص٢١٩ والثقات ج١ ص٢٦٤ ووفاء الوفاء ج١ ص٣٠٠ وحبيب السير ج١ ص٣٥٩ وشرح بهجة المحافل ج١ ص٢٦٢ وبهجة المحافل ج١ ص٢٦٢ بلفظ: قيل. وإمتاع الأسماع ج١ ص٢١٦ والجامع للقيرواني ص٢٧٩ و ٢٨١ والتنبيه والإشراف ص١١٥ وأنساب =

أما اليعقوبي فيقع في الغلط، حيث يقول: إن الخندق كانت «في السنة السادسة، بعد مقدم رسول الله بالمدينة بخمسة وخمسين شهراً»[1].

فإن عدد الأشهر المذكور يقتضي أن تكون في السنة الخامسة لا السادسة، كما هو ظاهر.

وثمة فريق آخر يقول: إن هذه الغزوة كانت في السنة الرابعة وهو ما ذهب إليه مالك، ورواه أحمد في مسنده عنه.

وذهب إليه أيضاً: ابن العربي، وعياض، وابن حزم، وابن الديبع، والصاحب بن عباد وابن حبيب، وصححه ابن خلدون، والنووي في الروضة وقوَّاه البخاري ورواه موسى بن عقبة عن الزهري، وبه قال

= الأشراف ج١ ص٣٤٣ ومجمع البيان ج٨ ص٢٠٨ ونهاية الأرب ج١٧ ص١٦٦ وراجع: فتح الباري ج٧ ص٣٠٢ عن ابن إسحاق والسيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٢ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٦١ ونسبه إلى الجمهور.

وراجع: البداية والنهاية ج٤ ص٩٣ و٩٤ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٨٠ و ١٨١ وتاريخ الخميس ج١ ص٤٧٩ و ٤٨٠ عن ابن إسحاق وفتوح البلدان ج١ ص٢٣ وصفة الصفوة ج١ ص٤٥٥ ـ ٤٥٩ والطبقات الكبرى ج٢ ق ٢ ص٤٧ وج ٤ ق ١ ص٦٠ والمصنف للصنعاني ج٥ ص٣٦٧ وسيرة مغلطاي ص٥٦ والعبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون ج٢ ق ٢ ص٢٩ والسيرة الحلبية ج٢ ص٣٢٨ والمواهب اللدنية ج١ ص١١٠ والرصف ج١ ص٦٠ بلفظ قيل. وراجع: جوامع السيرة النبوية ص١٤٨ وتاريخ الإسلام للذهبي والمغازي ص٢٠٥ وسير أعلام النبلاء ج١ ص٢٨٩ و ٢٩٠.

(١) تاريخ اليعقوبي (ط دار صادر) ج٢ ص٥٠.

الفاكهاني في رياض الأفهام، ويعقوب بن سفيان[1].

بل قال ولي الدين العراقي: «المشهور أنها في السنة الرابعة»[2].

ومقتضى هذا القول: أن أبا سفيان قد خرج لبدر الموعد في شعبان ثم

---

(١) راجع المصادر التالية، فإنها قد ذكرت هذا القول في: عنوان المعارف في ذكر الخلائف ص١٢ وجوامع السيرة النبوية ص١٤٨ وقال: الثابت أنها في الرابعة بلا شك. والمحبر ص١١٣ وصحيح البخاري ج٣ ص٢٠ وفتح الباري ج٧ ص٣٠٢ والبداية والنهاية ج٤ ص٩٣ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٨٠ وإعلام الورى ص٩٠ وتاريخ ابن الوردي ج١ ص١٦٠ وشرح صحيح مسلم للنووي بهامش إرشاد الساري ج٨ ص٦٤ والعبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون ج٢ ق٢ ص٢٩ و ٣٣ وتاريخ الخميس ج١ ص٤٨٠ والمواهب اللدنية ج١ ص١١٠ وتاريخ مختصر الدول ص٩٥ ووفاء الوفاء ج١ ص٣٠٠ وتاريخ الإسلام (المغازي) للذهبي ص٢٠٥ و ٢٤٤ عن ابن عقبة عن ابن شهاب، وعروة عن ابن عقبة، والنووي. وشذرات الذهب ج١ ص١١ عن النووي.

وراجع: الجامع للقيرواني ص٢٧٩ و٢٨١ عن مالك، وسيرة مغلطاي ص٥٦ وبهجة المحافل ج١ ص٢٦٢ وعيون الأثر ج٢ هامش ص٥٥ ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٣٩٣ و٣٩٥ و٤٠٠ و٣٩٤ ومجمع الزوائد ج٩ ص٣٤٥ وتهذيب الكمال ج١٠ ص٣١ ومناقب آل أبي طالب ج٤ ص٧٦ ومرآة الجنان ج١ ص٩ والسيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٢ والسيرة الحلبية ج٢ ص٣٢٨ وراجع: إمتاع الأسماع ج١ ص٢١٦ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٦١ وحدائق الأنوار ج١ ص٥٢ متناً وهامشاً عن الدرر في اختصار المغازي. والسير للقرطبي ص١٧٩ وذهب إليه العاقولي في الرصف ج١ ص٦٠.

(٢) تاريخ الخميس ج١ ص٤٨٠ والمواهب اللدنية ج١ ص١١٠.

عاد وخرج إلى الخندق في شوال السنة الرابعة، كما ذهب إليه البعض[1].

وعند الواقدي: أنها كانت في ذي القعدة.

وقد حاول البيهقي الجمع بين هذين القولين، فقال: «قلت: لا اختلاف بينهم في الحقيقة، وذلك لأن رسول الله «صلى الله عليه وآله» قاتل يوم بدر لسنتين ونصف من مقدمه المدينة في شهر رمضان، ثم قاتل يوم أحد من السنة القابلة لسنتين ونصف من مقدمه المدينة في شوال، ثم قاتل يوم الخندق بعد أحد بسنتين على رأس أربع سنين ونصف من مقدمه المدينة.

فمن قال سنة أربع، أراد: بعد أربع سنين، وقبل بلوغ الخمس.

ومن قال: سنة خمس، أراد: بعد الدخول في السنة الخامسة وقبل انقضائها[2].

ونقول:

إن الظاهر هو صحة قولهم: إن غزوة الخندق كانت في السنة الرابعة، وفقاً لما اعتادوه من التاريخ، ولا حاجة إلى وجه الجمع الذي ذكره البيهقي ولا لغيره، وذلك لما يلي:

١ ـ لقد قوَّى البخاري القول بأنها كانت في السنة الرابعة بقول ابن عمر: إن النبي «صلى الله عليه وآله» قد عرضه يوم أحد، وهو ابن أربع عشرة سنة، فلم يجزه، ثم عرضه يوم الخندق، وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه..

ومن المعلوم: أن أحد كانت في سنة ثلاث.

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٣٩٦.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٣٩٥.

وقد استدل بهذا أيضاً: النووي، وابن حزم، وابن خلدون وغيرهم[1].

وقد احتمل البعض: أن يكون ابن عمر في غزوة أحد أول ما طعن في الرابعة عشرة، وفي الأحزاب كان قد استكمل الخامسة عشرة. وبهذا أجاب البيهقي[2].

---

(١) راجع: صحيح البخاري ج٣ ص٢٠ وج ٢ ص٦٩ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ ق ٢ ص٢٩ و ٣٣ وجوامع السيرة النبوية ص١٤٨ وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص٢٠٥ و٢٤٤ وفتح الباري ج٧ ص٣٠٢ وشرح صحيح مسلم للنووي (مطبوع بهامش إرشاد الساري) ج٨ ص٦٤ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٨١ والبداية والنهاية ج٤ ص٩٤ وتاريخ الخميس ج١ ص٤٨٠ و ٤٨١ والمواهب اللدنية ج١ ص١١٠ والطبقات الكبرى لابن سعد ج٤ ص١٠٥ وأنساب الأشراف ج١ ص٣٤٣ و ٣٤٤ بإضافة كلمة: «وأشف منها». والمغازي للواقدي ج٢ ص٤٥٣ والمصنف للصنعاني ج٥ ص٣١٠ و ٣١١ ومسند أحمد بن حنبل ج٢ ص١٧ وصحيح مسلم ج٦ ص٣٠ وسنن ابن ماجة ج٢ ص٨٥٠ والسيرة الحلبية ج٢ ص٣٢٩ و ٣١٥ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٦١ ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٣٩٦ والجامع الصحيح للترمذي، كتاب الأحكام، باب ما جاء في حد بلوغ الرجل والمرأة ج٣ ص٦٣٢ و ٦٣٣ وشرح النهج للمعتزلي ج١٣ ص٢٤١ و ٢٤٢ والغدير ج١٠ ص٤ عن البخاري، وفتح الباري، وعن عيون الأثر ج٢ ص٦ و ٧ وعن تاريخ الطبري ج٢ ص٢٩٦.

(٢) راجع: تاريخ الخميس ج١ ص٤٨٠ وفتح الباري ج٧ ص٣٠٢ والسيرة الحلبية ج٢ ص٣٢٩ والمواهب اللدنية ج١ ص١١٠ وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص٢٤٤ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٨١ والبداية والنهاية ج٤ ص٩٤ والسيرة الحلبية ج٢ ص٣٢٩ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٦١ وراجع دلائل النبوة للبيهقي ج٣ هامش ص٣٩٥.

ثم أيد البعض هذا الاحتمال: بأن أبا سفيان قال للمسلمين، حين انتهت حرب أحد: موعدكم العام المقبل ببدر.

ثم لم يأت إلى بدر في ذلك الموعد، بسبب الجدب. وخرج إليها النبي «صلى الله عليه وآله» في شعبان سنة أربع، ورجع، ولم يلق كيداً. وهي الغزوة المساة ببدر الموعد.

فلم يكونوا ليأتوا إلى المدينة بعد ذلك بشهرين لأجل غزوة الخندق[1].

ويؤيد ذلك أيضاً: قول البعض: «كانت وقعة الأحزاب بعد أحد بسنتين»[2].

ونقول:

لو صح ما ذكروه لكان الفرق بين أحد التي هي في شوال السنة الثالثة، والخندق التي هي في ذي القعدة السنة الخامسة سنتين وشهراً، وهذا يعني: ان ابن عمر كان عمره في الخندق ست عشرة سنة.

فإذا جاز أن يقول: إنه ابن أربع عشرة سنة، لأنه كان أول ما طعن فيها، كان عليه أن يقول: إنه كان في الخندق ابن ست عشرة سنة، لأنه كان طعن فيها أيضاً بصورة أوفى، وذلك ليجري الكلام في صدره وذيله على نسق واحد.

---

(١) راجع: البداية والنهاية ج٤ ص٩٣ و ٩٤ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٨٠ وفتح الباري ج٧ ص٣٠٢ والطبقات الكبرى لابن سعد ج٢ ق ١ ص٤٣ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٦١.

(٢) المصنف للصنعاني ج٥ ص٣٦٢ و ٣٦٧ أنساب الأشراف ج١ ص٣٤٥ والمغازي للذهبي (تاريخ الإسلام) ص٢٤٤ والسيرة الحلبية ج٢ ص١٤٨.

ولكان على عمر بن عبد العزيز وعمر بن الخطاب أن يجعلا العطاء لمن بلغ ست عشرة سنة، استناداً إلى قضية ابن عمر المذكورة، فكيف فرضا إلى ابن خمس عشرة سنة استناداً إلى ذلك؟![1].

وقد صرح ابن حزم: بأنه قد صح أنه لم يكن بين أحد والخندق إلا سنة واحدة فقط وأنها قبل دومة الجندل بلا شك[2].

أما قولهم: إنه لا يعقل أن يأتوا المدينة بعد شهرين من بدر الموعد،

فجوابه: إن ذلك معقول، إذا كان التعلل من قبل المشركين بالجدب كان جبناً منهم، وهروباً من المواجهة، ثم لما وجدوا الرجال والأموال، وجمعوا عشرة آلاف مقاتل أو أكثر بكثير، فلا شيء يمنعهم عن انتهاز الفرصة، في أي من الظروف والأحوال.

٢ ـ ومما يدل على أن غزوة الخندق كانت سنة أربع، قولهم: إن أبا زيد بن ثابت قد قتل يوم بعاث، وكان عمر زيد حينئذٍ ست سنين، وكانت بعاث قبل الهجرة بخمس سنين[3] وكان عمر زيد حين قدم النبي «صلى الله عليه وآله» المدينة إحدى عشرة سنة[4].

---

(١) المصنف للصنعاني ج٥ ص٣١١ وراجع: السيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٨١ والبداية والنهاية ج٤ ص٩٤.

(٢) جوامع السيرة النبوية ص١٤٨.

(٣) تهذيب الكمال ج١٠ ص٣٠ و ٣١ ومستدرك الحاكم ج٣ ص٤٢١ وتذكرة الحفاظ ج١ ص٣٠ وشذرات الذهب ج١ ص٥٤ وتهذيب تاريخ دمشق ج٥ ص٤٤٩ وراجع: تهذيب التهذيب ج٣ ص٣٩٩ عن الواقدي.

(٤) مجمع الزوائد ج٩ ص٣٤٥ عن زيد نفسه، وتهذيب التهذيب ج٣ ص٣٩٩ =

ثم يقولون: إن أول مشاهد زيد الخندق[١] لأنه «صلى الله عليه وآله» قد أجازه يوم الخندق[٢] وهو ابن خمس عشرة سنة[٣].

ويروى عن زيد قوله: أجازني رسول الله «صلى الله عليه وآله» يوم الخندق وكساني قبطية[٤].

وعنه: أجزت يوم الخندق، وكانت وقعة بعاث وأنا ابن ست سنين[٥].

وعنه: لم أجز في بدر، ولا في أحد، وأجزت في الخندق[٦].

= والثقات ج٣ ص١٣٦ وصفة الصفوة ج١ ص٧٠٤ وسير أعلام النبلاء ج٢ ص٤٢٧ و ٤٢٨ وتهذيب الكمال ج١٠ ص٢٥ و٢٧ وتهذيب الأسماء ج١ ص٢٠٠ و ٢٠١ والإستيعاب (مطبوع بهامش الإصابة) ج١ ص٥٥١ وشذرات الذهب ج١ ص٥٤ وتهذيب تاريخ دمشق ج٥ ص٤٤٩.

(١) تهذيب الكمال ج١٠ ص٣٠ و ٣١ ومستدرك الحاكم ج٣ ص٤٢١ وتذكرة الحفاظ ج١ ص٣٠ وشذرات الذهب ج١ ص٥٤ وتهذيب تاريخ دمشق ج٥ ص٤٤٩ وراجع: تهذيب التهذيب ج٣ ص٣٩٩ عن الواقدي.

(٢) تهذيب تاريخ دمشق ج٥ ص٤٤٦ ومجمع الزوائد ج٩ ص٣٤٥ وتهذيب الكمال ج١٠ ص٣١ وكنز العمال ج١٠ ص٢٨١ عن الطبراني وص ٢٨٤ عن ابن عساكر.

(٣) تهذيب الكمال ج١٠ ص٣٠ و ٣١ ومستدرك الحاكم ج٣ ص٤٢١ ومجمع الزوائد ج٩ ص٣٤٥.

(٤) سير أعلام النبلاء ج٢ ص٤٣٢ وفي هامشه عن الطبراني وتهذيب الكمال ج١٠ ص٢٩ وتهذيب تاريخ دمشق ج٥ ص٤٤٩.

(٥) سير أعلام النبلاء ج٢ ص٤٣٣ ومستدرك الحاكم ج٣ ص٤٢١ وتهذيب تاريخ دمشق ج٥ ص٤٤٩ وتهذيب الكمال ج١٠ ص٣٠.

(٦) الإصابة ج١ ص٥٦١.

وتوفي زيد سنة ثمان وأربعين، وعمره تسع وخمسون سنة[1].

وقال الواقدي: مات سنة خمس وأربعين، وهو ابن ست وخمسين سنة[2] وكل ذلك يؤيد ما قلناه، ويدل عليه.

وأورد بعضهم: على كون الخندق في السنة الرابعة، بأن من المعلوم: أن غزوة بني قريظة قد كانت في السنة الخامسة، ومعلوم أنها كانت عقيب الخندق[3].

وأجيب عن ذلك: بأن الخندق يمكن أن تكون قد استمرت إلى أواخر الرابعة[4]، لا سيما إذا صح قولهم: إنهم استمروا في حفر الخندق شهراً[5] وأن الحصار قد استمر شهراً أيضاً[6] مع ملاحظة: أن ابن سعد يقول: إن الخندق قد كانت في شهر ذي القعدة[7].

هذا، بالإضافة إلى حصاره «صلى الله عليه وآله» الطويل لبني قريظة حسبما سيأتي. بعد ما تقدم نقول: إنه لا حاجة إلى الإفاضة في بيان خطأ قول البعض: أن الخندق كانت سنة خمس باتفاق المؤرخين باستثناء ابن خلدون[8].

---

(١) مجمع الزوائد ج٩ ص٣٤٥ وتهذيب الكمال ج١٠ ص٣١.

(٢) صفة الصفوة ج١ ص٧٠٤ و ٧٠٥.

(٣) راجع: مرآة الجنان ج١ ص٩ والسيرة الحلبية ج٢ ص٢٢٨ و ٢٢٩.

(٤) راجع: مرآة الجنان ج١ ص٩ وراجع السيرة الحلبية ج٢ ص٢٢٩

(٥) السيرة الحلبية ج٢ ص٣١٤ والسيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٤.

(٦) ستأتي الأقوال في ذلك، حينما نتكلم عن مدة حفر الخندق في هذه الغزوة

(٧) السيرة الحلبية ج٢ ص٢٢٨، وراجع: المغازي للواقدي ج٢ ص٤٤٠.

(٨) محمد رسول الله «صلى الله عليه وآله» تأليف محمد رضا ص٢٢٧.

غزوة الخندق في زمن الحصاد:

وذكرت النصوص الآنفة الذكر: أن الأحزاب قدموا المدينة في زمان حصد الناس زرعهم قبله بشهر، وأدخلوا حصادهم وأتبانهم.

وكانت غطفان ترسل خيلها في أثر الحصاد ـ وكان خيل غطفان ثلاث مئة ـ فيمسك ذلك من خيلهم. لكن إبلهم كادت تهلك من الهزال، وكانت المدينة ليالي قدموا جديبة[1].

ومن جهة ثانية: فإن غزوة بني قريظة كانت بعد الخندق مباشرة.

ويذكر الزهري: أن أبا لبابة الذي خان الله ورسوله فيها، قد ارتبط في المسجد في حر شديد[2] وكان يوماً صائفاً[3].

ومعنى ذلك هو: أن الأحزاب قد قدموا المدينة في أواسط فصل الصيف، أو أواخره، لأن الحصاد يكون عادة في أوائل فصل الصيف لا سيما في بلاد الحجاز المتميزة بشدة الحر فيها.

وهذا يلقي ظلالاً من الشك على ما يزعمونه من أن غزوة الخندق كانت «في أيام شاتية»[4] أو «في برد شديد»[5] أو «في زمن شات، وليال باردة

---

(١) المغازي للواقدي ج٢ ص٤٤٤ والإمتاع ج١ ص٢١٩ وسبل الهدى والرشاد وغير ذلك من مصادر تقدمت.

(٢) المغازي للواقدي ج٢ ص٥٠٧.

(٣) المغازي للواقدي ج٢ ص٥١٤.

(٤) تاريخ ابن الوردي ج١ ص١٦٢.

(٥) الجامع للقيرواني ص٢٨١ وراجع: السيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٨٤ والبداية والنهاية ج٤ ص٩٥ و ٩٦ عن البخاري.

كثيرة الرياح»[١].

وسيأتي: أن عائشة كانت تدفئ رسول الله «صلى الله عليه وآله» وهم يحفرون الخندق، كما يزعمون.

وستأتي: سائر النصوص والمصادر لذلك، حينما نتكلم عن أسباب هزيمة الأحزاب وعن حفر الخندق.

إلا أن يقال: أن الحصاد قد يستمر إلى الخريف، فلا مانع من البرد والشتاء حينئذٍ.

هل أخطأ التقويم التطبيقي؟!

وبالمناسبة؛ فإن كتاب «التقويم التطبيقي لألف وخمس مئة سنة هجرية قمرية وميلادية»[٢]. قد ذكر: أن أول شهر شوال للسنة الرابعة الهجرية يوازي يوم ٦ من شهر آذار سنة ٦٢٦م، وأول شهر ذي القعدة يوازي يوم ٤ من شهر نيسان، وأول ذي الحجة يوازي ٤ أيار.

أما في سنة خمس؛ فإن شوال وذا القعدة، وذا الحجة توازي ٢٣ شباط حتى ٢٣ أيار.

وهذا التطبيق يخالف ما ذكره المؤرخون في تاريخ غزوة الخندق.

أما بناء على ما ذكره الواقدي فواضح، لأننا قدمنا أن مقتضى كلام الواقدي هو أن غزوة الخندق قد حصلت في أواخر الصيف وأن انصراف

---

(١) تجارب الأمم ج٢ ص١٥٢.

(٢) راجع الكتاب: تقويم تطبيقي هزار وبانصد ساله هجري قمري وميلادي قسم الجداول ص١ تأليف: فردينناندو وستنفد، وإدوارد ماهلر.

الأحزاب من الخندق كان في الخريف.

وأما بناء على ما ذكره الآخرون، فإن من الواضح: أنهم يذكرون: أن الأحزاب قد انصرفوا في ليلة باردة شاتية، وأن انصرافهم كان في أواخر ذي الحجة، أي في أواخر شهر أيار.

ومن الواضح: أن الجو في الحجاز، وفي المدينة لا يكون في هذا الوقت بارداً ولا شاتياً فضلاً عما يذكرونه من برد كان يقاسيه رسول الله «صلى الله عليه وآله» وهم يحفرون الخندق ـ كما سيأتي ـ في شوال أو في ذي القعدة. فإن الجو في المدينة يكون في هذه الأيام في أعدل أحواله، كما هو معلوم من حال منطقة الحجاز لكل أحد.

مشاركة الحارث بن عوف في الخندق:

قد ذكرت النصوص المتقدمة: أن الحارث بن عوف قد شارك في حرب الخندق. ولكن قد روى الزهري، وكذلك بنو مرة خلاف ذلك، فذكروا: أنه لما أجمعت غطفان على السير أبى الحارث بن عوف المسير، وقال لقومه:

«تفرقوا في بلادكم، ولا تسيروا إلى محمد، فإني أرى أن محمداً أمره ظاهر. ولو ناوأه من بين المشرق والمغرب؛ لكانت له العاقبة؛ فتفرقوا في بلادهم، ولم يحضر واحد منهم»[1].

وفي نص آخر: أنه قال لعيينة بن حصن، ولقومه من غطفان: «يا قوم أطيعوني، ودعوا قتال هذا الرجل، وخلوا بينه وبين عدوه من العرب»

---

(١) المغازي للواقدي ج٢ ص٤٤٣ وراجع: الإكتفاء ج٢ ص١٥٩.

فغلب عليهم الشيطان، وقطع أعناقهم الطمع، ونفذوا لأمر عيينة على قتال رسول الله «صلى الله عليه وآله» وكتبوا إلى حلفائهم من بني أسد فأقبل طلحة في من اتبعه من بني أسد الخ..»[1].

وقال المقريزي والحلبي الشافعي: «وقيل: لم تحضر بنو مرة»[2].

لكن الواقدي يصر على: أن بني مرة قد شهدوا الخندق، بقيادة الحارث بن عوف، وهجاه حسان شعراً.

وذكروا: أنه كان بينه وبين النبي «صلى الله عليه وآله» جوار.

وقال الواقدي: «فكان هذا أثبت عندنا: أنه شهد الخندق في قومه. ولكنه كان أمثل تقية من عيينة»[3].

وقال الواقدي أيضاً: «لم يحضر الخندق الحارث بن عوف ولا قومه.

ويقال: حضرها الحارث بن عوف.

قال ابن واقد: وهو أثبت القولين عندنا»[4].

أبو رافع قُتل بعد أحد:

وقد ذكرت بعض النصوص أيضاً: أبا رافع اليهودي في جملة من حرض المشركين وحزَّب الأحزاب في غزوة الخندق[5].

---

(١) تاريخ الخميس ج١ ص٤٨٠ والإكتفاء ج٢ ص١٥٩.

(٢) السيرة الحلبية ج٢ ص٣١١ والإمتاع ج١ ص٢١٩.

(٣) المغازي للواقدي ج٢ ص٤٤٤.

(٤) المغازي ج٤ ص٤٧٧ وعيون الأثر ج٢ ص٥٧.

(٥) راجع: جامع البيان ج٥ ص٨٦ والدر المنثور ج٢ وتفسير القرآن العظيم ج١ ص٥١٣.

ونقول:

إن أبا رافع قد قتل كما يقولون في السنة الثالثة في جمادى الآخرة منها[1]، وذلك بعد قتل ابن الأشرف، وقيل بعد أُحد، وقيل في السنة الرابعة[2].

ولكن من الواضح: أن ذلك كان قبل وقعة الخندق، التي كانت في أواخر الرابعة، واستمرت حتى الخامسة، هي وغزوة بني قريظة، كما رجحناه، أو كانت في السنة الخامسة.

ولو كان أبو رافع حياً في غزوة الخندق، لكان المناسب أن يذكر مقتله بعد الخندق، لا بعد أُحد، فراجع ولاحظ كلماتهم.

هل كان أبو الأعور في الخندق؟!:

وقد ذكرت بعض النصوص المتقدمة: أن أبا الأعور السلمي كان قائد بني سليم في غزوة الأحزاب ضد المسلمين[3].

ولكن الظاهر: هو صحة ما ذكره الواقدي وغيره، من أن أبا الأعور السلمي هو الذي حضر مع الأحزاب في حرب الخندق[4].

---

(١) راجع: تاريخ الأمم والملوك ج٢ ص١٨٢ والكامل في التاريخ ج٢ ص١٤٦.

(٢) راجع: الكامل في التاريخ ج٢ ص١٤٨ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص١٨٣.

(٣) تاريخ الخميس ج١ ص٤٨٠ ومناقب آل أبي طالب ج١ ص١٩٧ ومجمع البيان ج٨ ص٣٤٠ ونهاية الأرب ج١٧ ص١٨٠ والبحار ج٢٠ ص١٩٧ ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٣٩٩ والبدء والتاريخ ج٤ ص٢١٧ والإكتفاء ج٢ ص١٥٩.

(٤) راجع المغازي للواقدي ج٢ ص٤٤٤ وإمتاع الأسماع ج١ ص٢١٨.

ويدل على ذلك: قول قيس بن سعد للنعمان بن بشير: إنه لم يكن مع معاوية غيره وغير صويحبه مسلمة بن مخلد[1] كما سيأتي. فلو كان أبو الأعور صحابياً لم يصح قول قيس هذا. فيظهر أن الراوي، أو الناسخ قد أسقط كلمة (أبا) الأولى، إما اشتباهاً أو سهواً، أو لحاجة في نفسه قضاها.

والذي نخشاه هو: أن يكون هذا الإسقاط قد جاء لخدمة هدف سياسي من نوع ما، كأن يكون هو دعوى أن أبا الأعور قد لقي النبي «صلى الله عليه وآله» ورآه، وذلك بهدف الإيحاء بصحة دعوى كون أبي الأعور من الصحابة، وذلك تدعيماً لموقف معاوية بتكثير عدد الصحابة معه، وإيجاد شبهات حول بغيه على إمام زمانه.

ولكن مراجعة كتب الرجال والتراجم توجب المزيد من الشك والريب في هذا الأمر، فقد قال العسقلاني: «قال ابن أبي حاتم، عن أبيه: أدرك الجاهلية، ولا صحبة له وحديثه مرسل، وتبعه أبو أحمد العسكري. وذكره البخاري في من اسمه عمر. ولكن لم يذكره في الصحابة..».

إلى أن قال: «وقال ابن حبان في ثقات التابعين: يقال له صحبة»[2] ونقل ابن منظور عن ابن عساكر قوله:

«يقال: له صحبة. ويقال: لا صحبة له»[3].

---

(١) صفين للمنقري ص٤٤٩.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ج٢ ص٥٤٠ وج ٤ ص٩ وراجع: أسد الغابة ج٤ ص١٠٩ وج ٥ ص١٣٨ والإستيعاب (مطبوع بهامش الإصابة) ج٤ ص١٤.

(٣) مختصر تاريخ دمشق ج١٣ ص٢١٨.

توثيق أبي الأعور!!:

والذي يلفت نظرنا هنا: هو توثيقهم لأبي الأعور[1]، رغم تصريحهم بأنه كان أشد مَنْ عند معاوية على علي «عليه السلام»، وكان علي «عليه السلام» يدعو عليه في القنوت في آخرين[2].

بل لقد قال ابن الأثير: «كان من أعيان أصحاب معاوية، وعليه كان مدار الحرب بصفين»[3].

فمقام أبي الأعور لدى معاوية وخدماته لعرش الشام وضديته مع علي «عليه السلام» قد جعل الكثيرين ممن يسيرون في هذا الاتجاه يهتمون بصياغة الفضائل له، لأنها ستكون في نهاية الأمر فضائل لمعاوية نفسه. ولعلهم أرادوا أن يلبسوه ثوب الصحبة لرسول الله «صلى الله عليه وآله» من أجل تكثير الصحابة عند معاوية، بهدف إيجاد شبهات حول بغيه على إمام زمانه، كما قلنا.

وقد تعودنا من هذا النوع من الناس محاولات من هذا القبيل، تهدف إلى تقليل عدد الصحابة مع علي «عليه السلام»، وزيادتهم مع خصومه، حتى ليروون عن الشعبي أنه قال: «من زعم أنه شهد الجمل من أهل بدر

---

(١) الإصابة ج٢ ص٥٤٠ و ٥٤١ ونهاية الأرب ج١٧ ص١٦٧.

(٢) راجع: أسد الغابة ج٢ ص١٣٨ والإستيعاب (مطبوع بهامش الإصابة) ج٤ ص١٤.

(٣) أسد الغابة ج٤ ص١٠٩.

إلا أربعة فكذبه. كان علي وعمار في ناحية، وطلحة والزبير في ناحية»[1].

ويظهر أن أمير المؤمنين «عليه السلام» وأصحابه قد التفتوا إلى هذا الأمر ولذلك نجدهم يتحدثون عن حضور الصحابة معهم، ويعطون ارقاماً دقيقة في هذا المجال.

فقد رووا: أن ناساً من قراء أهل الشام لحقوا بعلي «عليه السلام» فقال عمرو بن العاص لمعاوية عن علي «عليه السلام» في جملة كلام له: «وإنه قد سار إليك بأصحاب محمد «صلى الله عليه وآله» المعدودين، وفرسانهم، وقرائهم، وأشرافهم، وقدمائهم في الإسلام، ولهم في النفوس مهابة الخ..».

فجمع معاوية أجناد أهل الشام وخطبهم، فبلغ علياً «عليه السلام» ذلك، فأمر الناس فجمعوا.

قال أبو سنان الأسلمي: «وكأني أنظر إلى علي متوكئاً على قوسه، وقد جمع أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وآله» عنده، فهم يلونه و [كأنه] أحب أن يعلم الناس: أن أصحاب رسول الله متوافرين عليه، فحمد الله ثم قال الخ..»[2].

وقال سعيد بن قيس في خطبة له: «وقد اختصنا الله منه بنعمة فلا نستطيع أداء شكرها، ولا نقدر قدرها: أن أصحاب محمد المصطفين الأخيار معنا، وفي حيزنا؛ فوالله الذي هو بالعباد بصير: أن لو كان قائدنا حبشياً مجدعاً إلا أن معنا من البدريين سبعين رجلاً؛ لكان ينبغي لنا أن

---

(١) العقد الفريد ج٤ ص٣٢٨.

(٢) صفين للمنقري ص٢٢٢ و ٢٢٣.

تحسن بصائرنا الخ..»[1].

ويقول الأشتر في صفين: «وأنتم مع البدريين، قريب من مائة بدري، ومن سوى ذلك من أصحاب محمد «صلى الله عليه وآله»..»[2]

وقد كان لهم أثر عظيم في الحرب ولا سيما الأنصار منهم كما اعترف به معاوية، فراجع[3].

وقد قالوا: كان مع علي «عليه السلام» ثمان مئة رجل ممن بايع النبي «صلى الله عليه وآله» تحت الشجرة.

وعن سعيد بن جبير: كان مع علي رضي الله عنه يومئذٍ ثمان مئة رجل من الأنصار، وتسعمائة ممن بايع تحت الشجرة.

وعن الأعمش: كان معه ثمانون بدرياً، وثمان ماءة من أصحاب محمد «صلى الله عليه وآله»[4].

وقال الزبير بن بكار: «شهد صفين مع أمير المؤمنين «عليه السلام» من أهل بدر سبعة وثمانون رجلاً، منهم سبعة عشر رجلاً من المهاجرين، وسبعون من الأنصار، وأما من باقي الصحابة فكان معه ألف وثمان مئة، منهم تسعون رجلاً بايعوا رسول الله «صلى الله عليه وآله» تحت الشجرة»[5].

---

(١) صفين ص٢٣٦.

(٢) صفين ص٢٣٨.

(٣) صفين ص٤٤٥ ـ ٤٤٩.

(٤) الفتوح لابن أعثم ج٢ ص٤٥٠.

(٥) تذكرة الخواص ص٨١ و ٨٢ وراجع: المعيار والموازنة ص٢٢ ومستدرك الحاكم ج٣ ص١٠٤ والغدير ج١٠ ص١٦٣ عن بعض المصادر الأخرى.

ويعترف معاوية بأن المهاجرين والأنصار كانوا مع علي «عليه السلام»، فهو يقول لابن عباس: «فاذكروا علي بن أبي طالب ومحاربته إياي، ومعه المهاجرون والأنصار الخ..»[١].

وقال قيس بن سعد للنعمان بن بشير: «انظر أين المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان، الذين رضي الله عنهم، ثم انظر: هل ترى مع معاوية غيرك وصويحبك؟! الخ..»[٢].

والمراد بصويحبه: مسلمة بن مخلد.

آية سورة النساء متى وفيمن نزلت:

لقد تحدثت النصوص التاريخية المتقدمة عن قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِنَ الكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ للذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً، أُوْلئِكَ الذِينَ لعَنَهُمُ اللهُ وَمَن يَلعَنِ اللهُ فَلن تَجِدَ لهُ نَصِيراً، أَمْ لهُمْ نَصِيبٌ مِنَ المُلكِ فَإِذاً لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً، أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلى مَآ آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ..﴾[٣].

فذكرت: أن هذه الآيات قد نزلت في هؤلاء اليهود الذين ذهبوا إلى مكة، وإلى سائر القبائل ليحرضوهم على قتال النبي «صلى الله عليه وآله» فجمعوا الجموع، وحزَّبوا الأحزاب، فكانت غزوة الخندق.

ونقول:

---

(١) الفتوح لابن أعثم ج٤ ص٢٣٩.

(٢) صفين ص٤٤٩ وراجع ابتداء من ص٤٤٥.

(٣) الآيات ٥١ ـ ٥٤ من سورة النساء.

إننا نشك في أن تكون هذه الآية قد نزلت في هذه المناسبة وذلك لما يلي:

١ ـ هناك روايات تقول: إن هذه الآية قد نزلت في مناسبة أخرى سبقت غزوة الخندق. وذلك لما ذهب كعب بن الأشرف إلى قريش، يحرضهم على غزو المسلمين، فسألوه عن أن أي الفريقين أهدى، فأجابهم بما يقرب مما سبق.

وذكروا أيضاً: أنهم طلبوا منه أن يسجد لأصنامهم، ليطمئنوا إلى أنه لا يمكر بهم؛ ففعل، مجاراة لهم.

وظاهر بعض النصوص الأخرى: أن هذه الآيات قد نزلت في مكة قبل الهجرة حيث ذكرت نزول سورة الكوثر في هذه المناسبة أيضاً، وهي إنما نزلت قبل الهجرة[1].

---

(١) الدر المنثور ج٢ ص١٧١ ـ ١٧٣ عن الطبراني، والبيهقي في الدلائل عن عكرمة عن ابن عباس. وعن سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عكرمة مرسلاً. وعن أحمد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس. وعن عبد الرزاق، وابن جرير عن عكرمة. وعن ابن جرير عن مجاهد. وعن عبد بن حميد، وابن جرير عن السدي، عن ابي مالك. وعن البيهقي في الدلائل، وابن عساكر في تاريخه عن جابر عن عبد الله. وعن عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة والجامع لأحكام القرآن ج٥ ص٢٤٩ ومجمع البيان ج٣ ص٥٩ والتفسير الكبير ج١٠ ص١٢٨ والتبيان ج٣ ص٢٢٣ و ٢٢٤ و ٢٢٥ والبحر المحيط ص٢٧١ والنهر الماد من البحر (مطبوع بهامش البحر المحيط) ج٣ ص٢٧١ والكشاف (ط دار الفكر) ج١ ص٥٣٢ وجامع البيان ج٥ ص٨٥ و ٨٦ وتفسير القرآن العظيم ج١ ص٥١٣ وفتح القدير ج١ ص٤٧٨ و ٤٧٩ وتفسير الخازن ج١ ص٣٦٨ ومدارك التنزيل للنسفي (مطبوع بهامش تفسير الخازن) ج١ ص٣٦٩.

إلا أن يقال: إنها مما تكرر نزوله.

٢ ـ قيل: كان أبو برزة كاهناً في الجاهلية، فتنافس إليه ناس ممن أسلم، فنزلت الآية. عن عكرمة[١].

توضيح وتصحيح:

إن القصة التي يحكيها المؤرخون قد فرضت وجود فريقين هما:

جماعة اليهود، والمشركون.

وقد سأل المشركون اليهود عن الأهدى؟ هم أم المسلمون؟

فأجابهم اليهود: أنتم أولى بالحق.

مع أن الآية تفرض الفريقين يتحدثان عن فريق ثالث أشير إليه بقولهم: ﴿**هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً**﴾[٢].

أي أن اليهود قالوا للمشركين: هؤلاء أهدى، ولم يقولوا لهم: أنتم أهدى. فلا ينطبق مدلول الآية على روايات المؤرخين، سواء رواية كعب بن الأشرف، أو حيي بن أخطب، أو رواية أبي برزة الآنفة الذكر.

إلا أن يقال: في الآية التفات من الخطاب بالضمير إلى الإشارة بكلمة هؤلاء، والالتفات موجود في القرآن.

والنكتة المسوغة لهذا الالتفات هي: أن الله سبحانه قد قال: ﴿**وَيَقُولُونَ للذِينَ كَفَرُوا..**﴾ فجاء بصيغة المضارع ليفيد: أن هذا النهج في التعامل مستمر في هذا النوع من الناس. وليست القضية قضية مضت وذهبت، قد

---

(١) مجمع البيان ج٣ ص٥٩.

(٢) الآية ٥١ من سورة النساء.

تكون لها ظروفها ومبرراتها، فلا تمثل خطأً مستمراً لهؤلاء الناس.

فلما عبر تعالى عما حدث بصيغة المضارع، فإنه لم يعد بالإمكان أن يقول: «أنتم أهدى»، لأن الخطاب لما صار فعلياً فيحتمل فيه أن يكون موجهاً لهؤلاء الناس الذين يسمعون الآية من النبي «صلى الله عليه وآله»، ويخاطبهم «صلى الله عليه وآله» بها، ويحتمل أن يكون خطاباً للكافرين أيضاً.

فهو من قبيل ما لو قلت لرجل: زيد قال لعمرو: أنت رجل فاسق، فكلمة أنت رجل فاسق يحتمل فيها أن تكون موجهة لمخاطبك أنت، ويحتمل أن تكون موجهة لعمرو.

إذن.. فلا بد في الآية من التصرف في خطاب أولئك الناس والإتيان بالمضمون بطريقة تدفع هذا الالتباس.

وهكذا كان، فإنه تعالى استخرج مضمون كلامهم وهو أن هؤلاء أي الكفار المشركين الذين خاطبهم أهل الكتاب (وهم غير من يخاطبهم النبي بالقرآن فعلاً) أهدى من المؤمنين.

فاتضح: أن الآية لا تنافي سياق الحدث التاريخي الذي هو مورد البحث.

تحريض اليهود:

لقد رأى اليهود عن كثب كيف أن المسلمين يزدادون قوة ويزداد الإسلام انتشاراً باستمرار.

ويرون أن نفوذهم كمصدر وحيد للمعارف بدأ ينحسر ويتلاشى وها هو الإسلام ينتقد ما يدَّعيه اليهود من ذلك ويفنده، ويبيِّن الصحيح من

المزيف منه. وهو بذلك يزلزل مكانتهم، ويفقدهم الشيء الذي كانوا ولا يزالون يعتزون ويفتخرون ويتسامون به على الناس.

ويبطل مزعمتهم بأنهم شعب الله المختار، ويرفع شعار: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى.

فاحترقت قلوبهم بالغيظ وطفحت بالحقد، وتآمروا على هذا الدين ونقضوا عهودهم التي قطعوها على أنفسهم، وجرُّوا على أنفسهم البلاء والعناء. وكانت واقعة بني قينقاع، ثم واقعة بني النضير.

وهم يريدون أن يأخذوا بثأرهم حسب زعمهم، ولكنهم يدركون عجزهم عن ذلك بأنفسهم، فالتجأوا إلى تأليب قريش والعرب الموتورين من الإسلام، والطامعين بتحقيق مكاسب مالية وغيرها من حرب كهذه.

ويقول القاضي النعمان ما ملخصه: إن يهود المنطقة، وهم أهل نعم وأموال، وأصحاب رياسة، قد أزعجهم انتشار الإسلام، لأنهم رأوا أنهم يفقدون هيمنتهم على المنطقة وعلى أهل الشرك الذين يكذبون بالبعث، فجحدوا رسول الله وشككوا الآخرين ما أمكنهم بنبوته.

فلما كان من أمر أحد ما كان، ندموا على عدم المساعدة على حرب محمد، لأنهم رأوا أنها كانت فرصة، ولو أقام المشركون على الحرب لظفروا بالمسلمين؛ فأرسلوا إلى أبي سفيان ووعدوه النصر، فوجد أنها فرصة. وطلب منهم أن يعلنوا للناس بتكذيب محمد، لأن الناس يركنون إليهم، لأنهم أهل كتاب.

فمضى وجوههم وساداتهم إلى مكة، وشهدوا للمشركين بأنهم أهدى من محمد سبيلاً، فوثقوا بهم، ومشوا معهم إلى قبائل العرب ليقنعوهم

بحرب محمد «صلى الله عليه وآله» واستئصاله، وتعاقدوا على ذلك الخ..»[1].

الداء الدوي:

قد اتضح مما تقدم: أن اليهود كانوا هم الذين خططوا لحرب الخندق، واتصلوا بقريش وبغطفان، وسائر القبائل، وحرضوهم، وشجعوهم، وساعدوهم على التفاهم والإتفاق ثم المبادرة إلى غزو النبي محمد «صلى الله عليه وآله»، والمسلمين في المدينة وبذلوا لهم من أموالهم ثلث ثمار خيبر أو أكثر من ذلك.

وقد بدا واضحاً من سير الأحداث: أن اليهود أشد حقداً وحنقاً على الإسلام والمسلمين. وأنهم رغم كل الآيات والحقائق التي كانوا يعرفونها ويشاهدونها لم يستطيعوا أن يتفاعلوا مع هذا الدين، ولا تذوقوا طعم الإيمان به. إلا أفراد قليلون منهم وفقهم الله لنيل هذه الكرامة والفوز بهذا الشرف العظيم من أمثال مخيريق الشهيد السعيد رحمة الله تعالى عليه ورضوانه.

ثم إنهم منذ دخل الإسلام إلى المدينة لم تجتمع لهم كلمة على حربه، لأنه دخل قوياً عزيزاً بتحالفه مع القبائل ذات النفوذ في المنطقة، ولا سيما الأوس والخزرج. ثم لأن النبي «صلى الله عليه وآله» عقد تحالفات معهم بين الحين والآخر.

ولم يزل اليهود في موقع الضعف والهوان في قبال عز الإسلام ومنعته،

---

(١) شرح الأخبار ج١ ص٢٨٨ ـ ٢٩١.

ونفوذه وشوكته.

فالتجأوا منذ اللحظة الأولى إلى مناوأته بأساليب التآمر والغدر والخيانة، وإذكاء الفتن، وإثارة النعرات العرقية وغيرها، وكان هذا هو السبيل الذي اختاروه لأنفسهم، بعد أن صدوا عن سبيل الله، واتخذوا آيات الله هزواً.

أما المشركون فإنهم حين يستجيبون لليهود، فإنما يستجيبون لإنقاذ سمعتهم، واستعادة هيبتهم التي اهتزت وأصيبت بنكسة قوية بسبب تخلفهم عن بدر الموعد، لدواعي حقد دفين يعتل في نفوس الكثيرين منهم، أو إلى نوازع الطمع والجشع وحب الحصول على شيء من حطام الدنيا كتمر خيبر، لدى كثيرين آخرين، كما ويستجيب فريق آخر لنداء الشيطان، الذي يزين لهم أعمالهم ويعدَهم ويمنيهم، وما يعدهم الشيطان إلا غروراً، فيصرون على الجحود وعلى الإستكبار والعتو والعلو. وإن ربك لبالمرصاد.

ولكن حين يفرض الإيمان والإسلام نفسه عليهم، فإنك تجد الأمر لا يصل في صعوبته وتعقيده إلى الدرجة التي نجدها عند اليهود رغم وضوح الأمر لدى اليهود.

حتى إنهم ليعرفون هذا النبي «صلى الله عليه وآله» كما يعرفون أبناءهم، ويجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، وليس الأمر بالنسبة للمشركين كذلك، إلا أنهم يرون المعجزات والكرامات، ويقيم «صلى الله عليه وآله» عليهم الحجة، حتى لا يبقى عذر لمعتذر، ولا حيلة لمتطلب حيلة.

هذا، ومن المضحك المبكي هنا: أننا نجد اليهود يريدون أن ينتصروا على محمد والمسلمين بواسطة قريش والقبائل العربية، وقريش تريد أن تحقق هذا

الهدف بالذات بالإفادة من خيانة اليهود، ومساعدة قبائل غطفان وغيرها.

أما غطفان وغيرها من القبائل العربية: فتريد الحصول على المال ولكن بالاعتماد على جهد القريشي وكيد اليهودي. ولم يكن اهتمامها باستئصال شأفة الإسلام والمسلمين يصل إلى درجة اهتمام قريش واليهود بذلك ـ كما ربما يظهر من بعض المؤلفين.

أهداف الحرب:

أما أهداف الحرب: فهي كما يظهر من كلامهم السابق استئصال محمد ومن معه، ولكننا إذا أردنا تحديد ذلك بدقة، فإننا نقول:

لقد حدد علي «عليه السلام» هدف الأحزاب والعرب من الحرب وقال: «إن قريشاً والعرب تجمعت، وعقدت بينها عقداً وميثاقاً، لا ترجع من وجهها حتى تقتل رسول الله، وتقتلنا معه معاشر بني عبد المطلب»[1].

ونعتقد: أن هذا الكلام هو الأقرب والأنسب فيما يرتبط بتحديد الهدف الأقصى للحرب، فإن كلامهم المتقدم في النصوص التي أوردناها، وإن كان ينص على استئصال محمد ومن معه، إلا أن استئصال جميع من مع النبي من الأوس والخزرج، وسائر قبائل العرب لن يكون سهلاً ولا ميسوراً لهم. ولا يمكن لهم أن يقدموا على إذكاء نار قد لا يمكنهم إطفاء لهيبها على مدى أجيال ولسوف ينالهم منها الشيء الكثير والخطير كما هو معلوم..

---

(١) الخصال (باب السبعة) ج٢ ص٣٦٨ والبحار ج٢٠ ص٢٤٤ وشرح الأخبار ج١ ص٢٨٧ والإختصاص ص١٦٦ و ١٦٧.

أما قتل محمد وبني عبد المطلب، فهو الأسهل والأيسر، وبه يتحقق المطلوب، ولماذا يذهبون إلى أبعد من ذلك؟!

غير أن من الواضح: أن هذا لن يقنع اليهود، لأن هدفهم هو استئصال محمد وجميع من معه. ولعل ذلك يفيدهم في إعادة بسط هيمنتهم ونفوذهم على يثرب وعلى المنطقة.

أما غطفان وسائر القبائل فيهمها تمر خيبر بالدرجة الأولى، اما استئصال محمد والمسلمين فلا ترى فيها أية سلبية، بل هو أمر محبوب بالنسبة إليها ومطلوب.

الأحقاد هي المحرك:

قد قرأنا فيما سبق: أن اليهود يقولون للمشركين: «جئنا لنحالفكم على عداوة محمد وقتاله».

فأجابهم أبو سفيان: «مرحباً وأهلاً، أحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمد».

والذي نريد أن نلفت النظر إليه هنا: هو أن هؤلاء الناس لم يكلفوا أنفسهم حتى تلطيف عباراتهم، وعقلنة تصريحاتهم. بل أظهروا كل ما يضمرونه من سوء دونما رادع من خلق، أو وازع من عقل أو شرف أو منطق.

فلم يقولوا لأهل مكة مثلاً: إننا جئنا لأجل أن نتدارس الأمور، بموضوعية وإنصاف، ثم بحكمة وبمسؤوليه، واضعين في حسابنا الحفاظ على المصالح الاجتماعية العامة، وتوفير الأمن والاستقرار للناس، وتجنيبهم

مآسي الحروب وسلبياتها على جميع الأصعدة، وفي مختلف الاتجاهات، وإعطاء الناس الفرصة لبناء حياتهم بناء سليماً، ثم الإعداد لمستقبلهم، في ظلال من السلام والأمن، وفراغ البال واطمئنان الخاطر.

كما إنهم قد أخفوا ما يضمرونه من الطموح إلى تحقيق مكاسب سياسية، وامتيازات على صعيد النفوذ والهيمنة على المنطقة، أو فيما هو أوسع منها.

ولم يعترفوا أيضاً: أن مصالحهم الدنيوية، وما فيها من أموال وتجارات ومواقع ومناصب ولذائذ، لها دور في اندفاعهم إلى حرب محمد ومن معه، لظنهم أنهم سوف يخسرون الكثير مما سيتأثرون به لأنفسهم على حساب غيرهم من الناس المستضعفين والمحرومين.

بل غاية ما صرَّحوا به: هو أن دافعهم ليس إلا الأحقاد والضغائن، والعداوات الباطلة، والبغي والحسد، بل لا مبرر ظاهر سوى أنهم لا يريدون لهؤلاء الناس أن يقولوا: ربنا الله، وليس ربنا الحجارة، ولا يريدون أن يتخذوا الطواغيت أرباباً من دون الله.

وصدق الله تعالى حيث يقول: **﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ..﴾**[1].

يريدون ليطفئوا نور الله سبحانه:

قد عرفنا: أن اليهود إنما قدموا مكة ليتحالفوا ويتعاقدوا مع المشركين

---

(١) الآية ٨٢ من سورة المائدة.

على استئصال محمد «صلى الله عليه وآله» ومن معه حسب زعمهم، حيث قالوا لقريش: «نحن معكم حتى نستأصل محمداً» أو «سنكون معكم حتى نستأصله ومن معه».

كما أنهم وهم يقررون ما يتعاقدون عليه، قالوا: «ولتكون كلمتنا واحدة على هذا الرجل ما بقي منا رجل».

وذلك يعني:

١ ـ أن هدفنا المعلن هو استئصال شأفة الإسلام والمسلمين.

٢ ـ أنهم مصممون على تحقيق هذا الهدف بأسلوب الحرب حتى آخر رجل منهم.

٣ ـ أن هذه المبادرة منهم قد جاءت عن طريق خيانتهم لعهودهم ومواثيقهم التي كانوا قد أبرموها مع نفس الذين يريدون استئصالهم، مع العلم بأن ذلك الطرف لم يزل وفياً بعهده حافظاً لمواثيقه معهم، ولم يحدث أن خان أو تردد في عهد مع أي فريق منهم، ولم يسئ إليهم ولا إلى غيرهم بشيء إلا ما يجرونه هم على أنفسهم بخياناتهم المتتالية، وهم يرتكبون هذه الخيانة رغم أنهم قد رأوا بأم أعينهم عواقب خيانة بني قينقاع، ثم خيانة بني النضير، وأكثرهم نضيريون، كما تقدم.

٤ ـ أن مبرر هذا الإجرام العظيم والبشع هو مجرد الحسد والحقد منهم. بالإضافة إلى مكاسب سياسية، واجتماعية وغيرها يحلمون بتحقيقها على المدى البعيد من خلال فرض هيمنتهم على المدينة وعلى غيرها بصورة وبأخرى.

فلم يكن الهدف عقيدياً ولا إنسانياً ولا أخلاقياً. بل هم قد داسوا

بأقدامهم الإنسانية والأخلاق وحتى مبادئهم وعقيدتهم التي يدَّعون أنهم ينتسبون إليها وهذا هو منتهى الإسفاف، وغاية التردي في حمأة الجريمة والبغي.

الإيمان والمواثيق لا تجدي:

وبعد.. فإن الملفت للنظر هنا: أننا نجد اليهود يفقدون صفة الأخلاقية والمبدئية في مواقفهم، وفي مجمل تحركهم في مواجهة الإسلام والمسلمين، وكذلك نجد المشركين، خصوصاً أبا سفيان، لا يختلف عن اليهود في ذلك.

فأبو سفيان يحاول أن يخدع قومه في حركته الهادفة إلى دفعهم إلى مواجهة الإسلام، حيث إن اليهود يتصلون به أولاً، ثم يتفق معهم على دعوة الناس إلى استئصال النبي «صلى الله عليه وآله»، وحين يطلبون ذلك من الناس علناً يظهر أبو سفيان بمظهر من يسمع هذا الكلام لأول مرة!!

ثم إنهم يصرحون: بأنهم جاؤوا للتحالف على العداء لمحمد، فلم يكن هذا المجيء، لمحاولة فهم دعوة هذا الرجل، والتعامل معه ومعها بإنصاف وبموضوعية، وتعقل وتدبر كما أسلفنا.

كما أنهم يفضلون الاتصال أولاً بأبي سفيان، ولم يكن المبرر لذلك إلا أنهم يعلمون بعداوته لرسول الله «صلى الله عليه وآله»، وتسرعه لقتاله فهم يريدون إذن توظيف حالة الحقد غير المسؤول لدى أبي سفيان، وحالة التسرع اللاواعي عنده لصالح تحقيق الأهداف التي يرمون إلى تحقيقها.

أضف إلى ما تقدم: أنهم لا يتورعون عن ارتكاب جريمة التضليل الإعلامي والتعليمي، ومخالفة قناعاتهم، وحتى أصول دينهم في هذا السبيل.

فهم يقررون للمشركين أن الشرك أهدى من التوحيد وأن دعوى الجاهلية خير من الهدي الإلهي.

هذا كله عدا عن استخدامهم المال أيضاً كوسيلة لتحريك بعض الفئات لحرب محمد «صلى الله عليه وآله» ومن معه.

وإذا صحت الرواية التي تقول: إن أبا سفيان قد طلب من اليهود أن يسجدوا للأصنام، لأن قريشاً خافت من مكرهم، فاستجاب اليهود وسجدوا للأوثان، وكذلك فعل كعب بن الأشرف ومن معه، حين جاؤوا في مرة سبقت حرب الخندق لتحريض المشركين على حرب محمد ـ إذا صح ذلك ـ فإن الأمر يصبح في غاية الوضوح:

١ ـ حيث يكون اليهود قد أسقطوا عن وجوههم جميع الأقنعة، وتجاوزوا كل حد، وكل الأرقام القياسية في سحق المثل والقيم، والمبادئ الأخلاقية والإنسانية وأثبتوا أنهم وصوليون بكل ما لهذه الكلمة من معنى.

والغريب في الأمر: أننا نجدهم يعتمدون على الإيمان والمواثيق لإحكام أمرهم مع المشركين، وللحصول على الحد الأدنى من الاطمئنان والوثوق ببعضهم البعض، رغم أنهم قد مارسوا ـ عملياً ـ أساليب من شأنها أن تنسف كل عوامل الثقة ولو بمستواها الأضعف والأدنى.

وإلا، فهل يمكن أن يكون المشركون قد وثقوا باليهود لمجرد أنهم قد رأوهم يسجدون للأوثان؟!

وهل اعتقد المشركون: أن اليهود قد تركوا يهوديتهم، ودخلوا في الشرك؟!

وإذا كانت الإجابة بالنفي، فما معنى وثوقهم بأيمانهم ومواثيقهم؟! وما معنى اطمينانهم إلى عدم مكرهم بهم، وخديعتهم لهم؟!

أليست نفس استجابتهم لطلب المشركين بالسجود للأوثان دليلاً على أنهم لا عهد، ولا ميثاق، ولا أيمان لهم؟ بل هي دليل على أنهم يخادعونهم ويمكرون بهم، ويريدون استخدامهم فيما يريدون بأية صورة كانت، وبأي ثمن كان؟!

ألم يدرك المشركون: أن وثوقهم باليهود استناداً إلى ذلك معناه أنهم يخدعون أنفسهم؟! ويظهرون للملأ: أنهم على درجة كبيرة من الرعونة والسذاجة؟!

٢ ـ ومما يزيد في ضراوة هذه الشكوك: أننا نجد اليهود، حين سألهم المشركون عن ذلك، قد طلبوا من المشركين أن يعرضوا عليهم دينهم ودين محمد، ليحكموا لهم أو عليهم.

فلما عرضوا ذلك عليهم أصدروا حكمهم لصالح دين المشركين، وأنهم أولى بالحق كما تقدم.

والسؤال هنا هو: هل صحيح أن اليهود كانوا لا يعرفون دين المشركين، الذين يعيشون بينهم ويتعاملون معهم منذ عشرات السنين؟!

وهل كان المشركون أعرف بأمر محمد «صلى الله عليه وآله» وبدعوته من اليهود، وهو يعيش بين ظهرانيهم، وقد عقدوا معه التحالفات وخاضوا معه الحروب، ولم يزل يدعوهم إلى دينه ويحتج عليهم وقد جاؤوا ليحرضوا الناس على حربه واستئصاله؟!

٣ ـ والأغرب من ذلك أن يخطر ببال أحد من المشركين وغيرهم: أن يجيب اليهود، الذين جاؤوا للتحريض على استئصال محمد، بغير ما أجابوا به!!

٤ ـ والأعجب من ذلك: أن يعتبر الشرك ديناً يصلح للمقارنة مع ما جاء به النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله» من عند الله تعالى.

تمر خيبر:

بقي أن نشير أخيراً: إلى هذا السخاء الذي تجلى في اليهود حتى جعلوا تمر خيبر سنة، أو نصفه كل سنة، لغطفان لتوافق على المشاركة في الحرب ضد الإسلام.

ولا ندري ما هو الدافع لهم للإقدام على هذه الخطوة؟ فهل كان هذا يستبطن غدراً ونقصاً كما هو معروف عن اليهود؟ أي أنهم بعد أن يتخلصوا من عدوهم الأقوى والأخطر بنظرهم يرفضون الوفاء بما تعهدوا به لغطفان.

وهل فكرت غطفان في هذا الأمر بصورة جدية وواقعية؟!

وما هو المبرر لهذه العداوة الراسخة من اليهود للاسلام ولنبي الإسلام؟!

وكيف نفسر هذا السخاء الذي لا نظير له من قوم لم نعرف عنهم إلا المزيد من الحرص على المال وعلى الدنيا، وإلا الشح المزري، والبخل المشين؟!

هذا السخاء قد جاء من أجل استئصال أناس لم يروا منهم إلا الوفاء والصدق، والنبل والالتزام بالقيم الإنسانية والمثل العليا!!

إن التفسير الوحيد المعقول لذلك هو: أنهم يشعرون أن الإسلام يمثل خطراً يتهدد دنياهم وامتيازاتهم، وهو يتناقض بصورة عميقة وأساسية مع ما يفكرون به، ويخططون له من استغلال لثروات البلاد، وإذلال واستعباد للعباد.

فلماذا إذاً: لا يضحون ببعض المال من أجل إزاحة هذا الكابوس الجاثم على صدورهم؟ فإذا تمكنوا من ذلك، فإنهم سوف يستقبلون الدنيا

العريضة بكل ما لديهم من خطط ماكرة، وأساليب شيطانية، تجعلهم يتحكمون بكل مقدرات الأمم، ويهيمنون على كل نبضات الحياة فيها؟!

تأثير المال في تحزيب الأحزاب:

إن من الواضح: أنه لم يكن لقوى الكفر قيادة موحدة، ترسم الخطة، ثم تتخذ القرار، ثم تعمل على تنفيذه، بل كانت لهم قيادات متعددة ومختلفة. وذلك من شأنه أن يضعف أمرهم، ويوهن وحدتهم، مع وجود فرص تساعد على إلقاء الخلاف فيما بينهم وإذكاء روح التنافس، وإشاعة روح التشكيك ببعضهم البعض كما حصل لبني قريظة.

كما أن من البديهي: أنه لم يكن بإمكان كل قبيلة أن تستقل بعداوة محمد وقتاله، وكانت كل قبيلة تخشى من مواجهة المؤمنين وحدها.

فكان لا بد من تفاهم القبائل فيما بينها لتحصيل إجماع على الاجتماع على قتال محمد وصحبه.

فبادر اليهود إلى العمل لتحصيل هذا الإجماع، على أمل أن يحسموا الأمر لمصالحهم، ويكونون بذلك قد ثأروا لأنفسهم، وتصبح ـ من ثم ـ لهم هم الكلمة الأولى والأخيرة في المدينة على الأقل، ويكون لهم النفوذ والتأثير القوي في المنطقة بأسرها..

ثم إنه قد كان من جملة العوامل التي ساعدت على تجييش الجيوش وتحزيب الأحزاب، هو الوعود المالية السخية للناس، إذا نفروا لحرب المسلمين.

حتى لقد رفض بنو مرة نصيحة الحارث بن عوف، إذ قد «غلب عليهم

الشيطان، وقطع أعناقهم الطمع»[1].

الإرهاب الفكري والخداع للسذج:

وقد أظهر النص المتقدم: أن قريشاً ـ والظاهر: أن المقصود هو الزعماء منها ـ أرادت خداع السذج والبسطاء من الناس بالاستفادة من حالة الانبهار بأهل الكتاب، التي كانت لدى عامة الناس في المنطقة العربية، والتي كانت حين ظهور الإسلام تعاني من الجهل الذريع، الذي مكّن لشياطين أهل الكتاب أن يصوروا لهم: أنهم هم مصدر العلوم والمعارف، وهم المرجع الموئل والمفزع للناس فيما يهمهم من أمور الدين، والمعارف الدينية.

واستطاع أهل الكتاب أن يمسكوا بعواطف الناس، البسطاء والسذج والجهلة، باستخدام طريقة التهويل والإحالة على الغيب الذي يضعف أقوى الناس أمامه إذا كان يلامس مصيره ومستقبله بصورة أو أخرى.

والملفت هنا: أن يستغل زعماء قريش هذه الفرصة للاستفادة من هذا الانبهار من أجل سوق الناس بالإتجاه الذي يريدون، ويرون أنه يحقق لهم مأربهم، ويوصلهم إلى أهدافهم الشريرة.

فيطلبون من الناس: أن يسألوا اليهود عن الأهدى من الفريقين: أهم بشركهم وضلالاتهم؟ أم محمد «صلى الله عليه وآله» وما جاء به من عند ربه من الهدى؟ ويأخذ أبو سفيان هنا زمام المبادرة ليلقي سؤاله بطريقة فنية

---

(١) تاريخ الخميس ج١ ص٤٨٠

وذكية، حينما ضمَّن كلامه خليطاً من الأمور التي ترضي آنئذٍ غرور الإنسان العربي والقرشي على وجه الخصوص، بملاحظة طبيعة حياته، وعاداته وموقعه، ككونهم ينحرون الجزور الكوماء، ويسقون الحجيج، وكونهم عمّار البيت، ثم هم يعبدون الأوثان.

فيفهم اليهود ما يرمي إليه ويناغمونه الكيد والتزوير، ويحكمون لهم بأنهم أولى بالحق من محمد بالاستناد إلى نفس ما أراد أبو سفيان أن يستندوا إليه وألقى إليهم به.

الحارث بن عوف ينصح قومه:

ويستوقفنا هنا: ما قاله الحارث بن عوف لقومه، وهو ينهاهم عن المسير إلى حرب محمد «صلى الله عليه وآله»، فإنها نصيحة مهمة تعبر عن إدراك حقيقي لما يجري، ثم هو يقيِّم الواقع بصورة متوازنة، وعاقلة، حيث عبر لهم عن اعتقاده أن أمر الإسلام ظاهر وغالب، ولو ناوأه ما بين المشرق والمغرب لكانت له العاقبة.

ونعتقد: أنه قد أدرك هذا الأمر بحسن تقديره للأمور، وهو يراقب ما يطرح هذا الدين للناس من مفاهيم وتشريعات، وما يمارسه من تدابير وسياسات تنسجم مع أحكام العقل والفطرة السليمة، ومع الخلق السامي والنبيل. ثم هو يرى الواقع السياسي، وكل التحولات التي تستجد على المنطقة بصورة مطَّردة ومستمرة، ويرى أن هذا الدين لا يزال ينتشر، ويتجذر، ويترسخ وتتنامى هيبته وتتأكد هيمنته، رغم كل الكيد الذي يواجهه به أعداؤه، وكل الحقد الذي يعامله به مناوئوه.

عقدة بدر الموعد:

إن إلماح صفوان بن أمية إلى ما جرى في بدر الموعد، ليدل دلالة واضحة على: أن المسلمين قد سجلوا فيها نصراً مؤزراً للإسلام وهزيمة روحية وسياسية ساحقة لكبرياء الكفر والشرك، ليس في مكة وحسب، وإنما في المنطقة بأسرها.

ولكن من دون أن يكلف ذلك المسلمين أية تضحيات، بل هم قد ربحوا في تجاراتهم في سوق بدر، حسبما تقدم بيانه.

عيينة بن حصن والمعاني الإنسانية:

ربما يفهم من كلام البعض: أن الحارث بن عوف كان يرتبط مع النبي «صلى الله عليه وآله» بجوار، لكنه اعتبره أحسن تقية من عيينة بن حصن.

ولعل السر في ذلك هو: أن الحارث، وإن كان قد نقض الجوار، الذي قد يقال: إنه يعني الالتزام بعدم الاعتداء، حفظاً للجوار، مع أن البعض كالزهري، وبني مرة ينكرون أن يكون الحارث قد فعل ذلك، ويصرون على أنه لم يحضر حرب الخندق، إلا أن عيينة قد زاد على ما فعله الحارث: أنه لم يحفظ الجميل، بل جازى الإحسان إليه بالإساءة، ولكنها إساءة جاءت على درجة كبيرة من القبح، لأنها تضمنت خروجاً على كل الأعراف، والقيم، وحتى أعراف الجاهلية.

فقد تقدم: أن النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله» كان قد سمح لعيينة، حينما أجدبت أرضه: أن يرعى في منطقة نفوذ وسيطرة وحاكمية الرسول «صلى الله عليه وآله»، لينقذهم من الخطر الذي يتهددهم، ويساعدهم على التغلب على

المشكلة الحياتية التي يعانون منها، رغم أنهم كانوا يختلفون معه «صلى الله عليه وآله»، من جهة أنهم كانوا على شركهم وضلالهم. ففعل «صلى الله عليه وآله» ذلك من دون أي مقابل، ودون أن يسجل لنفسه أي امتياز.

وقد عرف عن العرب: أنهم يعتزون ببعض المعاني التي يرون فيها شيئاً من القيمة، مثل: حسن الجوار، وحفظه، والوفاء بالعهد، ومقابلة الإحسان بمثله، ويعتبرون ذلك هو الرصيد الذي يؤهلهم لاحتلال مواقع إجتماعية متميزة، حتى إذا ما تبين لهم أن أحداً لا يملك شيئاً من هذا الرصيد، فإنه يبوء بذل العمر، وعار الدهر، وهو عندهم ساقط ومرذول، أو هكذا زعموا.

ولكن الأمور عند هؤلاء الناس قد انعكست الآن، حيث أصبح العداء للإسلام ولنبي الإسلام هو العمل الصالح عندهم الذي يبيح لهم كل محرم، وتتهاوى وتسقط معه كل قيمهم ومثلهم، التي يعتزون بها، ويعطون الأوسمة والامتيازات من خلالها وعلى أساسها.

فنقض العهود، وخفر الجوار، والإساءة لمن أحسن، وكل خزي وعار لم يعد مهماً عندهم إذا كان ذلك في قبال محمد «صلى الله عليه وآله» وضد الإسلام والمسلمين. بل إن هذه المخازي قد أصبحت أوسمة لهم، ومن دواعي تأكيد شخصيتهم، وبسط هيمنتهم بزعمهم.

وإلا، فكيف نفسر احتفاظ عيينة بن حصن، وكثيرين من أمثاله، بمواقعهم الاجتماعية، وهم قد أثبتوا أكثر من مرة أنهم لا يملكون شيئاً من هذه المعاني التي قبلها العرب، وتبنوها، وتغنوا وافتخروا بها.

وقبل أن نخلص إلى نهاية القول، نقول: إن من الطبيعي للإنسان الذي يحتفظ بميزاته وخصائصه الإنسانية أن يشعر بالامتنان تجاه من يحسن إليه،

ويشعر بالاحترام والتقدير تجاه من يحسن جواره وكذلك تجاه من يتعامل معه بطريقة أخلاقية وإنسانية، حتى ولو كان يختلف معه في الرأي، وفي العقيدة والدين.

فإذا أراد أن يكون له موقف يختلف عن هذا، فلا بد أن يتناقض أولاً مع نفسه، ويقوم صراع حاد مع تلك الخصائص النبيلة، ولن يكون قادراً على اتخاذ ذلك الموقف إلا بعد أن يتم التغلب عليها وقهرها.

وتختلف صعوبة اتخاذ القرار، والموقف هذا باختلاف درجات البشاعة والشين فيه، إلا إذا فرض: أن تلك المعاني الإنسانية قد تناهى بها الضعف، بسبب ممارسات سابقة، حتى بلغت درجة فقدت معها تأثيرها وفاعليتها. وأصبح الإنسان بذلك على درجة كبيرة من الصلف واللامبالاة، والوقاحة، وتحول إلى مجرم محترف، لا يبالي أي شيء يرتكب ويقترف، كما كان الحال بالنسبة لعيينة بن حصن، الذي هو موضع البحث.

وأخيراً: فإن عيينة بن حصن هذا هو الذي يروى أن النبي «صلى الله عليه وآله» وصفه بالأحمق المطاع، وكان من المؤلفة قلوبهم، وقد ارتد عن الإسلام بعد ذلك، وقاتل تحت قيادة طليحة بن خويلد الذي ادَّعى النبوة. فلتراجع ترجمته في كتب الرجال والتراجم.

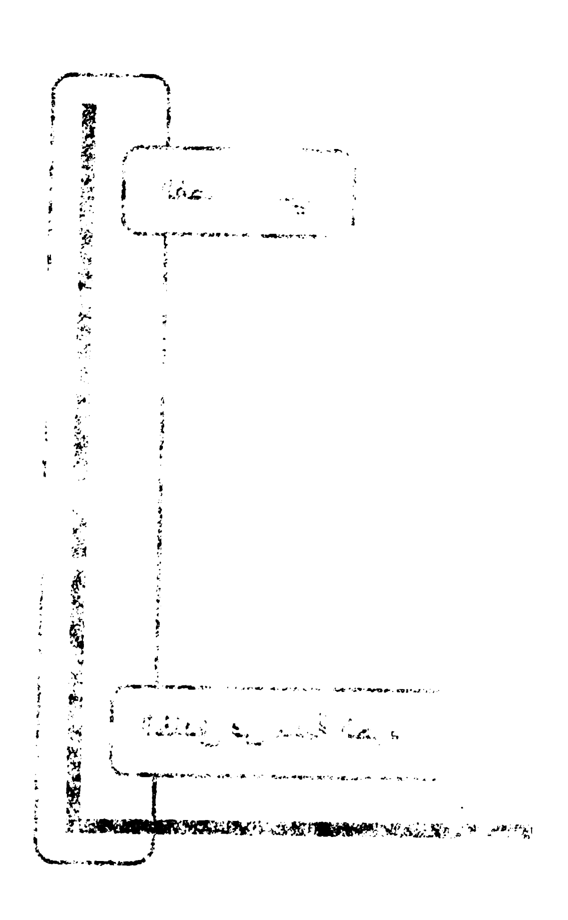
شك المشركين:

والملفت للنظر هنا: أننا نجد المشركين يشكون في صحة ما هم عليه، كما أن طلب أبي سفيان من اليهود تصديق ما هم عليه يشير إلى طغيان هذه الشكوك إلى درجة كبيرة حتى احتاجوا إلى تسكينها وطمأنة الناس وتثبيتهم.



الفصل الثاني:

الخندق في خطة الحرب والدفاع



المفاجأة:

١ ـ إن معرفة الإنسان بعدوِّه تجعله أقدر على التعاطي معه من موقع القوة والحزم، من خلال ما تهيئ له تلك المعرفة من قدرة على رسم الخطة السليمة، ثم التنفيذ الدقيق والواعي.

ولا تقتصر هذه المعرفة المؤثرة على معرفة عناصر الضعف والقوة في العدة وفي العدد، وسائر النواحي العسكرية، والامتيازات الحربية. بل تتعداها إلى الإشراف على خصائص شخصية العدو والمعرفة بطبائعه، وأخلاقياته، ومبادئه ومفاهيمه، وعاداته وتقاليده ومستواه الفكري والعلمي، وما إلى ذلك، مما له دور وتأثير في اتخاذ القرار العسكري، أو تسجيل الموقف على الصعيد السياسي، أو التعامل في مجال السلوك، وهكذا على الصعد كافة. ثم انعكاسات ذلك كله على التحرك باتجاه حشد الطاقات، ورسم الخطط، والإعداد والاستعداد للمواجهة والتصدي.

فإن التعامل مع العدو الذي يلتزم بالعهود والمواثيق، يختلف عنه مع من عرف أن من طبيعته الغدر، وعدم الوفاء. كما أن التعامل مع من يلتزم بعهده لدوافع دينية وعقيدية ومبدئية يختلف عن التعامل مع من يلتزم بذلك لدوافع أخرى.. وهكذا الحال في سائر النواحي ومختلف المواضع والمواقع.

٢ ـ ونبينا الأكرم «صلى الله عليه وآله» كان يعرف تماماً حقيقة ما يفكر به المشركون، واليهود والمنافقون، وسائر القوى التي تحيط به. ثم هو يعرف طبيعة تركيبتهم السياسية والاجتماعية وواقعهم الثقافي والإقتصادي. ثم هو يعرف نهجهم، وأساليبهم وطموحاتهم وطريقتهم في الحياة.

وقد أثبتت له التجربة الحسية في أكثر من موضع وموقع ما ينطوون عليه من غدر وخيانة، ومن روح أنانية وتآمرية حاقدة وشريرة وغير ذلك من أوضاع وحالات.

وهذا الواقع العدائي، والروح التآمرية، وتلك الأعمال الخيانية التي كانت تهيمن على أعداء الله والإنسانية، قد فرضت على النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله» والمسلمين أن يعيشوا حالة الحذر القصوى، فكان أن بث رسول الله «صلى الله عليه وآله» عيونه وأرصاده في طول البلاد وعرضها في الجزيرة العربية، هذا بالإضافة إلى ما كان يلمسه «صلى الله عليه وآله» من التسديد بالوحي والألطاف الإلهية به «صلى الله عليه وآله» وبالمسلمين في الفترات الحرجة والخطيرة.

وهذا ما يفسر لنا ما نشهده من معرفة النبي التامة بواقع ما يجري حوله، فلم يكن ليفاجئه أمر داهم، بل كان هو الذي يفاجئ أعداءه ويباغتهم. فهو إما يسبقهم بتوجيه الضربة الأولى لهم، وإما بمواجهته لهم بالخطة التي تبطل كيدهم، وتفشل مؤامراتهم، ومكرهم السيّئ ، ولا يحيق المكر السيّئ إلا بأهله.

وهذا بالذات هو ما حصل في حرب الخندق، حيث فاجأ المشركين بحفر الخندق حول المدينة، وتحصين سائرها، الأمر الذي أحبط خطتهم،

وتسبب لهم بالفشل الذريع، والخيبة القاتلة والمريرة.

٣ ـ أما معرفة أعداء النبي «صلى الله عليه وآله» به فهي تختلف في مضمونها، وفي آثارها ونتائجها عن معرفته بهم، فإنهم وإن كانوا يعرفون نبوَّته وصدقه وأمانته، ولا يشكوُّن في حقانية ما جاء به. إلا أنهم يجهلون الكثير الكثير من آثار الإسلام، والإيمان، ولا يعرفون الكثير عما يحدثه الالتزام بتعاليمه وشرائعه من تغييرات عميقة في فكر وروح الإنسان وفي شخصيته، وفي كل وجوده.

نعم.. إنهم يعرفون صدق هذا النبي، وصحة نبوته، وحقانية ما جاء به، إلى درجة أن اليهود يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ويجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل.

أما المشركون، فقد عاش النبي «صلى الله عليه وآله» بينهم، وعرفوه طفلاً ويافعاً، وشاباً ومكتهلاً، وهم الذين سموه بالصادق الأمين، ورأوا منه الكثير من المعجزات والكرامات والخوارق، وعاينوا وسمعوا منه من الحجج ما يقطع كل عذر، ويزيل كل شبهة وريب، حتى لم يعد أمامهم إلا البخوع والتسليم، أو الاستكبار والجحود على علم، فألزموا أنفسهم بالخيار الثاني، كما حكاه الله تعالى عنهم: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً..**﴾[1].

فكان من نتيجة ذلك: أن أصبح محض الحق يواجه محض الكفر والجحود وظهر بذلك صحة قوله «صلى الله عليه وآله» حين برز علي «عليه

---

(١) الآية ١٤ من سورة النمل.

السلام» لعمرو بن عبد ود الذي وضع المشركون فيه كل آمالهم: «برز الإيمان كله إلى الشرك كله».

ولا عجب بعد هذا إذا تعاون أهل الشرك والأوثان مع اليهود مدَّعي التوحيد. بل لا عجب إذا رأينا هؤلاء اليهود، الذين يدَّعون أنهم يعبدون الله، يشهدون لأهل الأوثان بأنهم أهدى من أهل التوحيد رغم أن ذلك يستبطن اعترافاً من اليهود ببطلان دينهم وعقيدتهم!!

وبعد ما تقدم: فإننا نستطيع أن نتفهم بعمق السبب في أن هذه الحرب فيما بين المسلمين وأعدائهم لا بد أن تكون مريرة وقاسية وتتميز بالشمولية والاتساع، والعمق. ثم برسوخ آثارها على كل صعيد ما دام أن أعداء الإسلام يرون ضرورة أن تستنفذ جميع الطاقات المتوفرة لديهم للهدم وللاستئصال، والإبادة الشاملة، فإن الهدف منها هو استئصال محمد ومن معه.

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[1].

المشورة والتخطيط:

ويقول المؤرخون: إنه لما فصلت قريش من مكة إلى المدينة خرج ركب من خزاعة إلى النبي فساروا من مكة إلى المدينة أربعاً فأخبروا النبي «صلى الله عليه وآله» بالأمر. وذلك حين ندب رسول الله «صلى الله عليه وآله» الناس، وأخبرهم الخبر وشاورهم في أمرهم، وأمرهم بالجد والجهاد، ووعدهم النصر، إن هم صبروا واتقوا، وأمرهم بطاعة الله وطاعة رسوله.

---

(١) الآية ٣٠ من سورة الأنفال.

وشاورهم «صلى الله عليه وآله» ـ وكان يكثر من مشاورتهم في الحرب ـ فقال: أنبرز لهم من المدينة؟ أم نكون فيها ونخندقها علينا؟ أم نكون قريباً ونجعل ظهورنا إلى الجبل؟! فاختلفوا.

[زاد المقريزي قوله: وكان سلمان الفارسي يرى رسول الله «صلى الله عليه وآله» يهم بالمقام بالمدينة(١) ويريد أن يتركهم حتى يردوا ثم يحاربهم على المدينة وفي طرقها فأشار بالخندق].

فقال سلمان: يا رسول الله! إنا إذ كنا بأرض فارس، وتخوفنا الخيل خندقنا علينا، فهل لك يا رسول الله أن نخندق؟!

فأعجب رأي سلمان المسلمين، وأحبوا الثبات في المدينة.

فركب رسول الله «صلى الله عليه وآله» فرساً له، ومعه نفر من أصحابه من المهاجرين، والأنصار، فارتاد موضعاً ينزله، فكان أعجب المنازل إليه: أن يجعل سلعاً ـ جبل معروف بسوق المدينة ـ خلف ظهره ويخندق على المذاد، إلى ذباب، إلى راتج.

فعمل يومئذٍ الخندق. وندب الناس، وخبرهم بدنو عدوهم، وعسكرهم إلى سفح سلع(٢).

واختصر ذلك المفيد وابن شهرآشوب، فقالا: «فلما سمع النبي «صلى

---

(١) لا ندري من أين فهموا: أنه كان يرى ذلك، ولو كان حقاً يرى ذلك فلا ندري من أين فهموا أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» كان يهم بالمقام في المدينة؟!.

(٢) راجع: المغازي للواقدي ج٢ ص٤٤٤ والإمتاع ج١ ص٢١٩ و ٢٢١ والسيرة الحلبية ج٢ ص٣١١ وألمح إلى ذلك في: الثقات ج١ ص٢٦٥ و ٢٦٦ وراجع: سبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥١٤ و ٥١٥.

الله عليه وآله» باجتماعهم استشار أصحابه، فاجتمعوا على المقام بالمدينة وحربهم على أنقابها»(١).

ولنا مع هذا الذي يذكره المؤرخون وقفات، وهي التالية:

من أخبر النبي ﷺ بمسير الأحزاب؟!

قد تقدم: أن ركباً من خزاعة قدم إلى المدينة في مدة أربعة أيام فأخبروا النبي «صلى الله عليه وآله» بمسير الأحزاب إليه.

ولكننا نجد نصاً آخر عن علي «عليه السلام» يقول: إن النبي «صلى الله عليه وآله» قد علم بذلك من جهة جبرئيل «عليه السلام» «فخندق على نفسه ومن معه»(٢).

ولا نستبعد أن يكون كلا الأمرين قد حصل.

وقد ذكرنا فيما سبق: أن خزاعة كانت ترتبط مع الهاشميين بحلف عقده معها عبد المطلب «رحمه الله»، وقد بقيت وفية لهذا الحلف وكانت عيبة نصح لرسول الله «صلى الله عليه وآله».

وقد أشرنا فيما سبق: إلى أنها قد دفعت ثمن هذا الوفاء غالياً فيما بعد وفاة رسول الله الأكرم «صلى الله عليه وآله»؛ فجزى الله أنصار الله، وأنصار رسوله خير جزاء وأوفاه. إنه ولي قدير، وبالإجابة حري وجدير.

---

(١) مناقب آل أبي طالب ج١ ص١٩٧ والإرشاد ص٥١ وكشف الغمة للأربلي ج١ ص٢٠٢ والبحار ج٢٠ ص٢٥١.

(٢) الخصال (باب السبعة) ج٢ ص٢٦٨ والبحار ج٢٠ ص٢٤٤ عنه.

من المشير بحفر الخندق؟!

إن السياق المذكور آنفاً يدل: على أن النبي «صلى الله عليه وآله» هو الذي بادر إلى اقتراح حفر الخندق، ثم لما اختلف المسلمون، فتكلم سلمان الفارسي «رحمه الله» بطريقة بيَّن لهم فيها وجه الحكمة في اعتماد إجراء كهذا، فأعجبهم ذلك حينئذٍ، فقبلوه واجتمعت كلمتهم عليه.

ولكن كلمات كثير من المؤرخين قد أظهرت: أن سلمان هو المشير بحفر الخندق[1] من دون أن تشير إلى أي تحفظ في ذلك.

وهذا هو ما استنتجه بعض المشركين حين فوجئوا بالخندق[2].

---

(١) راجع: وفاء الوفاء ج١ ص٣٠٠ وج ٤ ص١٢٠٦ والثقات ج١ ص٢٦٦ والتنبيه والإشراف ص٢١٦ وسيرة مغلطاي ص٥٦ والكامل في التاريخ ج٢ ص١٧٨ والوفاء ص٦٩٣ وتاريخ الخميس ج١ ص٤٨١ و ٤٧٩ والروض الأنف ج٣ ص٢٧٦ وشرح النهج للمعتزلي ج١٨ ص٣٥ وأنساب الأشراف ج١ ص٣٤٣ ومناقب آل أبي طالب ج٣ ص١٣٤ وج ١ ص١٩٨ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٢٣٤ وتاريخ اليعقوبي ج٢ ص٥٠ وفتح الباري ج٧ ص٣٠١ وعيون الأثر ج٢ ص٥٧ والبحار ج٢٠ ص٢٥١ و ٢١٨ و ١٩٧ وج ٤١ ص٨. ومجمع البيان ج٨ ص٣٤٠ ونهاية الأرب ج١٧ ص١٦٨ وتفسير القمي ج٢ ص١٧٧ وإعلام الورى (ط دار المعرفة) ص٩٩ والخرايج والجرايح ج١ ص١٥٢ والسيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٣ وبهجة المحافل ج١ ص٢٦٣ والسيرة الحلبية ج٢ ص٣١١ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥١٤ وحدائق الأنوار ج٢ ص٥١٥ والإرشاد للمفيد ص٥١ وزاد المعاد ج٢ ص١١٧ ومختصر التاريخ ص٤٣ وحبيب السير ج١ ص٣٥٩ وسعد السعود ص١٣٨.

(٢) راجع: سبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٣٠ وتفسير القمي ج٢ ص١٨٢ وبحار الأنوار ج٢٠ ص٢٢٤ والمغازي للواقدي ج٢ ص٤٧٠ ونهاية الأرب ج١٧ =

بل قال مسكويه: «فأشار سلمان على رسول الله «صلى الله عليه» لما رآه يهم بالمقام بالمدينة، ويدبر أن يتركهم حتى يردوا، ثم يحاربهم على المدينة وفي طرقها: أن يخندق. ففعل ذلك»[١].

لكن مؤرخين آخرين قد عبَّروا عن شكهم في هذا الأمر، فقال بعضهم: «استشار النبي «صلى الله عليه وآله» سلمان ـ فيما يزعمون ـ بأمر الخندق»[٢].

وقال آخرون: «فحفر الخندق. قيل: أشار به سلمان»[٣]. وفي مقابل ذلك نجد ابن إسحاق وكذا غيره ينسب حفر الخندق إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» ولا يشير إلى مشورة سلمان، لا من قريب ولا من بعيد[٤].

= ص١٧٣ وراجع: الإرشاد للمفيد ص٥٢ وكشف الغمة للأربلي ج١ ص٢٠٢ وإعلام الورى (ط دار المعرفة) ص١٠٠ وراجع: السيرة الحلبية ج٢ ص٣١٥. وتاريخ اليعقوبي ج٢ ص٥٠ والسيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٥ وراجع: تاريخ الخميس ج١ ص٤٨٤.

(١) تجارب الأمم ج١ ص١٤٩.

(٢) البدء والتاريخ ج٤ ص٢١٧ وراجع: إعلام الورى ص٩٠.

(٣) راجع: تاريخ ابن الوردي ج١ ص١٦٠ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ قسم ٢ ص٢٩ والبداية والنهاية ج٤ ص٩٥ والمختصر في أخبار البشر ج١ ص١٣٤ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٨٢ و ١٨٣ وراجع قول ابن هشام في السيرة النبوية ج٣ ص٢٣٥ وراجع: جوامع السيرة النبوية ص١٥٠.

(٤) راجع: السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢٢٦ وجوامع السيرة النبوية ص١٤٨ وعيون الأثر ج٢ ص٥٥ وتهذيب سيرة ابن هشام ص١٨٩ ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٣٩٩ عن ابن عقبة وص ٤٠٩ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٨٢ وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص٢٣٤ وشرح الأخبار ج١ ص٢٩٢.

بل إن النبي «صلى الله عليه وآله» قد كتب في رسالته الجوابية لأبي سفيان: «وأما قولك من علَّمنا الذي صنعنا من الخندق، فإن الله ألهمني ذلك»(١).

وكل ذلك يجعلنا نميل إلى أن كلام الواقدي قد جاء أكثر دقة في هذا المجال. وهو يفسر لنا السر في كلام ابن إسحاق من جهة، وكلام غيره المقابل له من جهة أخرى.

أما أولئك الذين ظهر منهم التردد في ذلك فلعلهم لم يقفوا على كلام الواقدي، ولم يتمكنوا من الجمع بين كلام ابن إسحاق وهو الحجة الثبت في السيرة، وبين كلام غيره.

وعي سلمان:

ولا نخفي هنا إعجابنا بهذا الوعي من سلمان المحمدي، حيث بادر في الوقت المناسب إلى تقديم تبرير لأولئك الناس الذين اختلفوا على رسول الله «صلى الله عليه وآله»، يتوافق مع طريقة تفكيرهم، حيث قرر لهم: أن الخندق المقترح من شأنه أن يحد من فاعلية الخيل في الحرب، ويدفع غائلتها، ويصبح الجهد الشخصي للأفراد هو الذي يقرر مصير الحرب ونتائجها.

فكان أن استجاب المسلمون لاقتراح حفر الخندق، وأعلنوا موافقتهم عليه، وتحملوا مسؤولية الخيار والاختيار، وهذا بالذات هو ما أراده الرسول الأكرم «صلى الله عليه وآله».

---

(١) الإمتاع ج١ ص٢٤٠ وخاتم النبيين ج٢ ص٩٤٢.

لو كان الخندق بإشارة سلمان:

وقد رأينا: أن عدداً من المؤرخين قد زعم أن الخندق حفر بإشارة سلمان، وإن كنا نرجح: أن النبي «صلى الله عليه وآله» هو الذي بادر إلى اقتراحه فاختلف المسلمون، فكان دور سلمان أن بيَّن لهم وجه الحكمة في ذلك، حسبما تقدم بيانه عن الواقدي..

ومهما يكن من أمر فقد ظهر: أن المشركين قد فوجئوا بالخندق وقالوا عنه: إن هذه المكيدة ما كانت العرب تكيدها[١]، ولعل الأنظار قد اتجهت إلى سلمان الفارسي منذئذ.

وسواء أكان ذلك بمشورة سلمان أم لم يكن فإن ما نريد أن نؤكد عليه هو أن الإسلام لا يمنع من الاستفادة من تجارب الآخرين ومن خبراتهم في المجالات الحياتية البناءة، فقد روي: أن «الحكمة ضالة المؤمن، فاطلبوها ولو عند المشرك تكونوا أحق بها وأهلها» وفي معناه غيره[٢].

نعم.. إن المؤمن أحق بالحكمة من غيره، ما دام أن ذلك الغير قد يستفيد منها لتقوية انحرافه، وتأكيد موقعه المناوئ للحق وللأصالة والفطرة.

وقد رأينا: أن النبي «صلى الله عليه وآله» قد أطلق الصناع وأصحاب

---

(١) راجع: سبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٣٠.

(٢) أمالي الشيخ الطوسي ج٢ ص٢٣٨ وتحف العقول ص١٣٨ و ٢٩٢ وغرر الحكم ج١ ص٣٩٤ والبحار ج٧٥ ص٣٤ و ٣٨ و ٣٠٧ وج ٢ ص١٧ و ٩٦ و ٩٧ ومواضع أخرى منه. وراجع: دستور معالم الحكم ص١٩ والمجروحون ج١ ص١٠٥ والتراتيب الإدارية ج٢ ص٣٤٨.

الحرف في خيبر لينتفع بهم المسلمون[1].

وأمر النبي «صلى الله عليه وآله» المشركين في بدر، الذين لا يجدون ما يفتدون به: أن يعلم الواحد منهم عشرة من أطفال المسلمين القراءة والكتابة، ويطلق سراحهم في مقابل ذلك[2].

ولكن هذه الاستفادة مشروطة: بأن لا تنشأ عنها سلبيات أخرى كما لو كان ذلك يعطي لأولئك المنحرفين فرصة لتضليل الناس وجرهم إلى مهالك الانحراف، أو يعطيهم بعض النفوذ والهيمنة أو يجرئهم على التدخل في الشؤون الخاصة بالمسلمين، وما إلى ذلك.

وهكذا، فإنه يصبح واضحاً: أن المرفوض إسلامياً هو التبعية للآخرين والانبهار الغبي بهم، وتقليدهم على غير بصيرة. وأما الاستفادة الواعية من منجزاتهم الحيوية لبناء الحياة، والتغلب على مصاعبها، بصورة تنسجم مع أحكام الشرع، ومن دون أن تنشأ عنه سلبيات خطيرة، فذلك أمر مطلوب، ولا غضاضة فيه.

وحتى لو كان الخندق بإشارة سلمان من الأساس، وكان سلمان قد

---

(١) راجع: التراتيب الإدارية ج٢ ص٧٥ وستأتي إن شاء الله بقية المصادر في غزوة خيبر.

(٢) مسند أحمد بن حنبل ج١ ص٢٤٧ وتاريخ الخميس ج١ ص٣٩٥ والسيرة الحلبية ج٢ ص١٩٣ والروض الأنف ج٣ ص٨٤ والطبقات الكبرى ج٢ ق١ ص١٤ والتراتيب الإدارية ج٢ ص٣٤٨ وج ١ ص٤٨ و ٤٩ عن السهيلي، وعن المطالع النصرية في الأصول الخطية، لأبي الوفا نصر الهوريني، وعن الإمتاع للمقريزي ص١٠١.

استفاد ذلك من بيئته وقومه، الذين ما كانوا على طريقة الإسلام ولا على دين الحنيفية، فلا ضير ولا غضاضة في قبول مشورته. بل الغضاضة في ترك العمل بتلك المشورة إذا كانت موافقة للصواب ويتسبب الإعراض عنها بوقوع المسلمين في مأزق، وهم في غنى عنه ولا مبرر للوقوع فيه. مع وجود مخرج ليس في العمل به حرج ولا تنشأ عنه أية سلبيات يرغب عنها.

طريقة استشارته ﷺ أصحابه:

هذا، ولا نرى أننا بحاجة إلى التذكير بمبررات مشاورة النبي «صلى الله عليه وآله» أصحابه، في أمر الحرب، فقد تحدثنا عن ذلك، وعن أسبابه وآثاره الإيجابية في أوائل غزوة أحد.

غير أننا نشير هنا: إلى أننا نلمح في طريقة مشاورة النبي «صلى الله عليه وآله» لأصحابه خصوصيتين رائعتين تجلتا لنا في النص الذي ذكره الواقدي.

إحداهما: أنه «صلى الله عليه وآله» هو الذي بادر إلى اقتراح حفر الخندق ثم انتظر مبادرة سلمان الإقناعية، متعمداً أن تسير الأمور بهذه الطريقة، سياسة منه «صلى الله عليه وآله» لأصحابه، وترويضاً لعقولهم، وإعداداً لهم ليبادروا إلى تحمل المسؤولية، ولغير ذلك من أمور.

الثانية: أنه «صلى الله عليه وآله» في نفس الوقت الذي يمارس فيه أسلوب المشاورة بهدف تحسيس أصحابه بالمسؤولية وإفهامهم ـ عملاً، لا قولاً فقط ـ أنهم الجزء الحركي والفاعل والمؤثر حتى على مستوى التخطيط، والقرارات المصيرية، وأن القضية قضيتهم، بما يعنيه ذلك كله من ارتفاع ملموس في مستوى وعيهم وتفكيرهم السياسي، والعسكري، وغير ذلك من أمور كانت

محط نظره «صلى الله عليه وآله»،

نعم.. إنه في هذا الحين بالذات يطرح أمامهم خيارات من شأنها أن تخرجهم من حالة الضيق والحرج، وتفتح أمامهم نوافذ جديدة على آفاق رحبة من التدبير العسكري، الذي يحفظ لهم وجودهم، ويبعد عنهم شبح الهزيمة المرة، أو التعرض لحرب تحمل معها أخطار القتل الذريع، دون أن يجدوا في مقابل ذلك أياً من تباشير النصر، أو التفاؤل به.

الخندق في إيجابياته الظاهرة:

قد تحدثنا في غزوة أحد في الفصل الأول منها، في فقرة: ما هو رأي النبي «صلى الله عليه وآله» في أحد، ما يفيد الاطلاع عليه في فهم إيجابيات البقاء في المدينة، والتمنع فيها، فيرجى مراجعة ما ذكرناه هناك.

أما هنا، فنقول: إنه لم يطل الأمر بالمسلمين، حيث إنهم سرعان ما أدركوا: أن حفر الخندق هو ذلك التدبير الذكي الرائع الذي فوَّت على عدوهم ما كان يحلم به من منازلتهم ومكافحتهم إلى درجة إلحاق الهزيمة بهم ثم استئصالهم وإبادة خضرائهم، وتقويض عزهم.

وقد أعطى الخندق المسلمين القدرة على ممارسة التسويف في الوقت، وهو الأمر الذي لم يكن المشركون قادرين على تحمل التسويف فيه إلى أجل غير مسمى.

وقد رأى المسلمون بأم أعينهم:

١ ـ كيف أن عدوهم لم يستطع الصبر طويلاً، بسبب بعده عن مصادر الإمداد البشري والتمويني، مع ملاحظة محدودية طاقاتهم التموينية، لعدم

إمكان توفير مدخرات كافية لهذا العدد الهائل من الناس، ولكل ما معهم من خيل وظهر كانوا بحاجة إليه في حربهم. فإن منطقة الحجاز لم تكن قادرة ـ بحكم طبيعة حياة الناس فيها ـ على توفير هذا النوع من القدرات والإمكانات بهذا المستوى الكبير والحجم الهائل ـ ولا أقل من أن المشركين لم يفكروا مسبقاً بإيجاد خطوط تموين لحرب طويلة الأمد، ولا خططوا أبداً لمثل هذه الحرب، كما أنهم لم يعتادوا حروباً كهذه ولا ألفوها، فمن الطبيعي ـ والحالة هذه ـ أن يملوا حرباً كهذه، وينصرفوا عنها.

٢ ـ إن هذا الخندق قد استطاع أن يحفظ لهم وجودهم وكرامتهم، فلم يسجل عليهم عدوهم نصراً وقد كبت الله به عدوهم وردهم بغيظهم لم ينالوا شيئاً مما كانوا يحلمون به، دون أن يكلف ذلك المسلمين خسائر تذكر، وحرم المشركين بذلك من إمكانية إشراك أعداد ضخمة في المواجهات مع المسلمين.

٣ ـ ثم وجد المسلمون أنفسهم بعد ذلك أمام فرص أكبر، وحظ أوفر من ذي قبل، واستمروا يواصلون جهدهم وجهادهم للحصول على المزيد من أسباب القوة، والمنعة، والعمل على إضعاف عدوهم وتقويض هذا التوافق فيما بين فئاته لصالح بقاء هذا الدين، وترسيخ دعائمه وأركانه.

٤ ـ إنه «صلى الله عليه وآله» قد جمع بين أن خندق على المدينة وبين جعل جبل سلع خلف ظهر المسلمين ـ كما سنرى ـ فيكون بذلك قد استفاد من الموانع الطبيعية، ثم أحدث مانعاً مصطنعاً من الجهة الأخرى، لتكتمل خطته بحرمان العدو من أية فرصة للنيل من صمود المسلمين، أو إحداث أي إرباك، أو تشويش، أو خلخلة، أو مناطق نفوذ وتسلل في صفوفهم.

وأخيراً: نجد نصاً عن سلمان الفارسي يصرح فيه بالمبررات لحفر الخندق، فهو يقول: «يا رسول الله، إن القليل لا يقاوم الكثير في المطاولة.

قال: فما نصنع؟

قال: نحفر خندقاً يكون بيننا وبينهم حجاباً، فيمكنك منعهم في المطاولة. ولا يمكنهم أن يأتونا من كل وجه. فإنّا كنا معاشر العجم في بلاد فارس إذا دهمنا دهم من عدونا نحفر الخنادق، فيكون الحرب من مواضع معروفة.

فنزل جبرئيل «عليه السلام» على رسول الله «صلى الله عليه وآله» فقال: أشار سلمان بصواب»[1].

بين الأصالة والتجديد:

وآخر ما نقوله هنا: أن حفر الخندق قد أفهم المسلمين: أنه ليس من الضروري أن يبقى الإنسان أسير الأفكار والعادات والأساليب المتداولة في المحيط الذي يعيش فيه، فإذا كان باستطاعته أن يبتكر أساليب، ويحدث وسائل جديدة، تمكنه من تحقيق أهدافه على النحو الأفضل والأمثل، فعليه أن يبادر إلى ذلك، ويكسر حاجز الإستغراب والإستهجان والرهبة، ويتحرر من عقدة الحفاظ على القديم، أو على العادة والتراث لمجرد أنه قديم وتراث، ومن موقع الجمود، والخواء والتقوقع.

أما إذا كان هذا القديم يمثل الأصالة، والعمق والانتماء، ويعيد للإنسان هويته الحقيقية، ويحول بينه وبين التخلي عن خصائصه الإنسانية

---

(١) تفسير القمي ج٢ ص١٧٧ والبحار ج٢٠ ص٢١٨.

الأصيلة، فذلك القديم يكون هو الجديد النافع، في مقابل كل ما هو غريب، أو يجر الإنسان إلى غربة حقيقية، تبعده عن واقعه وتجرده من خصائصه الإنسانية الأصيلة، ليعيش في الظلام والضياع حيث الشقاء والبلاء، وحيث الوحشة والوحدة والغربة، بكل ما لهذه الكلمات من معنى؛ فالتجديد الإيجابي البناء هو الأصالة ذاتها.

أما التجديد الذي يفقد الإنسان أصالته، فهو الذي يمثل العودة إلى الوراء، وهو حقيقة التغرب والإنحطاط، والسقوط والتراجع. وهو بالتالي الكارثة الحقيقية والمدمرة له إن في الحاضر أو في المستقبل.

أضف إلى ما تقدم: أن التعارف فيما بين الشعوب المختلفة حين ينتهي إلى توظيف حصيلة تجاربها الحياتية لاستكمال سماتها الأصيلة للحياة بكل امتداداتها وعلى مختلف المساحات في الآفاق الرحبة، فإن هذا التعارف يصبح ضرورة لا بد منها ولا غنى عنها لأية أمة تريد لنفسها الخير والسعادة والفلاح. وتريد كذلك أن تستثمر ذلك كله في خط التقوى والعمل الصالح. وفي صراط حصحصة الحق ليكون هو الملاذ، والرجاء، في كل شدة ورخاء.

وقد قال تعالى: ﴿**..وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ..**﴾[1].

أين كان الخندق وما هي مواصفاته؟!

قد تقدم: أن النبي «صلى الله عليه وآله» قد ركب فرساً وخط لهم الخندق

---

(١) الآية ١٣ من سورة الحجرات.

وقد بينت النصوص التاريخية لنا مواضع الخندق وخصوصياته ومواصفاته بشيء من التفصيل، ونحن نذكر طائفة من هذه النصوص فنقول:

١ـ موضع الخندق:

قال الواقدي: «كان الخندق ما بين جبل بني عبيد بخربى، إلى راتج. قال: وهذا أثبت الأحاديث عندنا»[١].

وفي نص آخر: «من المذاد، إلى ذباب، إلى راتج»[٢].

وعند القمي: «فأمر «صلى الله عليه وآله» بمسحه من ناحية أحد إلى راتج»[٣].

وفي نص أكثر تفصيلاً: «حفر النبي «صلى الله عليه وآله» الخندق طولاً، من أعلى وادي بطحان، غربي الوادي، مع الحرة، إلى غربي مصلى العيد، ثم إلى مسجد الفتح، ثم إلى الجبلين الصغيرين، اللذين في غربي الوادي. ومأخذه قول ابن النجار».

إلى أن قال: «والحاصل: أن الخندق كان شامي المدينة، من طرف الحرة

---

(١) المغازي للواقدي ج٢ ص٤٥٠ ـ ٤٥٢ وراجع: السيرة الحلبية ج٢ ص٣١٢.

(٢) راجع: سبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥١٥ والمغازي للواقدي ج٢ ص٤٤٥ والثقات ج١ ص٢٦٦.

(٣) تفسير القمي ج٢ ص١٧٧ وبحار الأنوار ج٢٠ ص٢١٨ وقال الطبرسي في مجمع البيان ج٨ ص٣٤٢ وعنه في بحار الأنوار ج٢٠ ص٢٠٣ «كان اسم الموضع الذي حفر فيه الخندق: المذاد».

الشرقية، إلى طرف الغربية»[١].

وروي بسند معتبر، عن عمرو بن عوف قال: «خط رسول الله «صلى الله عليه وآله» الخندق عام الأحزاب من أجم الشيخين (السمر) طرف بني حارثة، حتى بلغ المذاد (المداحج)»[٢].

والمذاد بطرف منازل بني سلمة، مما يلي مسجد الفتح، ومنازلهم في جهة الحرة الغربية[٣].

قال السمهودي: «سيأتي أن الشيخين أطمان شامي المدينة بالحرة الشرقية، أما المداحج فلا ذكر لها في بقاع المدينة»[٤].

وأقول: لعل كلمة «المداحج» تصحيف لكلمة «المذاد»، ولعل كلمة: «السمر»، تصحيف لكلمة «الشيخين».

٢ـ جعل الأبواب للخندق:

«وذكروا: أن الخندق له أبواب، فلسنا ندري أين موضعها»[٥].

---

(١) وفاء الوفاء ج٤ ص١٢٠٤ والفقرة الأخيرة ص١٢٠٦ أيضاً وتاريخ الخميس ج١ ص٤٨١ والعبارة الأخيرة في السيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٣.

(٢) راجع: تاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٢٣٥ ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٤١٨ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥١٥.

(٣) وفاء الوفاء ج٤ ص١٢٠٥.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المغازي للواقدي ج٢ ص٤٥٢ وراجع: السيرة الحلبية ج٢ ص٣١٢ وتاريخ اليعقوبي ج٢ ص٥٠.

وحسب نص آخر: «جعل له رسول الله «صلى الله عليه وآله» أبواباً، وجعل على الأبواب حرساً»(١).

ولكن كعب بن مالك قد أشار إلى وجود خندقين، فهو يقول:

بباب خندقين كأن أسداً ... شوابكهن يحمين العرينا(٢)

ويقول ضرار بن الخطاب:

كأنهم إذا صالوا وصلنا ... بباب خندقين مصافحونا(٣)

وقال الفرزدق:

بدر له شاهد والشعب من أحد ... والخندقان ويوم الفتح قد علموا(٤)

وذكر القمي: أن عدد الأبواب كان ثمانية(٥).

٣ـ خصوصيات ومواصفات أخرى:

«والخندق فيه قناة، يأتي من عين قباء إلى النخل الذي بالسنح، حوالي مسجد الفتح.

وفي الخندق نخل أيضاً. وانطمَّ أكثره، وتهدمت حيطانه»(٦).

---

(١) المصادر السابقة، وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥١٥.

(٢) سبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٥٤ والسيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢٦٧ ووفاء الوفاء ج٤ ص١٢٠٦.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢٦٦.

(٤) مناقب آل أبي طالب ج٤ ص١٧٤.

(٥) تفسير القمي ج٢ ص١٧٩ وعنه في بحار الأنوار ج٢٠ ص٢٢٠.

(٦) وفاء الوفاء ج٤ ص١٢٠٤ وتاريخ الخميس ج١ ص٤٨١.

وذكروا أيضاً: أنه قد «بلغ طول الخندق نحواً من خمس آلاف ذراع وعرضه تسعة أذرع، وعمقه سبعة أذرع»[1].

الموقع الجغرافي للخندق:

ونحن إذا راجعنا الواقع الجغرافي للمدينة، فإنه يتضح: أن الخندق قد ضرب على المدينة في مواقع من الجهة الغربية والشمالية أما الجهة الشرقية والجنوبية فقد شبكت بالبنيان، ولم يخندق المسلمون عليها.

ولعل ذلك يرجع إلى أن المواقع التي تستوعب ألوف الفرسان، وتصلح أن تكون ساحة حرب ونزال هي المنطقة الواقعة بالقرب من ثنيات الوداع شمال غرب المدينة حتى تنتهي بجبل أحد. وهي منطقة واسعة ومسطحة ومكشوفة، وليست فيها عراقيل مهمة، وهي المنطقة التي حفر الخندق فيها.

أما سائر المناطق حول المدينة فلم تكن تصح لذلك، ولا سيما بالنسبة لجيوش كبيرة تعد بالألوف، من فرسان ورجالة، بالإضافة إلى ما يتبع هذه الجيوش من دواب وخيول تحمل أزوادهم وأمتعتهم، وتحمل الرجالة منهم أيضاً في سفرهم الطويل.

ذلك لأن سائر المناطق حول المدينة كان فيها من الجبال والأودية، ومن التضاريس والأشجار والحجارة ما يحد من قدرة تلك الجيوش الغازية على الحركة الفاعلة، والمؤثرة، ويفقدها الكثير من الامتيازات الحربية، ويحرمها من الاحتفاظ بزمام المبادرة، ويفوِّت عليها نصراً تطمع إلى تحقيقه.

---

(١) الرسول العربي وفن الحرب لمصطفى طلاس ص٢٤٠ و ٢٤١ والسيرة النبوية للندوي ص٢٨١.

ويوضح ذلك: أنه كانت توجد في الجهة الشرقية حرة واقم وفي الجهة الغربية حرة الوبرة، وهي مناطق وعرة فيها صخور بركانية وتمثل حواجز طبيعية، وكان في جهة الجنوب أشجار النخيل وغيرها بالإضافة إلى الأبنية المتشابكة، وكل ذلك لا يتيح لجيش المشركين أن يقوم بنشاط فاعل وقوي ضد المسلمين.

وحيث إن بعض المواضع في جهتي الشرق والجنوب كان يمثل النقطة الأضعف من غيرها، الأمر الذي يحمل معه احتمالات حدوث تسلل تكتيكي للعدو، يهدف إلى إرباك الوضع العسكري والنفسي للمسلمين، فقد كان لا بد من سد تلك الثغرة، ورفع النقص، وتفويت الفرصة على العدو، حتى لا يضطر المسلمون لتوزيع قواهم وبعثرتها هنا وهناك بطريقة عشوائية، أو من شأنها أن تضعف فيهم درجة الصمود والتصدي في ساحة الصراع الحاسم في ميدان الكر والفر الأول والأساس.

فكان أن بادر المسلمون إلى تشبيك المدينة بالبنيان وذلك في مواقع الضعف المشار إليها. وهذه الإجراءات كلها قد حالت دون استخدام قوات كبيرة في مهاجمة المدينة إلا من جهة الخندق، وهي قد أصبحت مشلولة بسبب حفر الخندق تجاه العدو فيها.

غير أن هذا الذي ذكرناه: لا يعني أن يمر القادم من مكة على ثنية الوداع، وهي الجهة الشمالية للمدينة. فإن طريق المسافرين، الذين تضمهم في الغالب قوافل صغيرة محدودة العدد، ليس كطريق الجيوش الضخمة التي تضم ألوفاً كثيرة من الناس ومن وسائل النقل المختلفة، حسبما ألمحنا إليه.

وبذلك يتضح: أن من الممكن أن نتفهم أنه لا مانع من أن تأتي الجيوش إلى جهة ثنية الوداع من جهة الشام، ولكن المسافرين يأتون من طريق آخر. ولا يمر القادم من مكة على ثنية الوداع ولا يراها، كما جاء في النص التاريخي[١].

يقول مصطفى طلاس: «وبحفر الخندق استطاعت قيادة الجيش الإسلامي أن تعزل قوات العدو عن مكان التجمع الرئيسي للقوات المدافعة عن المدينة، وأن تحول بينها وبين اقتحام مداخل المدينة، لأن هذه المداخل أصبح من الممكن حراستها بعد حفر الخندق.

وقد أفادت قوات الثورة الإسلامية من مناعة جبل سلع، الذي كان إلى يسارها وإلى الخلف، كما أفادت من وعورة حرة الوبرة لحماية جناحها الأيسر، ومن وعورة حرة واقم لحماية جناحها الأيمن، ومن الحرة الجنوبية وجبل عسير لحماية المؤخرة»[٢].

تشبيك المدينة بالبنيان:

وكان سائر المدينة مشبكاً بالبنيان، شبكوها من كل ناحية، وهي كالحصن[٣].

قال في خلاصة الوفاء: «كان أحد جانبي المدينة عورة، وسائر جوانبها

---

(١) راجع: وفاء الوفاء ج٤ ص١١٧٢ و١١٧٠ وزاد المعاد ج٣ ص١٠ والتراتيب الإدارية ج٢ ص١٣٠.

(٢) مصطفى طلاس: الرسول العربي وفن الحرب ص٢٣٤.

(٣) راجع: السيرة الحلبية ج٢ ص٣١٥ ومغازي الواقدي ج٢ ص٤٥٠ وراجع ص٤٤٦ ووفاء الوفاء ج٤ ص١٢٠٥ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٢٤.

مشبكة بالبنيان والنخيل، لا يتمكن العدو منها»[1].

ثم إنه «صلى الله عليه وآله»: «اختار ذلك الجانب المكشوف للخندق، وجعل معسكره تحت جبل سلع»[2].

وبذلك يكون «صلى الله عليه وآله»: قد سد الثغرات التي يمكن للعدو أن يتسلل منها ليحدث إرباكاً خطيراً في معسكر المسلمين.

ثم جعل للخندق أبواباً، وجعل على الأبواب حرساً، بطريقة تمنع من التسلل، ومن التواطؤ عليه كما سنرى.

ثم اختار الجانب المكشوف للخندق، وجعل معسكره تحت جبل سلع، مستفيداً منه كمانع طبيعي يصعب على العدو اجتيازه لمهاجمة المسلمين.

مدة حفر الخندق:

وقال المؤرخون: «وجعل المسلمون يعملون مستعجلين، يبادرون قدوم العدو عليهم»[3].

الأقوال في مدة حفر الخندق وهي التالية:

---

(١) تاريخ الخميس ج١ ص٤٨١ وراجع: السيرة الحلبية ج٢ ص٣١٥ ووفاء الوفاء ج٤ ص١٢٠٦.

(٢) تاريخ الخميس ج١ ص٤٨١ والسيرة الحلبية ج٢ ص٣١٥.

(٣) السيرة الحلبية ج٢ ص٤١١. والمغازي للواقدي ج٢ ص٤٤٥ وراجع: الكامل في التاريخ ج٢ ص١٧٨. وراجع البدء والتاريخ ج٤ ص٢١٧. وفتح الباري ج٢ ص٣٠٢.

كان حفر الخندق: ستة أيام وحصنه[١].

وقيل: بضع عشر ليلة[٢].

وقيل: شهراً أو قريباً من شهر.

قال البعض: وهو أثبت[٣].

ووقع عند موسى بن عقبة: أنهم أقاموا في عمل الخندق قريباً من عشرين ليلة[٤].

وعند الواقدي: أربعاً وعشرين[٥].

وجزم النووي في الروضة: أنهم حفروه في خمسة عشر يوماً[٦].

وصرح القمي: بأنه «صلى الله عليه وآله» قد فرغ من حفر الخندق قبل

---

(١) المغازي للواقدي ج٢ ص٤٥٤ وسيرة مغلطاي ص٥٦ والوفا ص٦٩٣ وتاريخ الخميس ج١ ص٤٨٢ وحبيب السير ج١ ص٣٦٠ والسيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٤ وإمتاع الأسماع ج١ ص٢٢٤ ونهاية الأرب ج١٧ ص١٧٠ وعيون الأثر ج٢ ص٥٧ ووفاء الوفاء ج٤ ص١٢٠٤ و ١٢٠٨ و ١٢٠٩ و ١٢٠٥.

(٢) السيرة الحلبية ج٢ ص٣١٤ وعيون الأثر ج٢ ص٥٧ ووفاء الوفاء ج٤ ص١٢٠٩.

(٣) المصدر السابق ووفاء الوفاء ج٤ ص١٢٠٩ عن الهدى لابن القيم وكذا في المواهب اللدنية ج١ ص١١١ وفتح الباري ج٧ ص٣٠٢.

(٤) المواهب اللدنية ج١ ص١١٢ وتاريخ الخميس ج١ ص٤٨٢ وعنه والسيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٤ وراجع: السيرة الحلبية ج٢ ص٣١٤ ووفاء الوفاء ج٤ ص١٢٠٨ راجع فتح الباري ج٧ ص٣٢.

(٥) المصادر السابقة وعيون الأثر ج٢ ص٥٧ ووفاء الوفاء ج١ ص١٢٠٨ و ١٢٠٩.

(٦) راجع: المصادر السابقة في الهامش ما قبل السابق.

قدوم قريش والأحزاب بثلاثة أيام[1].

ونقول:

إن الأرقام التي تقول: إنهم أقاموا يعملون في الخندق عشرين يوماً أو شهراً أو نحو ذلك، يبدو أنها بعيدة عن الصواب، لأن المفروض أن ركب خزاعة قد خرج إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» بعد أن فصلت قريش من مكة إلى المدينة، وبقي أربعاً حتى وصل إليها، وأبلغ الرسول بالأمر..

ولنفترض: أن مسير قريش إلى المدينة قد استغرق أربع أضعاف الأربعة أيام المذكورة، فتكون قد وصلت إلى المدينة خلال ستة عشر يوماً فمع حذف الأربعة أيام الأولى لمسيرة ركب خزاعة فإنه يبقى اثنا عشر يوماً تم حفر الخندق فيها، فكيف يقال: إن العمل في الخندق قد استمر عشرين أو أربعاً وعشرين أو ثلاثين يوماً؟!

هذا.. ولكن يمكننا أن نخفي دهشتنا وإعجابنا بهذا الإنجاز الضخم والسريع جداً، مع ملاحظة ضعف الوسائل والإمكانات المتوفرة للعاملين في حفر الخندق آنئذٍ، بالإضافة إلى وجود المثبطين عن العمل، كما سنرى.

فحيا الله هذه الهمم، وبورك لهم جهادهم المبارك والرائد تحت قيادة وفي طاعة رسول الإسلام الأعظم والأكرم «صلى الله عليه وآله».

زمام المبادرة بيد من؟!

وقد اتضح من خلال النصوص المتوفرة لدينا: أن العدو وإن كان قد فرض

---

(١) تفسير القمي ج٢ ص١٧٩ والبحار ج٢٠ ص٢٢١.

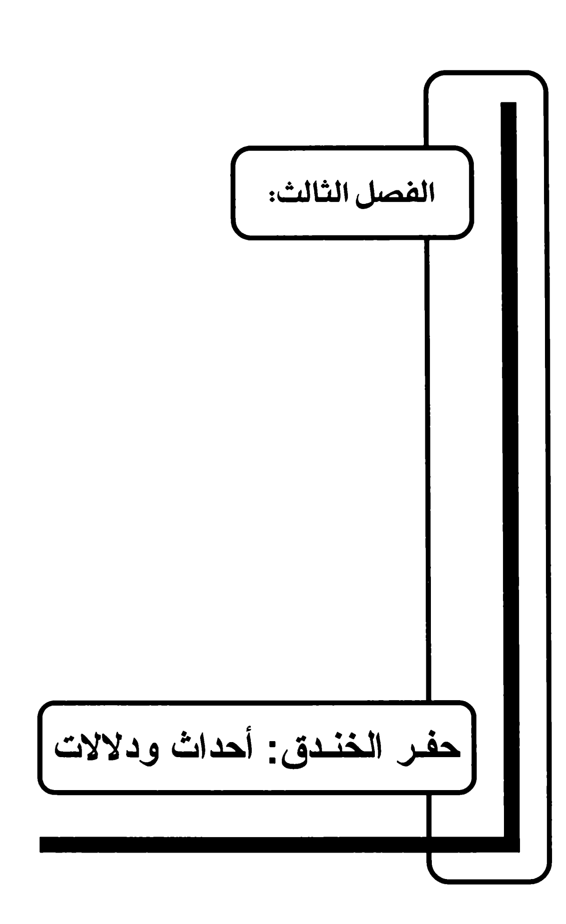
على النبي وعلى المسلمين معركة غير متكافئة من حيث العدد والعدة، واختار هو التوقيت لحشد جيوشه وتحزيب أحزابه.

ولكنه بمجرد وصوله إلى المدينة: فقد زمام المبادرة ليصبح في يد النبي والمسلمين بصورة نهائية. فأصبح «صلى الله عليه وآله» يتحكم بمسار الحرب، وهو يفرض على عدوه الموقع الذي يريد، في هذا المكان أو في ذاك، ولا يملك عدوه أية وسيلة للتغيير في المواقع والمواضع فلا يمكنه أن يجر المسلمين إلى هذا الموقع أو إلى ذلك الموقع.

كما أنه «صلى الله عليه وآله» أصبح يتحكم بالزمام والتوقيت للحرب، ولا يستطيع عدوه أن يهاجمه في وقت لا يرغب هو بدخول الحرب فيه.

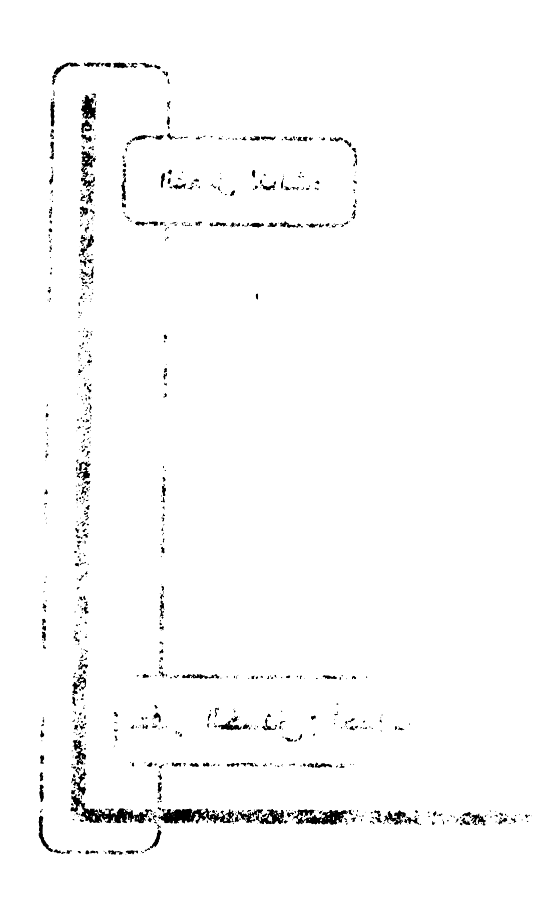
ثم إنه «صلى الله عليه وآله» قد أصبح قادراً على اختيار الوسيلة الحربية التي تلائمه، وتنسجم مع ظروفه وقد أسقط العتاد والعدة الحربية للعدو من الخيول وغيرها من الفاعلية المؤثرة وأصبحت عبئاً على العدو، لا بد أن يهيئ العدو لها ظروف بقائها وصيانتها من التلف في مصابرته على الحصار الطويل، الذي كان يستنزف طاقته وصبره، حتى انتهى الأمر به إلى هزيمة مخزية، كما سيتضح.

وهذه هي ثمرة التخطيط الواعي والمسؤول، وثمرة الإدراك الواعي للواقع وللظروف المحيطة، التي كان لا بد من التعامل معها والتغلب على سلبياتها، والاستفادة من إيجابياتها على النحو الأكمل والأفضل والأمثل.



الفصل الثالث:

حفر الخنـدق: أحداث ودلالات



شدائد ومتاعب:

إن من الواضح: أن حفر خندق بهذا الحجم حول مدينة كبيرة، ليس بالأمر السهل، ولا سيما بالنسبة لأناس لم يقوموا بعمل ضخم طيلة حياتهم، خصوصاً مع بدائية الوسائل ومحدوديتها، حتى اضطروا لاستعارة بعضها من يهود قريظة، كما سنرى. هذا بالإضافة إلى انقطاع المسلمين عن العمل في سبيل لقمة العيش، فانقطعت موارد أرزاقهم فكان من الطبيعي أن يعاني المسلمون من هذا الأمر من متاعب كبيرة، وشدائد لا تطاق، وذلك من ناحيتين:

إحداهما: في نفس هذا العمل الشاق والكبير، وما يحتاج لإنجازه في فرصة محدودة وقصيرة جداً، من جهد مضن لم يعتد هؤلاء الناس على أقل القليل منه، ولا واجهوا نظيره، ولو مرة واحدة طيلة حياتهم.

الثانية: في الضائقة المالية التي كانوا يعانون منها، التي تتجلى فيما يصفه لنا المؤرخون من حالة الضعف والجهد، والخصاصة والجوع في تلك الظروف بالذات..

وقد يحاول البعض أن يقول: إن هذه الضائقة لم تنل جميع الناس آنئذٍ، لأن الناس ـ كما يروى الواقدي والمقريزي ـ قد كان كثير منهم في وفرة

معقولة في تلك الفترة، لأن مجيء الأحزاب كان بعد انتهاء موسم الحصاد، وقد أدخل الناس غلاتهم وأتبانهم، ولا يزال معظمها موجوداً لدى أصحابها.

أضف إلى ذلك: أن بعض الروايات الآتية التي تحكي لنا قصة جابر تقول: إن الذين احتاجوا للإصابة من طعام جابر كانوا ثلاث مائة، أي حوالي ثلث المشاركين في حفر الخندق؛ فالباقون لم يكونوا بحاجة ماسة إلى طعام، أو لعل أكثرهم كان كذلك.

ونقول:

إن هذه المحاولة غير كافية لإثبات ذلك، إذ قد صرح المؤرخون: أن العام كان عام جدب، ولم يكن ثمة غلات في مستوى يؤثر في تغيير ظاهرة الفقر والخصاصة والجوع، التي كانت مهيمنة على عامة الناس آنئذٍ. ولو كان ثمة غلات بهذا الحجم لبادر أصحابها إلى تقديمها طوعاً إلى هؤلاء الناس. بل كان النبي «صلى الله عليه وآله» يأمرهم ببذلها لإخوانهم، ولا سيما في ظروف الحرب هذه.

ولكنا قد رأيناهم: يتسابقون إلى دفع أذى الجوع عن شخص النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله»، ويتسابقون إلى نيل بركاته والفوز برضاه.

إلا أن ذلك: لا يمنع من أن يكون لدى المنافقين قسط من تلك الأموال، كانوا يضنون بها ويبخلون عن بذلها ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه.

حفر الخندق في روايات المؤرخين:

ونحن نذكر هنا: طائفة من النصوص التاريخية المرتبطة بحفر الخندق،

متوخين فيها ـ قدر الإمكان ـ تبويبها وتقسيمها، حسبما يتهيأ لنا، ثم نعقب ذلك ببعض ما يرتبط بها أجمل منها أو أشكل، ومن الله نستمد القوة والحول فنقول:

المساحي والمكاتل:

ويقولون: إنه «صلى الله عليه وآله» قد استعار من بني قريظة آلة كثيرة، من مساحٍ وفؤوس ومكاتل، يحفرون بها الخندق، وهم يومئذٍ سلم للنبي «صلى الله عليه وآله» ويكرهون قدوم قريش(١).

ونقول:

لا ندري مدى صحة هذا القول، بعد أن كان رسول الله ـ حسبما تقدم، حين الكلام حول إيمان أبي طالب ـ يدعو الله أن لا يجعل لكافر ولا لمشرك عنده يداً أو نعمة إلا أن يكون «صلى الله عليه وآله» قد قرر عليهم المعونة بهذا المقدار، إن دهمهم عدو، حسبما تقدم في معاهدته «صلى الله عليه وآله» مع يهود المدينة. فلا تبقى لهم بذلك منة على أحد، بل لله المنة عليهم، وإنما يعملون بما أخذ عليهم العمل به.

تقسيم العمل في الخندق:

قال الواقدي: «وكل بكل جانب من الخندق قوماً يحفرونه فكان المهاجرون يحفرون من جانب راتج إلى ذباب، وكانت الأنصار تحفر من

---

(١) راجع: المغازي للواقدي ج٢ ص٤٤٥ وتاريخ الخميس ج١ ص٤٨١ والسيرة الحلبية ج٢ ص٣١١ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥١٥ والإمتاع ج١ ص٢٢٠ وراجع وفاء الوفاء ج٤ ص١٢٠٧.

ذباب إلى جبل بني عبيد».

وفي نص آخر: إلى خربي[1].

وفي نص آخر: وخندقت بنو عبد الأشهل عليها بما يلي راتج إلى خلفها، حتى جاء الخندق من وراء المسجد، وخندقت بنو دينار من عند خربي إلى موضع دار ابن أبي الجنوب اليوم[2].

ومن جهة أخرى: فإنه «صلى الله عليه وآله» قطع الخندق أربعين ذراعاً بين كل عشرة[3].

وقال القمي: «جُعِلَ على كل عشرين خطوة، وثلاثين خطوة قوم من المهاجرين والأنصار يحفرونه»[4].

وفي نص آخر يقول: «وجعل لكل قبيلة حداً يحفرون إليه»[5].

---

(١) المغازي للواقدي ج٢ ص٤٤٦ و ٤٥٠ وراجع: إمتاع الأسماع ج١ ص٢٢٠ وحدائق الأنوار ج٢ ص٥٨٥ وراجع: السيرة الحلبية ج٢ ص٣١٣ ووفاء الوفاء ج٤ ص١٢٠٥.

(٢) راجع: المغازي للواقدي ج٢ ص٤٥٠ و ٤٥١ ووفاء الوفاء ج٤ ص١٢٠٥.

(٣) راجع: تاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٢٣٥ والبحار ج٢٠ ص١٨٩ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٢١٥ ومجمع البيان ج٢ ص٤٢٧ و ٣٤١ وبهجة المحافل ج١ ص٢٦٣ وشرحه مطبوع بهامشه، وقال: رواه الطبري والطبراني، والحاكم، وتاريخ الخميس ج١ ص٤٨١ والكامل في التاريخ ج٢ ص١٧٩ والخرائج والجرائح ج١ ص١٥٢ ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٤١٨ وفتح الباري ج٧ ص٣٠٥ ووفاء الوفاء ج٤ ص١٢٠٥ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٩٢.

(٤) تفسير القمي ج٢ ص١٧٧ وعنه في بحار الأنوار ج٢٠ ص٢١٨.

(٥) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٥٠.

لكن القطب الراوندي يقول: «قسمه بين المهاجرين والأنصار بالذراع فجعل لكل عشرة منهم عشرة أذرع»[1].

النبي ﷺ يشارك في حفر الخندق:

وقد شارك النبي «صلى الله عليه وآله» المسلمين في حفر الخندق كما صرحت به النصوص التاريخة، وذلك رغبة في الأجر ولينشط المسلمين[2].

وقد أجهد المسلمون أنفسهم، والنبي «صلى الله عليه وآله» يكابد معهم[3] النصب والجوع وقد استمرت هذه المشاركة حتى فرغ من حفر الخندق[4].

وكان «صلى الله عليه وآله» يضرب مرة بالمعول، ومرة يغرف بالمسحاة التراب، ومرة يحمل التراب بالمكتل، قال أبو واقد: ولقد رأيته يوماً بلغ منه، فجلس، ثم اتكأ على حجر على شقه الأيسر، فذهب به النوم، فرأيت أبا بكر

---

(١) الخرائج والجرائح ج١ ص١٥٢ والبحار ج١٨ ص٣٢ عنه.

(٢) راجع ما يلي: المغازي للواقدي ج٢ ص٤٤٥ وتهذيب سيرة ابن هشام ص١٨٩ والسيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢٢٦. وراجع: البداية والنهاية ج٤ ص٩٥ وإمتاع الأسماع ج١ ص٢٢٠ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٢٣٤ ونهاية الأرب ج١٧ ص١٦٨ وعيون الأثر ج٢ ص٥٥ و٥٧ ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٣٩٩ و٤٠٩ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٨٣ ووفاء الوفاء ج٤ ص١٤٠٧ والإكتفاء ج٢ ص١٥٩ وفتح الباري ج٧ ص٣٠١.

(٣) بهجة المحافل ج١ ص٢٦٣ وحدائق الأنوار ج٢ ص٥٨٥.

(٤) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٥٠.

وعمر واقفين على رأسه ينحيان الناس أن يمروا به فينبهوه، وأنا قريب منه، ففزع، ووثب فقال: إلا أفزعتموني؟!

فأخذ الكرزن (الفأس) يضرب به، وإنه ليقول:

اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

اللهم العن عضلاً والقاره فهم كلفوني أنقل الحجارة[1]

وكان «صلى الله عليه وآله» يحمل التراب على ظهره، أو على عاتقه[2] حتى إن التراب على ظهره وعكنه[3] وربما كان يحفر معهم حتى يعيا، ثم يجلس حتى يستريح.

وجعل أصحابه يقولون: يا رسول الله، نحن نكفيك.

فيقول: أريد مشاركتكم في الأجر[4].

وعن أم سلمة بسند صحيح ـ عند أحمد ـ: «كان النبي «صلى الله عليه وآله» يعاطيهم اللَّبِن يوم الخندق، وقد اغبر شعر صدره»[5].

---

(١) المغازي للواقدي ج٢ ص٤٥٣ والسيرة الحلبية ج٢ ص٣١٢ وإمتاع الأسماع ج١ ص٢٢٥ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥١٨ وراجع المواهب اللدنية ج١ ص١١١.

(٢) راجع: حدائق الأنوار ج٢ ص٥٨٥ وإمتاع الأسماع ج١ ص٢٢١ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥١٦.

(٣) راجع: سبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥١٥ وفي المغازي للواقدي ج٢ ص٤٤٩ عن أنس: على صدره وبين عكنه. (العكن: ما انطوى وتثنى من لحم البطن).

(٤) وفاء الوفاء ج٤ ص١٢٠٧ عن تفسير الثعلبي.

(٥) فتح الباري ج٧ ص٣٠٨ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥١٦ وعن أبي يعلى وأحمد برجال الصحيح.

وفي نص آخر ذكره البخاري وغيره: «رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني التراب جلدة بطنه ـ وكان كثير الشعر ـ فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة:

والله لـولا الله مـا اهـتـدينـا ... ولا تـصـدقـنـا ولا صـلـيـنـا

فـانـزلـن سـكـيـنـة عـلـيـنـا ... وثـبـت الأقـدام إن لاقـيـنـا

إن الأُلـى قـد بـغـوا علينـا ... إذا أرادوا فـتـنـة أبـيـنـا

ثم يمد بها صوته: أبينا، أبينا»[1].

وقد سجل العسقلاني تحفظاً هنا، فهو يقول: «ظاهر هذا أنه كان كثير شعر الصدر، وليس كذلك فإن في صفته «صلى الله عليه وآله» أنه كان دقيق المسربة، أي الشعر الذي في الصدر إلى البطن. فيمكن أن يجمع أنه كان مع دقته كثيراً»[2].

---

(١) راجع المصادر التالية في: السيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٨٥ والبداية والنهاية ج٤ ص٩٦ عن الصحيحين، وصحيح البخاري ج٣ ص٢١ باب غزوة الخندق. وصحيح مسلم ـ الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب. وفتح الباري ج٦ ص٤٦ وج ٧ ص٣٠٨ وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص٢٤٥ وبهجة المحافل ج١ ص٢٦٣ والمواهب اللدنية ج١ ص١١١ وتاريخ الخميس ج١ ص٤٨١ والسيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٣ والسيرة الحلبية ج٢ ص٣١٢ وإمتاع الأسماع ج١ ص٢٢٢ و ٢٢٣ وتفسير القرآن العظيم ج٣ ص٥٧٩ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥١٧ وراجع: حدائق الأنوار ج٢ ص٥٨٥ و ٥٨٦ ومجمع البيان ج٨ ص٣٤١ وبحار الأنوار ج٢٠ ص١٩٩ ونهاية الأرب ج١٧ ص١٦٩ والمغازي للواقدي ج٢ ص٤٤٩ ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٤١٣ و ٤١٤ وكنز العمال ج١٠ ص٢٨١ والغدير ج٧ ص٢٠٦ عن ابن كثير وعن طبقات ابن سعد.

(٢) فتح الباري ج٧ ص٣٠٨.

ولكنه جمع غير ظاهر الوجه، بعد أن كان التعبير الوارد في الرواية يأباه. ولكن المهم عند هؤلاء هو تصحيح رواية البخاري بأي ثمن.

وقد صرح القمي: بأن رسول الله «صلى الله عليه وآله» كان هو البادئ في حفر الخندق، فهو يقول: وأخذ معولاً فحفر في موضع المهاجرين بنفسه وأمير المؤمنين «عليه السلام» ينقل التراب من الحفرة، حتى عرق رسول الله «صلى الله عليه وآله» وعيي، وقال:

لا عيش إلا عيش الآخرة اللهم اغفر للأنصار والمهاجرة

فلما نظر الناس إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» يحفر اجتهدوا في الحفر، ونقلوا التراب، فلما كان في اليوم الثاني بكروا إلى الحفر، وقعد رسول الله «صلى الله عليه وآله» في مسجد الفتح، فبينا المهاجرون والأنصار يحفرون إذ عرض لهم الخ..»[1].

علي عليه السلام وشيعته أعظم الناس عناء:

قال القاضي النعمان: «وكان علي صلوات الله عليه وشيعته أكثر الناس عناء، وفيه عملاً. وكان في ذلك من الأخبار ما يطول ذكره»[2].

وثمة تفاصيل أخرى:

قد عرفنا فيما سبق: أن النبي «صلى الله عليه وآله» كان هو البادئ في حفر الخندق، وكان «صلى الله عليه وآله» يحفر، وعلي «عليه السلام» ينقل

---

(١) تفسير القمي ج٢ ص١٧٧ و ١٧٨ وبحار الأنوار ج٢٠ ص٢١٨ عنه.

(٢) شرح الأخبار ج١ ص٢٩٢.

التراب من الحفرة، وقد استمرت مشاركة النبي «صلى الله عليه وآله» لهم في العمل حتى انتهوا من الخندق.

وأنه «صلى الله عليه وآله» كان يضرب مرة بالمعول، ومرة يغرف التراب بالمسحاة، ومرة يحمل التراب بالمكتل على ظهره، أو على عاتقه.

وكان «صلى الله عليه وآله» يعاطيهم اللَّبِن، الأمر الذي يدل على أنه كان ثمة بناء في الخندق.

أضف إلى ذلك أنهم يقولون:

إنهم كانوا يحملون المكاتل على رؤوسهم، وإذا رجعوا بها جعلوا فيها الحجارة، يأتون بها من جبل سلع، يسطرونها مما يليهم كأنها حبال التمر وكانت الحجارة من أعظم سلاحهم، يرمونهم بها.

والقوم يرتجزون، ورسول الله «صلى الله عليه وآله» يقول:

هذي الجمال لا جمال خيبر ... هذا أبر ربنا وأطهر[1]

وما كان في المسلمين يومئذٍ أحد إلا يحفر في الخندق، أو ينقل التراب وكان أبو بكر وعمر لا يتفرقان في عمل، ولا مسير ولا منزل، ينقلان التراب في ثيابهما من العجلة، لم يكن مكاتل لعجلة المسلمين[2].

وقال جابر: وعمل الناس يومئذٍ كلهم، والنبي «صلى الله عليه وآله»،

---

(١) المغازي للواقدي ج٢ ص٤٤٦ وراجع: الإمتاع ج١ ص٢٢٠ والسيرة الحلبية ج٢ ص٣١٢.

(٢) المغازي للواقدي ج٢ ص٤٤٩ و٤٤٨ والسيرة الحلبية ج٢ ص٣١٣ والإمتاع ج١ ص٢٢٢، وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥١٦.

وجعلت الأنصار ترتجز وتقول:

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا

فقال النبي «صلى الله عليه وآله»، وفي لفظ آخر: فيجيبهم:

اللهم لا خير إلا خير الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة[1]

وكان من فرغ من المسلمين من حصته عاد إلى غيره فأعانه، حتى كمل الخندق[2].

وعن أنس قال: خرج رسول الله «صلى الله عليه وآله» إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، ولم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع.

وفي نص آخر: فلما رآهم يحملون التراب على متونهم، وما بهم من نصب وجوع، قال:

اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

فقالوا مجيبين له:

---

(١) المغازي للواقدي ج٢ ص٤٥٢ و٤٥٣ وراجع كنز العمال ج١٠ ص٢٩٠ والسيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٣ وحدائق الأنوار ج٢ ص٥٨٥ و ٥٨٦ وصحيح البخاري (المغازي) باب غزوة خيبر وصحيح مسلم، الجهاد والسير ـ باب غزوة الأحزاب ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٤١٠ و ٤١١ و ٤١٢ وراجع: فتح الباري ج٧ ص٣٩٢ وعن مسلم باب غزوة الأحزاب وعن البخاري وغير ذلك.

(٢) سبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥١٦.

نحن الذين بايعوا محمدا ... على الجهاد ما بقينا أبدا[1]

وبعد ما تقدم نقول:

عمل المنافقين في الخندق:

قالوا: وأبطأ عن رسول الله «صلى الله عليه وآله» وعن المسلمين في عملهم ذاك رجال من المنافقين، وجعلوا يورون بالضعيف من العمل.

وحسب نص آخر: تخلف طائفة من المنافقين، يعتذرون بالضعف. وتسلل عنه «صلى الله عليه وآله» جماعة من المنافقين إلى أهليهم بغير علم رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فأنزل الله تعالى في ذلك:

﴿..قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ الذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ثم كان الرجل من المسلمين إذا نابته نائبة لا بد منها يستأذن رسول الله «صلى الله عليه وآله» فيقضي حاجته، ثم يعود، فأنزل الله تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الذِينَ آمَنُوا بِالله وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالله

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٨٤ والبداية والنهاية ج٤ ص٩٥ و ٩٦ وبهجة المحافل ج١ ص٢٦٣ والمواهب اللدنية ج١ ص١١١ وتاريخ الخميس ج١ ص٤٨٢ والسيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٣ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥١٦ و٥١٧ وصحيح البخاري ج٣ ص٢٠ ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٤١٠ و ٤١١ وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص٢٤٥ وعن فتح الباري ج٧ ص٣٩٢.

وَرَسُولِهِ..﴾.

واللواذ: الإستتار بالشيء عند الهرب[1].

وهناك الذين كانوا يتسللون زاعمين أن بيوتهم عورة ـ أي مكشوفة للغزاة، ومعرَّضة للإحتلال[2] ـ وليس الأمر كذلك.

ولنا مع ما تقدم وقفات، نشير إليها فيما يلي من مطالب:

١ـ توزيع المهام على العاملين:

ومن الواضح: أن تحديد المسؤوليات، وتقسيم المهام على العاملين من شأنه أن يرفع من درجة الإحساس بالمسؤولية، الأمر الذي يفرض على العاملين قدراً أكبر من الدقة والتحري، الذي ينعكس على العمل إتقاناً وتناسقاً وجمالاً.

هذا عدا عن أنه يذكي روح التنافس البنَّاء والهادف، الذي يؤدي إلى

---

(١) راجع ما تقدم كلاً أو بعضاً، في المصادر التالية: السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢٢٦ و ٢٢٧ والإكتفاء للكلاعي ج٢ ص١٥٩ و ١٦٠ والكامل في تاريخ ج٢ ص١٧٩ و ١٧٨ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٢٣٤ والسيرة الحلبية ج٢ ص٣١٣ و ٣١٢ ونهاية الأرب ج١٧ ص١٦٨ وعيون الأثر ج٢ ص٥٥ و ٥٦.
وراجع: البداية والنهاية ج٤ ص٩٥ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٨٣ والمواهب اللدنية ج١ ص١١٠ وراجع ص١١٢ و ١١٣ والسيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٣ والدر المنثور ج٥ ص٦٠ عن ابن إسحاق، وابن المنذر، والبيهقي في الدلائل وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٢٢ و ٥٢٣ وتهذيب سيرة ابن هشام ج٣ ص١٨٩ ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٤٠٩.

(٢) سيرة المصطفى ص٤٩٦.

نشوء نوع من الرقابة العفوية، التي تنتهي إلى الانضباط، وإلى الإسراع في الإنجاز.

ومن جهة ثانية: فإنه يقطع الطريق على أولئك الكسالى والإتكاليين، ممن يضعف لديهم الشعور بالمسؤولية، ويريدون أن يفيدوا ويستفيدوا من جهد الآخرين، دون أن يقدموا هم أنفسهم أي جهد، أو أن يبذلوا أي عناء. ومنعهم من ثم من التواكل المؤدي إلى الفشل، وإلى التضييع والبلبلة والاختلاف.

وقد روي عن علي عليه الصلاة والسلام: أنه كتب في وصيته للإمام الحسن، صلوات الله وسلامه عليه: «واجعل لكل إنسان من خدمك عملاً تأخذه به، فإنه أحرى أن لا يتواكلوا في خدمتك»[1].

كما أن عدم تحديد المسؤوليات يؤدي إلى تخلخل في البنية الداخلية، نتيجة للإحساس بالغبن لدى من تفرض عليه ظروف عمله أن يكون هو الذي يتحمل عبء إنجاز ما فرَّط الآخرون في إنجازه. وعسى ولعل أن يتجه الفرقاء إلى إثارة الأسئلة والشكوك، ثم إلى التراشق بآلتهم لتبرير حالة الضعف القائمة بسبب ذلك.

وعلينا بعد ذلك كله: أن نتوقع ظهور عوارض الخلل والضعف في أية خطة ترسم وتعتمد، وتفقد الكثير من حيويتها وفاعليتها في مجال التطبيق والتنفيذ.

كما أن توزيع الحصص على العاملين بهذه الطريقة يضمن تحقق المساواة

---

(١) نهج البلاغة بشرح عبده، آخر وصية الإمام الحسن رقم (٣١) ج٣ ص٦٣.

والعدل في تحمل مشاق العمل، فلا يعمل هذا أكثر من ذاك. وإذا استطاع التفوق على أقرانه في العمل، فإن ذلك يظهر للآخرين ويتجلى امتيازه على سائرهم، كما سنقرؤه بالنسبة لسلمان الفارسي، الذي ظهرت قوته في العمل، فتنافس فيه المهاجرون والأنصار.

أما المتواكل المتخاذل: فلا مجال للتستر عليه، إذا كان يريد أن يتوانى في عمله ويتواكل فيه. وقد فضح القرآن الكريم المنافقين، الذين اتبعوا هذا السبيل كما تقدم.

هذا كله: بالإضافة إلى أن قسمة العمل على النحو المتقدم من شأنها أن تؤثر في زرع روح التفاؤل بإمكانية إنجاز هذا العمل الضخم وتقلل من رهبته في صدور العاملين، حينما تنحسر النظرة إلى ذلك العمل الهائل لتصبح في مدى أذرع يسيرة يتعاون على إنجاز العمل فيها عشرة من المؤمنين.

٢ـ النبي والشعر:

قد تقدم: بعض ما يدل على أن النبي «صلى الله عليه وآله» كان يتمثل ببعض الشعر، أو ينشد مع الصحابة ما ينشدون، ونزيد هنا:

قال دحلان وغيره: عن سهل بن سعد: كنا مع النبي في الخندق ننقل التراب على أكتافنا، فقال «صلى الله عليه وآله»:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ... فأكرم الأنصار والمهاجرة

وهو من كلام ابن رواحة، وأصله:

لا هم إن العيش عيش الآخرة

فنطق به النبي «صلى الله عليه وآله»:

اللـهـم لا عـيـش الخ..

لأنه يعسر عليه النطق بالشعر، وإن كان من قول غيره»[1].

وعن أبي عثمان النهدي، أو سلمان: أنه «صلى الله عليه وآله» حين ضرب في الخندق قال:

بـــاســـم الإلـــه وبـه بـدينـا ولـو عـبـدنـا غـيـــره شـقـيـنـا

يـاحـبـذا ربـــاً وحـــب ديـنـا»[2]

قال دحلان: «وهو من كلام بعض أصحابه يتمثل به. أو من كلامه بناء على أن الرجز ليس بشعر. أو أن الشعر شرطه أن يكون مقصوداً كونه شعراً موزوناً. أما إذا خرج موزوناً بلا قصد، فلا يسمى شعراً»[3].

ونقول:

إن بعض الناس حسبما تقدم، وكما هو مذكور في كتب التفسير، في

---

(١) السيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٣ عن البخاري والسيرة الحلبية ج٢ ص٣١٢ وراجع البداية والنهاية ج٤ ص٩٦ عن البخاري ومسلم والحديث في نهاية الأرب أيضاً ج١٧ ص١٦٩ وصحيح البخاري ج٣ ص٢٠ وفيه: فاغفر للمهاجرين والأنصار.

(٢) المواهب اللدنية ج١ ص١١١ وتاريخ الخميس ج١ ص٤٨١ والسيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٣ والسيرة الحلبية ج٢ ص٣١٢ والإمتاع ج١ ص٢٢١ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥١٧ والبداية والنهاية ج٤ ص٩٦ و ٩٧ ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٤١٤ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٨٦ وفتح الباري ج٧ ص٣٠٤.

(٣) اليسرة النبوية لدحلان ج٢ ص٣.

تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لهُ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾[1].

يريد أن يدَّعي: أن النبي «صلى الله عليه وآله» غير قادر على التفوه بكلام موزون، أو أن الرجز ليس بشعر. أو ما إلى ذلك..

ولكنها دعاوى ليست على درجة من القوة والاستقامة، فإن المراد بالآية الكريمة ﴿وَمَا عَلَمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لهُ..﴾: أنه «صلى الله عليه وآله» ليس بشاعر، بمعنى أنه ليس لديه ملكة الشعر، لا أنه يعسر عليه التكلم بشعر غيره والنطق به.

ولا حاجة بعد هذا إلى دعوى: أن الرجز ليس بشعر، كما لا حاجة إلى اشتراط القصد أو عدمه في إيراد الشعر الموزون. فإن النظر هو إلى ملكة الشعر الذي يتضمن الانسياق وراء الأوهام والتخيلات، والمبالغات، والتصويرات غير الواقعية بالإضافة إلى الوزن والموسيقى، وفقاً لما أشار إليه تعالى بقوله: ﴿وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُل وَادٍ يَهِيمُونَ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ﴾[2]

٣ـ دور عضل والقارة:

وقد ذكرت رواية أبي واقد: أنه «صلى الله عليه وآله» قال:

اللهم العن عضلاً والقارة   هم كلفوني أنقل الحجارة

---

(١) الآية ٦٩ من سورة يس.

(٢) الآيات ٢٢٤ ـ ٢٢٦ من سورة الشعراء.

وليس هذا الكلام واضح المأخذ والمغزى، إلا أن تكون هاتان القبيلتان: عضل والقارة، قد قامتا بنشاط واسع في تحزيب الأحزاب فاق نشاط اليهود وقريش حتى صح أن ينسب «صلى الله عليه وآله» إلى هاتين القبيلتين حتى نقل الحجارة للخندق.

وليس فيما بأيدينا من نصوص ما يدل على ذلك أو يشير إليه من قريب ولا من بعيد.

٤ـ الأمثولة المواساة:

وما أروع هذا التنويع في المهمات التي تصدى الرسول الأعظم «صلى الله عليه وآله» لها في حفر الخندق، حيث لم يقتصر على نوع واحد من العمل فيه، بل شارك «صلى الله عليه وآله» كل العاملين في أعمالهم وأذاق نفسه الشريفة مبلغ جهدهم، فصدق بذلك الخبر، وتجلت المواساة بأبهى صورها، وتجسدت الأمثولة الرائدة بأروع وأدق وأصدق معانيها.

٥ـ المتحذلقون الأغبياء:

ومن الأمور التي تلفت النظر هنا: أن البعض يحاول أن يفرغ هذه التضحية الرائعة، والأمثولة الفريدة للنبي الأكرم «صلى الله عليه وآله» من معناها ومغزاها، فيدَّعي رجماً بالغيب: أن النبي «صلى الله عليه وآله» كان لا يرى الشدة في حمل الحجارة[1]، رغم صراحة رواية أبي واقد المتقدمة: أن أبا واقد رأى النبي «صلى الله عليه وآله» وقد بلغ منه، وعلى حد تعبير نص

---

(١) الزهد والرقائق ص٢٥٦.

آخر: «وهو «صلى الله عليه وآله» يكابد معهم»

وفي نص ثالث: وربما كان يحفر حتى يعيا، ثم يجلس حتى يستريح.

وفي نص رابع: «حتى عرق رسول الله «صلى الله عليه وآله» وعيي».
وكل ذلك قد تقدم مع مصادره.

٦ ـ لا عيش إلا عيش الآخرة:

ولا ننسى أن نلفت نظر القارئ هنا: إلى مضمون الشعر الذي كان يترنم به العاملون في الخندق، وما يتضمنه من ربط لهم بالآخرة وبما يرجو المؤمنون تحقيقه من فوز وفلاح فيها.

كما أنه يحمل في ثناياه مقارنة عفوية فيما بين الدنيا والعيش فيها، وتفضيل عيش الآخرة عليه. ثم يشاركهم النبي «صلى الله عليه وآله» في ترديد هذا الشعر، فتكون مشاركة للوجدان وللإحساس، ويتعمق لدى هذا الإنسان الكادح المجاهد الشعور بالله سبحانه، وبألطافه ومواهبه، وما أحوجهم في هذا الظرف العصيب بالذات إلى إحساس كهذا.

٧ ـ الحماسة والمثابرة:

وقد كان لمشاركة النبي «صلى الله عليه وآله» هذه تأثير كبير في إثارة الحماسة لدى العاملين في حفر الخندق. وقد أذكيت هذه الحماسة أيضاً معرفتهم بتحرك الأعداء باتجاه المدينة، وإحساسهم بالخطر الذي يتهددهم.

٨ ـ الأسوة الحسنة:

لقد أجمع المؤرخون: على أن النبي «صلى الله عليه وآله» قد شارك في

حفر الخندق.

وتتفق هذه النصوص: على أنها كانت مشاركة فعالة وحقيقية وجدية.

وما نريد أن نلفت النظر إليه هنا هو:

ألف: إن هذه المشاركة لم تكن شكلية، ومجرد تمثيل، كما عهدناه وألفناه من رؤساء الجمهوريات والوزراء وكبار المسؤولين في عصرنا الحاضر، حيث يضرب أحدهم بالمعول مثلاً ضربات أمام الجماهير في احتفال تكريمي ليظهر على شاشات التلفزيون، وعلى صفحات الجرائد في استعراض إعلامي مزيف، يهدف إلى تكريس زعامته ونفوذه، ولا شيء غير ذلك، ثم يتابع رقابته على العمل والعاملين من موقع الأمر، من قصره المنيف، أو من برجه العاجي الزاهر. فجاءت مشاركة النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله» في حفر الخندق بصيغة المعاناة الحقيقية والصادقة، التي تمثل الأسوة في المعاناة الكادحة لا مجرد الرمز والمثال.

ولنسمع النشيد العفوي والصادق:

لئن قعدنا والنبي يعمل لذاك منا العمل المضلل

يقول البعض: «إن التاريخ لم يدون لنا غير حادثة مفردة عن شخصية كان لها سلطان روحي وزمني أيضاً على أُمة من الأمم. ومع ذلك فقد عملت مثل عامل عادي، وجنباً إلى جنب مع أتباعها في ساعة الحرج الوطني العظيم»[1].

---

(١) المغازي للواقدي ج٢ ص٤٤٧ وراجع: الإمتاع ج١ ص٢٢١ وراجع: دلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٣٩٩.

ب: إن مشاركته «صلى الله عليه وآله» في حفر الخندق تجسد عملياً المساواة بين جميع فئات المجتمع، وتخرجها عن أن تكون مجردة شعار يراد له أن يبقى في حدود إثارة المشاعر، في النشاط الإعلامي الجماهيري، دون أن يجاوز ذلك ليصبح حياة وحركة، نهجا وسلوكاً.

فالمساواة في نظر الإسلام نهج وسلوك، وخلق إسلامي وإنساني رفيع ونبيل، تنطق من خلاله وعلى أساسه مُثُل وقيم في جهات حياتية شتى.

ولأجل ذلك: نجد النبي «صلى الله عليه وآله» يشارك أصحابه في حفر الخندق مشاركة حقيقية، فهو يتعب كما يتعبون، ويرتجز كما يرتجزون، ويجوع كما يجوعون، ويشاركهم حلو العيش ومره، ويشترك معهم في تحمل المتاعب ومواجهة المصاعب ويكون أكثرهم عناء، وأعظمهم غناء.

ج: إن هذه المشاركة منه «صلى الله عليه وآله» لم تكن عن تواضع يريد من ورائه نيل رضاهم من خلال المواساة التي يتلمسونها في مشاركته تلك. بل هي منطلقة بالإضافة إلى ذلك من قناعة راسخة بالقيم والمبادئ، وبالمثل الإسلامية والإنسانية، التي تجعل ذلك عبادة إلهية، وعبودية له سبحانه وتعالى، تلك العبادة والعبودية التي لا تستثني ولا تجامل ولا تحابي أحداً أياً كان.

د: ومن الواضح: أن ارتباط النبي «صلى الله عليه وآله» بالناس لم يكن من نوع الروابط التي تقوم بين الزعيم وبين قاعدته الجماهيرية، ولا كانت هي رابطة حاكم ورعية، وإنما كانت رابطة الأبوة المسؤولة والواعية، التي يدفعها إحساسها الأبوي لتريد الخير لمن هم تحت تكفُّلها من موقع الوعي والتدبير، لا من موقع العاطفة الهوجاء، ولا من منطلق التفكير المصلحي، الذي يريد أن يستفيد من ذلك لتكريس زعامته، أو كسب امتيازات

سياسية، أو اجتماعية أو غيرها.

ولأجل ذلك كانت مواساته «صلى الله عليه وآله» لأصحابه في حالات الجوع، ثم مشاركته لهم في تلبيته لدعوة جابر لتناول الطعام؛ رغم أن جابراً لم يجد في بيته إلا ما يكفي بضعة أشخاص. ولكن الرسول الأكرم «صلى الله عليه وآله» قد دعا الجميع وأطعم الجميع.

منع حسان وكعب بن مالك من الشعر:

وقال المؤرخون أيضاً: عن كعب بن مالك قال: جعلنا يوم الخندق نرتجز ونحفر، فعزم رسول الله «صلى الله عليه وآله» عليَّ أن لا أقول شيئاً!

فقلت: هل عزم على غيري؟!

قالوا: حسان بن ثابت.

قال: فعرفت أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» إنما نهانا لوجدنا له، وقلته على غيرنا، فما تكلمت بحرف حتى فرغنا من الخندق.

وقال «صلى الله عليه وآله» يومئذٍ: لا يغضب أحد مما قال صاحبه، لا يريد بذلك سوءاً إلا مما قال كعب وحسان فإنهما يجدان ذلك[1].

وعند البيهقي: نهاهما أن يقولا شيئاً يحفظان به أحداً[2].

وكان جعيل بن سراقة رجلاً صالحاً، وكان دميماً قبيحاً. وكان يعمل معهم في الخندق، وكان «صلى الله عليه وآله» قد غير اسمه يومئذٍ وسماه

---

(١) المغازي للواقدي ج٢ ص٤٤٧ وراجع: الإمتاع ج١ ص٢٢١ وراجع: دلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٣٩٩.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٣٩٩.

عمراً، فجعل المسلمون يرتجزون ويقولون:

سماه من بعد جعيل عمرا   وكان للبائس يوماً ظهرا

وجعل رسول الله «صلى الله عليه وآله» لا يقول شيئاً، بل يقفي معهم فقط، ويقول: عمراً، ظهراً»[1].

قال الحلبي: «وسياق أسد الغابة يدل على أن هذا الذي غير رسول الله «صلى الله عليه وآله» اسمه وسماه عمراً غير الجعيل المذكور»[2].

ونشير نحن هنا إلى ما يلي:

الكلمة المسؤولة والقرار الحاسم:

إن هذه النصوص التي ذكرناها: قد أظهرت أن النبي «صلى الله عليه وآله» قد اتخذ قراراً حاسماً يمنع حسان بن ثابت وكعب بن مالك من إنشاد أو قول شيء حين حفر الخندق، والذي يظهر لنا من ثنايا الكلمات هو: أن حساناً وكعب بن مالك لم يلتزما بالضوابط الأخلاقية والإسلامية فيما قالاه وأنشداه، بل هما قد تجاوزا الحد، وأغضبا الآخرين، ويشير إلى ذلك:

---

(١) راجع: سبل الهدى والرشاد ج٤ ص١٦ والمغازي للواقدي ج٢ ص٤٤٧ و ٤٤٨ متناً وهامشاً، وراجع: دلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٤٠٩ و ٤١٠ والسيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢٢٧ و ٢٢٨ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٢٣٤ و٢٣٥ والبداية والنهاية ج٤ ص٩٥ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٨٣ وبهجة المحافل ج١ ص٢٦٤ والسيرة الحلبية ج٢ ص٣١١ و ٣١٢ والإمتاع ص٢٢٢ وأسد الغابة ج١ ص٢٩٠ وقال: أخرجه أبو موسى والإصابة ج١ ص٢٤٠.

(٢) السيرة الحلبية ج٢ ص٥١٢ وراجع: أسد الغابة ج١ ص٢٩٠.

١ ـ أنه «صلى الله عليه وآله» قد اختص هذين الرجلين بالمنع، ولم يعزم على أحد غيرهما.

٢ ـ كما أن قوله «صلى الله عليه وآله» يومئذٍ: لا يغضب أحد مما قال صاحبه لا يريد بذلك سوءاً الخ.. صريح في أنه قد قيل ثمة ما يوجب الغضب، حتى احتاج الرسول الأكرم «صلى الله عليه وآله» للتدخل لتلطيف الأجواء، وسل الخيمة؟؟

٣ ـ ولعل قصة جعيل بن سراقة هي أحد الشواهد على هذا التعدي على الآخرين، حيث كان من الطبيعي أن ينزعج هذا الرجل، الذي وصف بالقبح والدمامة من ارتجازهم الشعر في حقه، ويعد ذلك نوعاً من العبث والاستهانة به، والاحتقار له.

ومن هنا: فإننا نشك كثيراً في قولهم: إن النبي «صلى الله عليه وآله» جعل يقفي معهم، ويقول: عمراً، ظهراً..

مع أننا نلاحظ على النص المذكور: أنه قد ألمح إلى أن سكوت النبي «صلى الله عليه وآله» عن إنشادهم الشعر في حق جعيل كان ملفتاً للنظر، حيث يقول النص: «فجعل رسول الله لا يقول شيئاً، بل يقفي معهم فقط».

وبعد ما تقدم نقول: إننا نلمح في النصوص المتقدمة محاولة للتحريف والتصرف في النص بهدف التعتيم على حقيقة ما جرى؛ حيث حاول أن يصوِّر لنا: أن منع حسان وكعب من قول شيء إنما كان لأجل قدرتهما على قول الشعر، وقلته على غيرهم.

مع أن القضية: ما كانت تتطلب الكثير من قول الشعر آنئذٍ، بل يكفي البيت أو البيتان ليرددهما الآخرون مدة طويلة، وفقاً لما حفظه لنا التاريخ في

هذه المناسبة، بالإضافة إلى أن الكثيرين كانوا يجيدون الشعر مثل كعب وحسان.

ولم يكن ثمة داع لتحاسد القوم في أمر كهذا في مناسبة كهذه، ولا كان اللازم هو أن يحسدوا حساناً وكعب بن مالك في سائر المناسبات، ويمنعهما النبي «صلى الله عليه وآله» من هجاء المشركين، ومن نظم الشعر في كثير من المناسبات الأخرى.

ولم نجد في ما بين أيدينا من نصوص تاريخية أن حدث ما يشبه هذه القضية في أي مناسبات أخرى، لا مع النبي «صلى الله عليه وآله» ولا مع غيره.

وذلك يجعلنا نطمئن إلى حدوث تجاوز منهما للحد أوجب أن يقف النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله» منهما هذا الموقف الحازم والحاسم.

فليُتأمل في تاريخ حياة هذين الرجلين، فقد يجد المتتبع فيها الكثير مما لا يحسن ولا يجمل، وقد تقدم في أواخر الحديث عن غزوة بني النضير شيء غريب صدر من حسان، وربما تأتي الإشارة لأشياء أخرى صدرت منه ومن غيره. والله هو المسدد والهادي.

زيد بن ثابت:

«كان زيد بن ثابت ممن ينقل التراب، فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله» في حقه: أما إنه نِعْمَ الغلام، وغلبته عينه، فنام في الخندق.

فأخذ عمارة بن حزم سلاحه، وهو نائم.

فلما قام فزع على سلاحه، فقال له «صلى الله عليه وآله»: يا بار، [يا أبا رقاد] قد نمت حتى ذهب سلاحك؟

ثم قال: من له علم بسلاح هذا الغلام؟!

فقال عمارة: أنا يا رسول الله، هو عندي.

فقال: ردَّه عليه ونهى أن يروع المسلم ويؤخذ متاعه لاعباً»[1].

وكان المسلمون قد انكشفوا يريدون يطيفون بالخندق ويحرسونه، وتركوا زيداً نائماً ولا يشعرون به.

ونقول:

لا ندري مدى صحة ما ينسب إلى النبي «صلى الله عليه وآله»: أنه قاله في حق زيد بن ثابت، دون سائر من كانوا ينقلون التراب من شباب وغيرهم، من دون مبرر ظاهر، أو سبب معقول، أو فعل متميز من زيد على من سواه، يستدعي أن يخلع عليه النبي الأوسمة، ويخصه بالتقاريض والمدائح.

غير أننا نعلم: أن زيداً كان ممن تهتم السلطة بأمره، وتعمل على رفعة شأنه، وتخصيصه بكل غال ونفيس ما وجدت إلى ذلك سبيلاً، لأنه كان من أعوانها بل من أركانها كما أشرنا إليه في فصل تعليم زيد اللغة العبرانية، فلا نعيد.

سلمان منا أهل البيت:

ويقولون: إن المسلمين جعلوا إذا رأوا في الرجل فتوراً ضحكوا منه. وتنافس الناس يومئذٍ في سلمان الفارسي وكان قوياً عارفاً بحفر الخنادق، فقال المهاجرون: سلمان منا..

وقالت الأنصار: هو منا ونحن أحق به.

---

(١) السيرة الحلبية ج٢ ص٢١٣ والإمتاع ج١ ص٢٢٢ والإصابة ترجمة زيد بن ثابت والمغازي للواقدي ج٢ ص٤٤٨.

فبلغ رسول الله «صلى الله عليه وآله» قولهم، فقال: «سلمان رجل منا أهل البيت»[١].

«ولقد كان يومئذٍ يعمل عمل عشرة رجال، حتى عانه (أي أصابه بالعين) يومئذٍ قيس بن أبي صعصعة فلُبط به (أي صُرع وسقط إلى الأرض) فسألوا رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فقال: مروه فليتوضأ له، وليغتسل به، ويكفأ الإناء خلفه ففعل، فكأنما حل من عقال»[٢].

وحسب نص آخر أوضح وأصرح: «روي أنه كان يعمل في الخندق عمل الرجلين.

وفي رواية: كان يحفر كل يوم خمسة أذرع من الخندق، وعمقها أيضاً خمسة أذرع، فعانه قيس بن صعصعة، فصرع وتعطل من العمل، فأُخبر بذلك رسول الله «صلى الله عليه وآله» فأمر أن يتوضأ قيس لسلمان، ويجمع

---

(١) المغازي للواقدي ج١ ص٤٤٦ وراجع: الكامل في التاريخ ج٢ ص١٧٩ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٢٣٥ وشرح بهجة المحافل ج١ ص٢٦٣ وسيرة المصطفى ص٤٩٥ عن الطبري وتاريخ الخميس ج١ ص٤٨٢ السيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٣ والإمتاع ج١ ص٢٢١ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥١٥ والبداية والنهاية ج٤ ص٩٩ ومجمع البيان ج٢ ص٤٢٧ وج ٨ ص٣٤١ والبحار ج٢٠ ص١٨٩ و ١٩٨ ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٤٠٠ و ٤١٨ ومستدرك الحاكم ج٣ ص٥٩٨ ووفاء الوفاء ج٤ ص١٢٠٥ وراجع ص١٢٠٧ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٩٢.

(٢) المغازي للواقدي ج١ ص٤٤٧ والإمتاع ج١ ص٢٢١ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥١٥.

وضوءه في ظرف، ويغتسل سلمان بتلك الغسالة ويكفأ الإناء خلف ظهره، ففعل، فنشط في الحال كما ينشط البعير من العقال»[1].

وقصة التنافس في سلمان وقول النبي «صلى الله عليه وآله»: «سلمان منا أهل البيت» مذكورة في العديد من المصادر، فلتراجع في مظانها[2].

ونص آخر يقول: إنه حين حفر الخندق كان المسلمون ينشدون سوى سلمان، فرأى النبي «صلى الله عليه وآله» ذلك، فدعا الله تعالى: أن يطلق لسان سلمان، ولو ببيتين من الشعر، فأنشد سلمان ثلاثة أبيات هي:

مـا لـي لـسـان فـأقـول شـعـرا ... أسـأل ربـي قـوة ونـصـرا

عـلى عـدوي وعـدو الـطـهـرا ... محـمـد المـخـتـار حـاز الفخـرا

حـتـى أنـال فـي الجـنـان قصرا ... مـع كـل حـوراء تحـاكـي البدرا

فضج المسلمون، وجعلت كل قبيلة، تقول: «سلمان منا».

---

(١) تاريخ الخميس ج١ ص٤٨٢ والسيرة الحلبية ج٢ ص٣١٣ و٣١٤ وراجع: الإمتاع ج١ ص٢٢١ والمغازي للواقدي ج٢ ص٤٤٧.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٤ قسم ١ ص٥٩ والبداية والنهاية ج٤ ص٩٩ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٩٢ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٢٣٥ وراجع: الكامل في التاريخ ج٢ ص١٧٩ والبحار ج٢ ص١٨٩ عن مجمع البيان ج٢ ص٤٢٧ والسيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٣ وأسد الغابة ج٢ ص٣٣١ وذكر أخبار إصبهان ج١ ص٥٤ وتهذيب تاريخ دمشق ج٦ ص٢٠٠ ونفس الرحمن ص٣٤ و ٣٥ ومستدرك الحاكم ج٣ ص٥٩٨.

فقال النبي «صلى الله عليه وآله»: «سلمان منا أهل البيت»(١).

ونقول:

إننا نشك في صحة ذلك كله، وذلك للأمور التالية:

أولاً: إنه عدا عما في هذه الأبيات الأخيرة من الهنات، لا نجد المبرر المذكور لدعاء النبي «صلى الله عليه وآله» لسلمان كافياً في تبرير ذلك، لأن الذين كانوا ينشدون الشعر، ما كانوا ينشدون من نظمهم، بل كان الناظم واحداً من الناس، والباقون يرددون المنظوم بطريقة معينة ووقع خاص يتناسب مع الحالة التي يعيشونها، وقد كان باستطاعة سلمان أن يردد ذلك النشيد مع المرددين، من دون حاجة إلى أن ينظم شعراً، كما صورته لنا الرواية.

وثانياً: إن ما ذكروه في سبب إطلاق هذه الكلمة النبوية الخالدة في حق سلمان: «**سلمان منا أهل البيت**» لا يعدو أن يكون أمراً عادياً بل وتافهاً.

لأن معناه: أن تكون قضية الاستفادة من قوة سلمان البدنية موضع تنافس الفرقاء، وقد حسم النبي «صلى الله عليه وآله» نزاعهم، بتحويل سلمان إلى القسم الذي كان يعمل هو «صلى الله عليه وآله» وأهل بيته فيه فكانت تلك الكلمة إيذاناً بذلك.

وهذا معناه: أن تفقد هذه الكلمة قيمتها وأهميتها. وهكذا الحال بالنسبة لحكاية إطلاق لسان سلمان بالشعر، ثم تنافس الفرقاء فيه فجعله

---

(١) راجع: المناقب لابن شهرآشوب ج١ ص٨٥ وقاموس الرجال ج٤ ص٤٢٤ والدرجات الرفيعة ص٢١٨ ونفس الرحمن ص٤٣.

«صلى الله عليه وآله» جزءاً من فئة تحسن التكلم بالعربية، وتحب أن تكرمه وتشجعه، لأنه نطق بلغتها.

إذن.. فلم يكن هذا الوسام لسلمان قد استحقه لعلمه، أو لدينه أو لمواقفه، أو لغير ذلك من أمور تدخل في نطاق صفات وأعمال الخير والصلاح فيه.

وبعد هذا: فلا يبقى مبرر لما نلاحظه في كلمات الأئمة «عليهم السلام» من تركيز على هذا الوسام، وتأكيد لواقعيته ومصداقيته فيه رضوان الله تعالى عليه.

كما لا معنى لاستدلال ابن عربي على عصمة سلمان بهذه الكلمة المأثورة عن النبي «صلى الله عليه وآله» في حقه، باعتبار أن أهل البيت معصومون مطهرون، بنص آية التطهير[1].

الصحيح في القضية:

ولعل الصحيح في القضية، الذي ينسجم مع وقائع التاريخ ومع ما عهدناه من سياسات انتهجها الحكام طيلة عشرات السنين هو النص التالي:

«إن سلمان الفارسي رضي الله عنه دخل مجلس رسول الله «صلى الله عليه وآله» ذات يوم، فعظموه، وقدموه، وصدروه، إجلالاً لحقه، وإعظاماً لشيبته، واختصاصه بالمصطفى وآله.

فدخل عمر، فنظر إليه فقال: من هذا العجمي المتصدر فيما بين العرب؟!

---

(١) راجع: سلمان الفارسي، للعلامة السبيتي ص٤٠ ونفس الرحمن ص٣٢ كلاهما عن الفتوحات المكية

فصعد رسول الله «صلى الله عليه وآله» المنبر، فخطب، فقال: إن الناس من عهد آدم إلى يومنا هذا مثل أسنان المشط لا فضل للعربي على العجمي، ولا للأحمر على الأسود إلا بالتقوى. سلمان بحر لا ينزف، وكنز لا ينفد، سلمان منا أهل البيت»[1].

وهكذا يتضح: أن سلمان المحمدي قد تعرض لمحاولة تحقير وامتهان، من قبل رائد «**التمييز العنصري**» بعد وفاة النبي «صلى الله عليه وآله» الذي شاع وذاع عنه أنه لم يحب تزويج سلمان. وكان يكره الفرس ويمقتهم وقد حرمهم من أبسط الحقوق[2] فانتصر النبي «صلى الله عليه وآله» لسلمان، وأدان المنطق الجاهلي، والتمييز العرقي والعنصري، بصورة صريحة، وقوية وقاطعة.

تقتلك الفئة الباغية:

روي في صحيح مسلم، عن أبي قتادة: «أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» قال لعمار حين جعل يحفر الخندق، فجعل يمسح رأسه ويقول:

بؤس ابن سمية، تقتلك الفئة الباغية»[3].

---

(١) الإختصاص ص٣٤١ ونفس الرحمن في فضائل سلمان ص٢٩ والبحار ج٢٢ ص٣٤٨.

(٢) قد تكلمنا حول سياسات عمر تجاه غير العرب ومع سلمان في كتابنا: سلمان الفارسي في مواجهة التحدي فراجع.

(٣) تاريخ الخميس ج١ ص٤٨١ عن صحيح مسلم وراجع: السيرة الحلبية ج٢ ص٣١٢.

لكن القمي قد فصل ذلك حيث قال: «قوله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا..﴾[1]، نزلت في عثكن (عثمان) يوم الخندق. وذلك أنه مر بعمار بن ياسر، وهو يحفر الخندق، وقد ارتفع الغبار من الحفر، فوضع كمه على أنفه ومر، فقال عمار:

لا يستوى من يبتني المساجدا	**يظل (فيصلي) فيها راكعاً وساجدا**
كمن يمر بالغبار حائدا	**يعرض عنه جاحداً معاندا**

فالتفت إليه عثكن، فقال: يا ابن السوداء إياي تعني؟

ثم أتى رسول الله «صلى الله عليه وآله» فقال له (أي عثمان): لم ندخل معك لتُسَبَّ أعراضنا.

فقال له رسول الله «صلى الله عليه وآله»: قد أَقَلْتُكَ إسلامك فاذهب. فأنزل الله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا.. ﴾ الخ..»[2].

وقد تقدم في جزء سابق حين الحديث عن بناء مسجد المدينة: أن ذلك قد حصل في تلك المناسبة في قضية حصلت بين عمار وعثمان.

ونقول:

إننا لا نريد أن ندخل في موضوع تحقيق الحق في كون ذلك قد حصل في البناء الأول للمسجد أو الثاني، أو في حفر الخندق، فإن تحقيق ذلك ليس له كبير أهمية ما دام أن أصل القصة، وكلمة الرسول الأكرم «صلى الله عليه وآله» مما لا شك فيه، ولا شبهة تعتريه، وقد أجمع عليه المحدثون

---

(١) الآية ١٧ من سورة الحجرات.

(٢) تفسير القمي ج٢ ص٣٢٢ والبحار ج٢٠ ص٢٤٣.

والمؤرخون، بل والمسلمون قاطبة وأصبح من المسلمات. غير أننا نذكِّر القارئ هنا بأمر هام، وهو:

أن طريقة النبي «صلى الله عليه وآله» والأئمة الأطهار «عليهم السلام» في التربية والتعليم لها مرتكز أساس، وهو الإعتماد على بلورة المعايير والمنطلقات الأساسية في النهج الفكري والعقيدي للناس بصورة عامة، ثم تفويض أمر اختيار ما يتناسب مع تلك المعايير، ويتطابق مع هاتيك الضوابط إلى الناس أنفسهم، فنجد الناس مثلاً هم الذين يقومون بعملية التعرف على الإمام، بما لديهم من ضوابط ومعايير يمارسون تطبيقها بأنفسهم، وتوصلهم إلى الإمام الحق، بصورة قويمة وسليمة، من دون حاجة إلى التنصيص عليه بالاسم، كما كان الحال حينما أوصى الإمام الصادق «عليه السلام» إلى خمسة أحدهم الإمام الكاظم «عليه السلام»، حيث عرف الشيعة أن الإمام لا يمكن أن يكون ذلك الحاكم الظالم، كما لا يمكن أن يكون هو زوجة الإمام، ثم لا يمكن أن يكون هو الولد الأكبر مع إشراك الأصغر في الوصية[1].

والأمر في قصة عمار أيضاً من هذا القبيل، حيث قدم النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله» للناس آنئذٍ ضابطة يعرفون بها فريق البغاة، ويميزونه عن غيره، دون أن يصرح «صلى الله عليه وآله» بالاسم أو بالأسماء، الأمر الذي قد يحمل معه سلبيات كثيرة ومتنوعة بشكل أو بآخر..

ومن الواضح: أن لهذه التربية الفكرية ولصياغة الشخصية الإسلامية

---

(١) راجع: البحار ج٤٧.

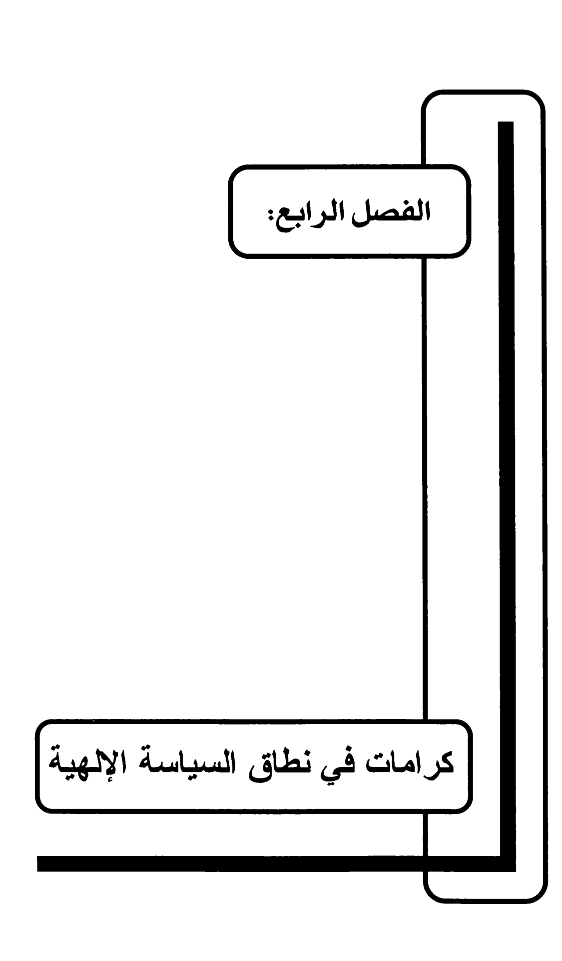
بهذه الطريقة آثاراً إيجابية كبيرة وهامة جداً. وذلك لما ينتج عنها من حصانة ومناعة لدى الإنسان المسلم في مقابل محاولات الخداع والتضليل التي ربما يتعرض لها من قبل أهل الدعوات الفاسدة والمشبوهة، ويصبح في مأمن من الوقوع في شراكهم التي ينصبونها له ولأمثاله..

كما إنها تجعله قادراً على نقل المفاهيم التي يؤمن بها إلى الآخرين بالطريقة المنطقية والمقبولة والمعقولة.

ثم هي تمكنه من أن ينأى بنفسه عن أن يكون من الهمج الرعاع الذين ينعقون مع كل ناعق، ويسيرون في ركاب كل قبيل، دون وعي أو تأمل في الأمور وفي عواقبها..

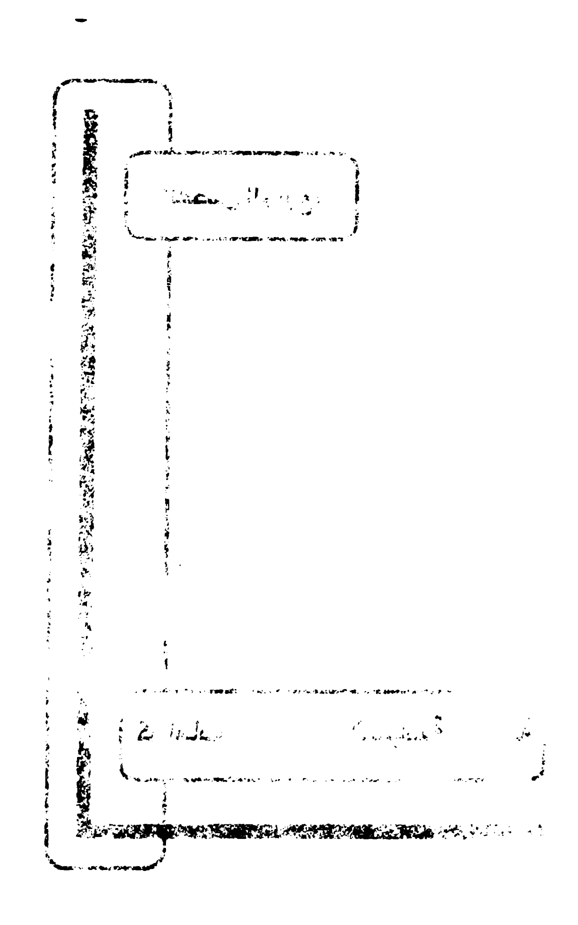
أضف إلى ذلك: أنها تخرج الإنسان المسلم عن دائرة التلقين الأعمى، ليصبح قادراً على التفاعل مع الفكرة، أو مع أية قضية تعرض عليه، ولكن لا من موقع التأثر والانفعال العاطفي أو اللاشعوري، بل من موقع التأمل والتروي والوعي والضبط والانضباط بكل ما لهذه الكلمات من معنى دقيق، وعميق.

وهذا بحث هام ومتشعب، يحتاج إلى توفر تام، من أجل حشد الشواهد والدلائل الكثيرة والمتنوعة للاستفادة منها كطريقة عمل ومنهج حياة، وسبيل صلاح وإصلاح، إن شاء الله تعالى..



الفصل الرابع:

كرامات في نطاق السياسة الإلهية



مما سبق:

قد تحدثنا في الجزء السابق، في غزوة ذات الرقاع: عن معرفة الأنبياء والأوصياء بلغات البشر، بل منطق الطير وسائر الحيوانات.

وتحدثنا أيضاً هناك: عن الكرامات التي نقلت عن نبينا الأكرم «صلى الله عليه وآله» وعن الأئمة الأطهار وعن الأنبياء «عليهم السلام» السابقين وغيرهم، مما أشار القرآن إلى بعض منه أيضاً.

وقد ذكرنا ثمة توضيحاً لا غنى عن المراجعة إليه، من أجل جعل الأمور في نصابها في نطاق فهم هذه الكرامات والمعجزات التي سجل لنا القرآن والتاريخ والحديث منها العشرات والمئات في مختلف الشؤون والمجالات.

فنرجو من القارئ الكريم: أن لا ينسى مراجعة ما كتبناه هناك، وبدون ذلك، فإن فهم هذه القضايا ليس فقط سوف يكون ناقصاً، وإنما قد يكون غير واقعي ولا دقيق.

الكرامات والمعجزات في الخندق:

لقد كان المسلمون يواجهون يوم الخندق أعظم تحد واجهوه سواء من حيث العدد، أو من حيث العدة، بالإضافة إلى حالة الحصار التي يعانون منها.

ثم يتعاظم إحساسهم بالخطر الذي يتهددهم: وهم يجدون أمارات الغدر والخيانة قد ظهرت، لدى أولئك الذين كان لهم معهم عهود ومواثيق، فلم تعد العهود قادرة على إعطاء أدنى شعور بالأمن والسكون إليها. كما أن كل ما عمله النبي والمسلمون من إحسان، وما اتخذوه من مواقف إنسانية قد اتضح أنه لم يمنع من تلقوا ذلك الإحسان من أن يحالفوا العدو، وينقلبوا على ما أحسن إليهم ليقابلوه بالإساءة، فيكتشف المسلمون أنهم مجموعة من الذئاب، والسباع الشرسة، التي تفقد كل المعاني الإنسانية، وكل الشيم التي يعتز بها الإنسان العربي، ويفتخر بها.

ثم هناك وجود المنافقين فيما بين المسلمين، الذين كانوا ينخرون في جسم الأمة، ويعملون على تمزيقها، وزرع الشكوك القاتلة، وإيجاد الريب المهلك فيها.

فتأتي هذه الكرامات: لتكون صمام الأمان لهذه القلوب الخائفة، والمفجوعة، وليربط الله بها على قلوبهم، ولتزيد في يقينهم وبصيرتهم، وتشد من عزيمتهم.

قال الشيخ محمد أبي زهرة: «إن الآيات المادية قد تؤثر في أولئك الماديين الحسيين، وخصوصاً إذا كانت في موطن الفزع، فإنها إذا جاءت من غير سبب يألفونه ويعرفونه، فإنها قد تأخذ عقولهم إلى التفكير السليم، وتخلعها من الوثنية، إذ يدخل إليها نور الحق شيئاً فشيئاً، والنور كلما دخل أشرق، وإذا أشرق اتجهوا إلى الحق وطلبوه»[1].

---

(١) خاتم النبيين ج٢ ص٩٤٤.

ويلاحظ هنا: أن بعض هذه الكرامات قد اقترن بإخبار النبي «صلى الله عليه وآله» للمسلمين بأن البلاد سوف تفتح عليهم حتى الإمبراطوريات العظمى التي كانت تحكم العالم آنئذٍ، وهما إمبرطوريتا الروم وفارس.

وإذا جاء الخبر من الصادق المصدق، الذي يعتقد المسلمون أنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، في حالة مواجهة الأخطار الكبرى والمصيرية، فإنه يكون أكثر رسوخاً في النفس، وأعظم أثراً في إثارة الهمم وشحذ العزائم.

ونحن نشير هنا: إلى طائفة من هذه الكرامات، بقدر ما يفسح لنا به المجال، فنقول:

نبوءة صادقة للنبي صلى الله عليه وآله:

يقول المقريزي وغيره: «وضرب بالكرزن، فصادفت حجراً، فصل الحجر (أي ترددت صوته في صليل الفأس)، فضحك رسول الله «صلى الله عليه وآله».

فقيل: مم تضحك يا رسول الله؟!

قال: أضحك من قوم يؤتى بهم من المشرق في الكبول (الكبل القيد العظيم)، يساقون إلى الجنة وهم كارهون»[1].

والظاهر: أن هذا إشارة لأهل فارس.

ومن الواضح: أن هذه البشارة منه «صلى الله عليه وآله» للمسلمين إنما

---

(١) إمتاع الأسماع ج١ ص٢٢٣ والمغازي للواقدي ج٢ ص٤٤٩ وكنز العمال ج١٠ ص٢٨٥ عن ابن النجار.

يراد منها أن تعطيهم انطباعاً بصورة عفوية وتلقائية بأن هذه الدعوة مستمرة وباقية، فلا يهولنهم جمع قريش والأحزاب لهم:

فما ذلك إلا: «سحابة صيف عن قليل تقشع».

كرامة أخرى لرسول الله ﷺ:

عن جابر بن عبد الله قال: أصبح الناس كدية يوم الخندق، فضربوا فيها بمعاولهم حتى انكسرت، فدعوا رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فدعا بماء فصبه عليها، فعادت كثيباً أهيل.

وفي نص آخر ـ ذكره البخاري وغيره ـ: أنه «صلى الله عليه وآله» قام وبطنه معصوبة بحجر ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً الخ..[1].

ويبدو أن هذه قضية أخرى غير قضية سلمان الآتية التي أخبر «صلى

(١) راجع المصادر التالية: المغازي للواقدي ج٢ ص٤٥٢ وصحيح البخاري ج٣ ص٢١ وتاريخ ابن الوردي ج١ ص١٦٠ والسيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢٢٨ والإكتفاء للكلاعي ج٢ ص١٦٠ وإعلام الورى ص٩٠ وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص٢٣٤ و٢٤٦ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٨٦ والبداية والنهاية ج٤ ص٩٧ و٩٨ عن ابن إسحاق، وأحمد، والبخاري والبيهقي، وإمتاع الأسماع ج١ ص٢٢٤ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥١٩ وحدائق الأنوار ج٢ ص٥٩١ ومجمع البيان ج٨ ص٣٤١ والبحار ج٢٠ ص١٩٨، ونهاية الأرب ج١٧ ص١٧٠ ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٤١٥ و٤١٦ و٤٢٣ ودلائل النبوة لأبي نعيم ص٣٥٨ والمختصر في أخبار البشر ج١ ص١٣٤ وعيون الأثر ج٢ ص٥٧ والمواهب اللدنية ج١ ص١١١ وجوامع السيرة النبوية ص١٤٨.

الله عليه وآله» المسلمين فيها عن الفتوح التي يفتحها الله عليهم.

قصور الروم وفارس:

ومن الأمور التي يذكرها المؤرخون هنا: قضية الصخرة التي واجهت المسلمين وهم يحفرون الخندق وكانت سبباً في أن يخبر النبي المسلمين بأخبار غيبية تحققت فيما بعد.

ونحن نذكر النص التاريخي للرواية أولاً، ثم نشير إلى بعض ما يرتبط به، فنقول:

كان سلمان، وحذيفة والنعمان بن قرن، وعمرو بن عوف، وستة من الأنصار يعملون في أربعين ذراعاً فخرجت عليهم صخرة كسرت المعول، فأعلموا النبي «صلى الله عليه وآله» بالأمر.

وفي نص آخر يقول فيه عمرو بن عوف: فحفرنا حتى إذا كنا بجب ذي باب [والظاهر: أن الصحيح: تحت ذباب][1] أخرج الله من باطن الخندق صخرة مروة كسرت حديدنا، وشقت علينا.

فطلبوا من سلمان أن يخبر النبي «صلى الله عليه وآله» بأمرها؛ فإما أن نعدل عنها، فإن المعدل قريب، وإما أن يأمرنا فيها بأمره، فإنا لا نحب أن نتجاوز خطه.

فرقى سلمان إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وهو ضارب عليه قبة

---

(١) ذباب: جبل بجبانة المدينة. وهو الجبل الذي عليه مسجد الراية. واسمه ذوناب أيضاً.

راجع: تاريخ الخميس ج١ ص٤٨٢.

تركية فأخبره فهبط مع سلمان وبطنه معصوب بحجر، ولبثوا ثلاثة أيام لا يذوقون ذواقاً، والتسعة على شفير الخندق.

وفي نص آخر عن سلمان، قال: ضربت في ناحية من الخندق، فغلظت عليَّ ورسول الله «صلى الله عليه وآله» قريب مني، فلما رآني أضرب، ورأى شدة المكان عليَّ أخذ المعول، وضربها به ضربة فصدعها، وبرق منها برق أضاء منها بين لابتي المدينة، فكبر «صلى الله عليه وآله» تكبيرة، وكبر المسلمون.

ثم ضربها ثانية فكذلك، ثم الثالثة فكذلك أيضاً، فصدعها.

فأخذ بيد سلمان ورقى، فسأله سلمان عن الأمر الذي رآه ورآه المسلمون، وعن تكبير النبي «صلى الله عليه وآله»، فأخبرهم «صلى الله عليه وآله»: أنه بالبرقة الأولى أضاءت له قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأخبره جبرئيل بأن أمته ظاهرة عليها.

وفي الثانية أضاءت له القصور الحمر من أرض الروم، وأخبره جبرئيل بأن أمته ظاهرة عليها.

وفي الثالثة أضاءت له قصور صنعاء، وأخبره جبرئيل: بأن أمته ظاهرة عليها فابشروا، فاستبشر المسلمون وقالوا:

الحمد لله موعد صدق، وعدنا النصر بعد الحصر.

فقال المنافقون، ومنهم معتب بن قشير: ألا تعجبون من محمد؟! يمنيكم ويعدكم الباطل، ويخبركم بأنه يبصر من يثرب قصور الحيرة، ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا، فنزل القرآن: **﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم**

مَرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلا غُرُوراً﴾[1] الخ..»[2].

---

(١) الآية ١٢ من سورة الأحزاب.

(٢) للرواية نصوص مختلفة. فراجعها على اختلافها في المصادر التالية: تاريخ الخميس ج١ ص٤٨٢ و٤٨٣ وراجع ص٤٨٤ وعيون الأثر ج٢ ص٥٨ ووفاء الوفاء ج٤ ص١٢٠٧ وفتح الباري ج٧ ص٣٥٠ والسيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٣ و ٤ و ٥ والأمالي للشيخ الصدوق ص٢٥٨ وحبيب السير ج١ ص٣٦٠ والسيرة الحلبية ج٢ ص٣١٣ و ٣١٤ و ٣١٨ وبحار الأنوار ج٢٠ ص٢٥٣ و ٢١٩ ص١٨٩ و ١٩٠ وج١٨ ص٣٢ ومجمع البيان ج٢ ص٤٢٧ و ٣٢٨ وج ٨ ص٣٤١ ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٣٩٩ و ٤٠٠ وراجع ص٤١٧ و ٤١٩ ـ ٤٢١ والكامل في التاريخ ج٢ ص١٧٩ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٢٣٥ و ٢٣٦ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥١٩ و ٥٢٠، عن أحمد، والشيخين، وابن سعد وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبي نعيم، والطبراني والبيهقي، وتاريخ ابن الوردي ج١ ص١٦١ والسيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢٣٠ و ٢٢٨ وحدائق الأنوار ج١ ص٥٣ والخصال ج١ ص١٦٢ والإكتفاء للكلاعي ج٢ ص١٦٢ و ١٦٠ وإعلام الورى ص٩٠ وكنز العمال ج١٠ ص٢٨١ والروض الأنف ج٣ ص٢٧٧ وصحيح البخاري ج٣ ص٢١ والخصائص الكبرى للسيوطي (ط الهند) ج١ ص٢٢٨ والوفاء ص٦٩٣ وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص٢٤٦ و ٢٣٤ والبداية والنهاية ج٤ ص٩٩ و ٩٧ و ٩٨ و ١٠٠ و ١٠١ و ١٠٢ والمختصر في أخبار البشر ج١ ص١٣٥ ومستدرك الحاكم ج٣ ص٥٩٨ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٩١ ـ ١٩٥ والمغازي للواقدي ج٢ ص٤٥٢ والمواهب اللدنية ج١ ص١١١ ـ ١١٢ ودلائل النبوة لأبي نعيم ص٤٣٢ وعن سنن النسائي ج٢ ص٦٥ وعن ابن إسحاق وراجع: تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٥١ وشرح بهجة المحافل ج١ ص٢٦٥ وتفسير القمي ج٢ ص١٧٨ والخرايج والجرايح ج١ ص١٥٢ وفيه أن المسلمين هم الذين رأوا تلك البلاد.

وقيل: إن قائل ذلك هو عبد الله بن أبي بن سلول[1].

وفي نص آخر: أن المنافقين قد قالوا ذلك عند مجيء الأحزاب[2].

وهذا هو ما نرجحه، لأن سياق الآيات إنما يناسب حالة الشدة التي عانى منها المسلمون بعد مجيء الأحزاب، وحدوث الحصار كما سنوضحه إن شاء الله تعالى.

ويظهر من نص للطبراني: أن هذه القضية قد حدثت بعد قصة دعوة جابر للنبي «صلى الله عليه وآله» وأهل الخندق للطعام[3] كما سيأتي.

وصرح القمي: بأن هذه القضية قد كانت في اليوم الثاني من بدء حفر الخندق[4].

وذكر نص آخر: أنه «صلى الله عليه وآله» «جعل يصف لسلمان أماكن فارس، ويقول سلمان: صدقت يا رسول الله، هذه صفتها، أشهد أنك رسول الله.

ثم قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: هذه فتوح يفتحها الله بعدي يا سلمان»[5].

وعن أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق «عليه السلام»: لما حفر

---

(١) السيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٥.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٩٢.

(٣) راجع: السيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٩٤ والبداية والنهاية ج٤ ص١٠١.

(٤) تفسير القمي ج٢ ص١٧٨ وبحار الأنوار ج٢٠ ص٢١٩ عنه.

(٥) السيرة الحلبية ج٢ ص٣١٤ والمغازي للواقدي ج٢ ص٤٥٠ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٢٠.

رسول الله الخندق مروا بكدية، فتناول رسول الله «صلى الله عليه وآله» المعول من يد أمير المؤمنين «عليه السلام»، أو من يد سلمان، فضرب بها ضربة، فتفرق بثلاث فرق.

فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: لقد فتح الله عليَّ في ضربتي هذه كنوز كسرى وقيصر.

فقال أحدهما لصاحبه: يعدنا كنوز كسرى وقيصر، وما يقدر أحدنا يخرج يتخلى[1].

والمراد بأحدهما وصاحبه: هو أبو بكر وعمر، ولم يذكر اسميهما صراحة تقية.

ونقول:

لكن هذه الرواية: تخالف ما تقدم عن ابن الوردي وزيني ودحلان، من أن الذي قال ذلك: هو معتب بن قشير، أو عبد الله بن أبي.

نص آخر يخالف ما سبق:

ويقولون أيضاً: كان عمر بن الخطاب يضرب يومئذٍ بالمعول فصادف حجراً صلداً، فأخذ «صلى الله عليه وآله» منه المعول، وهو عند جبل بني عبيد فضربه، فذهبت أولها برقة إلى اليمن، ثم ضرب أخرى فذهبت برقة إلى الشام، ثم ضرب ثالثة فذهبت برقة نحو المشرق، وكسر الحجر عند الثالثة.

---

(١) بحار الأنوار ج٢٠ ص٢٧٠ و ٢٧١ عن الكافي.

فكان عمر بن الخطاب يقول: والذي بعثه بالحق، لصار كأنه سهلة (رمل ليس بالدقاق).

وكان كلما ضرب ضربة يتبعه سلمان ببصره، فيبصر عند كل ضربة برقة، فسأله عن ذلك، فأخبره «صلى الله عليه وآله»: أنه رأى في الأولى قصور الشام، وفي الثانية قصور اليمن، وفي الثالثة قصر كسرى الأبيض بالمدائن. وجعل يصفه لسلمان؛ فصدقه سلمان، وشهد له بالرسالة.

فقال «صلى الله عليه وآله»: هذه فتوح يفتحها الله عليكم بعدي يا سلمان لتفتحن الشام، ويهرب هرقل إلى أقصى مملكته، وتظهرون على الشام فلا ينازعكم أحد ولتفتحن اليمن، وليفتحن هذا المشرق، ويقتل كسرى بعده.

قال سلمان: فكل هذا قد رأيت[1].

ونقول:

إن هذا النص ـ كما ترى ـ يخالف جميع النصوص الأخرى الواردة في كتب الصحاح، والمسانيد، وفي كتب التاريخ، التي سجلت لنا هذا الحدث الهام.

حيث إنه يذكر: أن عمر بن الخطاب هو الذي صادف الحجر الصلد، الذي ضربه النبي «صلى الله عليه وآله»، فبرقت البرقات الثلاث.

مع أن النصوص التي أوردتها سائر المصادر المعتبرة بالأسانيد الموثوقة: قد

---

(١) المغازي للواقدي ج٢ ص٤٥٠ و ٤٤٩ وإمتاع الأسماع ج١ ص٢٢٣ واشار إليه في سبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥١٩ و ٥٢٠ عن الواقدي ووفاء الوفاء ج٤ ص١٢٠٨.

نصت على أن القضية بجميع فصولها وخصوصياتها، وجزئياتها قد كانت مع سلمان الفارسي.

بل قد ذكر النص الذي أوردناه أولاً: أسماء ثلاثة ليس عمر بن الخطاب أحدهم. ثم صرح بأن الستة الباقين جميعهم من الأنصار.

بل إن نفس هذا النص الذي ذكرناه آنفاً، والذي أراد حشر اسم الخليفة الثاني في هذه القضية، قد عاد والتزم جانب سلمان، بمجرد أن أخذ النبي «صلى الله عليه وآله» المعول ليضرب به ذلك الحجر ولم يعد لعمر فيه أي دور يذكر.

وكل ذلك يعطينا: أن ذكر اسم الخليفة الثاني هنا قد جاء سهواً من الراوي، ولعل ثمة حاجة في النفس قضيت.

القيادة الحازمة، والإنضباط أساس النجاح:

وبعد، فإن سيطرة القيادة النبوية الشريفة على الموقف وإشرافه «صلى الله عليه وآله» على كل تحرك وتصرف، واستتباب حالة الانضباط التام لدى الفئات التي كانت تعمل معه وتحت قيادته، له تأثير كبير في حسم الموقف، وفقاً لما ترسمه القيادة ويحقق أهدافها.

وقد تجلت الهيمنة القيادية للرسول الأعظم «صلى الله عليه وآله» في أكثر من مجال في غزوة الأحزاب.

وقد قرأنا آنفاً: أنهم حين ظهرت الكدية والصخرة، قالوا: إنهم ما كانوا يتجاوزون ما خطه رسول الله «صلى الله عليه وآله» أبداً، رغم أن المعدل قريب.

وتقدم أيضاً: أن أحداً لم يكن يترك موضعه وعمله لحاجة يريدها إلا أن يأذن له النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله». وهذا هو ما طالب به أمير المؤمنين «عليه السلام» بعض أصحابه في صفين، حين قال له: طاعة إمامك أوجب عليك من مبارزة عدوك، ونجد أمثال هذه الكلمة في مغزاها ومرماها الكثير في مختلف المواضع والمواقع.

وهذا الانضباط هو الضمانة للنجاح في أية خطة ترسم، إذ إن القبول بالانسياق وراء الاجتهادات المختلفة يفقد القيادة الثقة بإمكانية تحقيق أية خطة تضعها للمواجهة، ثم هو يفسح المجال لتمرير بعض الخدع التي تفيد الأعداء، وتهيئ لهم الظرف الملائم لتسديد ضرباتهم الموجعة، والخطيرة في أحيان كثيرة.

أضف إلى ذلك: ما يمكن أن ينشأ عن ذلك من منافسات ثم من نزاعات، إلى أن ينتهي الأمر إلى التراشق بالتهم وتصدع الصف الواحد، الذي يفترض أن يكون كالبنيان المرصوص.

ولم ينس المسلمون بعد، ما أصابهم في حرب أحد حيث تسبب الرماة والذين تركوا مراكزهم على ثغرة الجبل بكارثة حقيقية مني بها المسلمون كما سبق بيانه.

ومهما يكن من أمر: فإن الانضباط في غزوة الأحزاب، والتقيد بأوامر النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله» قد هيأ الفرصة لتحقيق النجاح الكبير الذي غير مسار تاريخ المواجهة مع المشركين، حتى قال النبي «صلى الله عليه وآله»: الآن نغزوهم ولا يغزوننا كما سيأتي ذلك مع مصادره في الفصل الأخير من هذا الباب إن شاء الله.

نقول هذا رغم أننا نجد المنافقين: يحاولون التملص من تحمل مسؤولياتهم، ويختلقون الذرائع والحجج المختلفة لذلك، ولكن ذلك كان يتم وفقاً لقوانين الانضباط أيضاً، فقد كانوا يورون بالضعيف من العمل، وكانوا يستأذنون لحاجات وهمية، وما إلى ذلك، ولكنه كله كان تحت سمع وبصر القيادة وفي نطاق علمها، وسيطرتها على الموقف كما هو معلوم.

مدائن كسرى وقصور الروم وصنعاء:

إننا حين نقرأ هذه القضية نشعر: أن المسلمين كانوا يواجهون أكبر تجمع لقوى الشرك، ويتهيأون للدفاع عن وجودهم وحياتهم وهم يشعرون بعظيم الخطر الداهم، وتختلف في نفوسهم عوامل اليأس تارة، وعوامل الرجاء تارة أخرى.

ولعل المنافقين، ومن وراءهم اليهود، قد أسهموا بتضعيف عوامل الرجاء بما أشاعوه وأذاعوه مما يؤكد ويقوي حالة التشاؤم إلى درجة اليأس لدى الكثيرين ممن لم ترسخ لهم بعد قدم في الإيمان والتسليم، والتوكل.

فتأتي قصة رؤية قصور الحيرة والروم وصنعاء، ومدائن كسرى حينما ضرب النبي «صلى الله عليه وآله» تلك الصخرة المستعصية في الخندق ضربات ثلاثاً ـ تأتي ـ لتعيد للمسلمين ثقتهم بأنفسهم وبربهم، وتطلعاتهم ونظراتهم القوية والثاقبة للمستقبل، ويبتعد حينئذٍ تلقائياً شبح الخوف المذل والاستسلام الخانع لعوامل اليأس، التي لو تمكنت وترسخت فيهم لجرتهم إلى مزالق الذل، ولكان ذلك سبباً في ذهاب ريحهم وسقوطهم في حمأة الهوان، والبوار.

إذ إن الحادثة قد استنبطت: أن ما هم فيه ما هو إلا «سحابة صيف عن قريب تقشع» وأنهم سيخرجون من هذه الضائقة التي يواجهونها مرفوعي الرأس، ليواصلوا مسيرتهم الظافرة من نصر إلى نصر، ومن فتح إلى فتح، حتى ينتهي بهم الأمر إلى فتح الفتوح، حيث تفتح لهم البلاد، وتدخل العباد في دينهم أفواجاً، ويملكون كنوز كسرى وقيصر، حسبما أخبرهم به الرسول «صلى الله عليه وآله» منذ فجر دعوته في مكة.

ومما يدخل في هذا السياق: ما روي من أنه «صلى الله عليه وآله» قال يوم الخندق لأصحابه: لئن أمسيتم قليلاً، لتكثرن، وإن أمسيتم ضعفاء لتشرقن، حتى تصيروا نجوماً يهتدى بكم، وبواحد منكم[1].

الأمل بالنصر:

وذلك كله يوضح لنا: سر اطمئنان المؤمنين بنصر الله لما رأوا الأحزاب وقد أحاطوا بالمدينة، وضيقوا عليها الخناق، فلم ينهزموا أمام كل تلك الحشود، وما وهنوا لما أصابهم، بل واجهوا ذلك بكل صلابة عزم، وبكل تصميم قاهر، تحدث الله عنه سبحانه حينما قال:

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾[2]»[3].

أما المنافقون، فاتخذوا ما أخبر به النبي «صلى الله عليه وآله» ذريعة

---

(١) الخرائج والجرائح ج١ ص٦٦.

(٢) الآية ٢٢ من سورة الأحزاب.

(٣) فتح الباري ج٧ ص٣٠٥.

للمزيد من السخرية، والتندر والاستهزاء، الذي يعبر عن انهزامهم النفسي والروحي أمام القوى الغازية قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً﴾[١].

كرم وكرامة:

وقضية وليمة جابر في الخندق تروى بنصوص مختلفة نلخصها فيما يلي:

قال جابر: رأيت رسول الله «صلى الله عليه وآله» يحفر، ورأيته خميصاً ورأيت بين عكنه الغبار؛ فاستأذن من النبي «صلى الله عليه وآله» أن يذهب إلى بيته، فأذن له فعاد إلى امرأته ـ واسمها سهيلة بنت مسعود الأنصارية ـ فاتفق معها على أن يصلحا ما عندهما، وهو مد من شعير، وعناق (شاة) أو شويهة غير سمينة. ثم يدعو النبي «صلى الله عليه وآله» للطعام.

فذهب ليدعوه مع رجل أو رجلين؛ فسأله النبي «صلى الله عليه وآله» عما عنده فأخبره؛ فقال «صلى الله عليه وآله»: كثير طيب.

ثم دعا أهل الخندق جميعاً، وقال لهم: إن جابراً قد صنع لهم سوراً؛ فأقبلوا معه.

قال جابر: فقلت: والله إنها الفضيحة.

فأتيت المرأة فأخبرتها (أي بأنه «صلى الله عليه وآله» قد جاءها بالجند أجمعين، أو قد جاءك رسول الله «صلى الله عليه وآله» وأصحابه أجمعون).

فقالت: أنت دعوتهم، أو هو دعاهم؟

---

(١) الآية ١٢ من سورة الأحزاب.

فقلت: بل هو دعاهم.

قالت: دعهم، هو أعلم.

وفي نص آخر: أنها سألته إن كان رسول الله «صلى الله عليه وآله» قد سأله عما عنده.

فأجابها بالإيجاب، فقالت له ذلك.

وذكرت نصوص أخرى: أنه «صلى الله عليه وآله» أقبل وأمر أصحابه، فكانوا فرقاً عشرة عشرة، ثم قال اغرفوا وغطوا البرمة، وأخرجوا من التنور الخبز ثم غطوه. ففعلوا، فجعلوا يغرفون، ثم يغطون البرمة، ثم يفتحونها فلا يرون أنها نقصت شيئاً، ويخرجون الخبز من التنور، ثم يغطونه فما يرونه ينقص شيئاً؛ فأكل الجميع حتى شبعوا.

وقال «صلى الله عليه وآله»: كلوا واهدوا، فإن الناس أصابتهم مجاعة شديدة فأكلنا وأهدينا.

وفي نص آخر: فلم نزل نأكل ونهدي يومنا ذلك أجمع، فلما خرج رسول الله «صلى الله عليه وآله» ذهب ذلك.

ولهذه الرواية: نصوص تختلف من حيث التفصيل والإختصار، لم نر حاجة إلى إيرادها، ويمكن لمن يريد ذلك أن يراجع المصادر التي في الهامش[1].

---

(١) راجع النصوص المختلفة لهذه القضية في: المغازي للواقدي ج٢ ص٤٥٢ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٨٦ ـ ١٩٠ وتفسير القمي ج٢ ص١٧٨ و ١٧٩ وبحار الأنوار ج٢٠ ص٢١٩ و ٢٢٠ و ١٩٨ و ١٩٩ وج ١٨ ص٢٦ ج٧ وص٣٢ حديث ٢٥ ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٤١٦ و ٤١٥ و ٤٢٧ ومستدرك الحاكم ج٣ =

وقد صرحت بعض المصادر: بأن الذين أكلوا عند جابر كانوا ألف رجل، وهم جميع أهل الخندق.

وقيل: كانوا ثلاث مئة، وقيل: ثمان مئة، وقيل: تسع مئة[1].

وفي بعض النصوص: حتى شبع المسلمون كلهم.

= ص٣١ وراجع: تاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص٢٣٤ و ٢٣٥ والسيرة الحلبية ج٢ ص٣٢٩ و ٣٣٠ وصحيح البخاري ج٣ ص٢١ والبداية والنهاية ج٤ ص٩٧ ـ ٩٩ عن البخاري، وأحمد، والبيهقي، وابن أبي شيبة، ومسلم، وابن إسحاق وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٢٠ و ٥٢١ عمن تقدم، وعن الحاكم والطبراني وحدائق الأنوار ج١ ص٢١٢ وج ٢ ص٥٩٢ وشرح الشفاء للقاري (ط سنة ١٢٦٤) ج١ ص٢٤٥ و ٢٤٦ وعيون الأثر ج٢ ص٥٧ و ٥٨ ودلائل النبوة لابن نعيم ص٣٥٨ و ٣٦٠ والشفاء ج١ ص٢٩١ وإعلام الورى (ط دار المعرفة) ص٣٦ وصحيح مسلم، كتاب الأشربة، باب جواز استتباعه غيره والخرايج والجرايح ج١ ص٢٧ و ١٥٢ ـ ١٥٤ وإثبات الهداة ج٢ ص٨٨.

(١) البداية والنهاية ج٤ ص٩٨ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٨٨ و ١٨٩ و ١٩٠ عن البخاري وابن أبي شيبة وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٢١ و ٥٦٤ ودلائل النبوة لأبي نعيم ص٣٦٠ والشفاء ج١ ص٢٩١ ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٤٢٤ و ٤٢٦ وعن فتح الباري ج٧ ص٣٩٥، وراجع: تاريخ ابن الوردي ج١ ص١٦١ والسيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢٢٩ والإكتفاء للكلاعي ج٢ ص١٦١ وإعلام الورى ص٩٠ والسيرة الحلبية ج٢ ص٢٣٣ وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص٢٣٤ و ٢٣٥ والمختصر في أخبار البشر ج١ ص١٣٤ و ١٣٥ وعيون الأثر ج٢ ص٥٧ و ٥٨ والسيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٤ وحدائق الأنوار ج١ ص٥٣ و ٢١٢ وج ٢ ص٥٩٢.

زاد ابن شهرآشوب: فلم يكن موضع للجلوس، فكان يشير إلى الحائط، والحائط يبعد، حتى تمكنوا، فجعل يطعمهم بنفسه[1].

وفي نص آخر: أنه «صلى الله عليه وآله» قال: هل دللتم على رجل يطعمنا أكلة؟

فدلوه على رجل، فذهب إلى بيته، ولكنه كان في الخندق يعالج نصيبه، فأرسلت إليه امرأته، فأقبل يسعى، فذبح لهم جدياً كان عنده فأكل منه عشرة، ثم ذهبوا، وجاء عشرة آخرون فأكلوا.

«ثم قام «صلى الله عليه وآله» ودعا لربة البيت، وسمت عليها، وعلى أهل بيتها»[2].

قضية أخرى فيها كرامة لرسول الله ﷺ:

وأرسلت أم متعب (أو أم عامر) الأشهلية بقعبة فيها حيس[3] إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وهو في قبته مع أم سلمة، فأكلت حاجتها، ثم خرج بالقعبة فنادى مناديه: هلم إلى عشائه، فأكل أهل الخندق حتى

---

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم ص٣٦٠ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٨٨ وراجع: الخرائج والجرائح ج١ ص١٥٤ و ١٥٥ والبحار ج١٨ ص٣٢ حديث ٢٥ والمناقب لابن شهراشوب ج١ ص١٠٣.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٩٣ و ١٩٤ والبداية والنهاية ج٤ ص١٠١ و ١٠٠ عن الطبراني، وراجع: فتح الباري ج٧ ص٣٠٥.

(٣) الحيس: طعام متخذ من التمر والسمن، والدقيق والفتيت.

نهلوا، وهي كما هي[1].

كرامة أخرى للنبي ﷺ:

وبعث أبو طلحة إنساناً بأقراص من الشعير تحت إبطه، ففتها «صلى الله عليه وآله» وأطعم منها ثمانين[2].

يطعم الجيش كله حفنة من تمر:

ومما ذكره في هذا السياق: أن ابنة بشير بن سعد[3] جاءت بحفنة من تمر إلى أبيها وخالها عبد الله بن رواحة؛ فرآها رسول الله «صلى الله عليه وآله» وهي تلتمس أباها وخالها، فأخذ ذلك منها في كفه فما ملأتها، ثم أمر بثوب فبسط له، ثم دحا بالتمر عليه، فتبدد فوق الثوب.

ثم أمر جعال بن سراقة، فصرخ في أهل الخندق: أن هلم إلى الغداء؛ فاجتمعوا، فجعلوا يأكلون منها، وجعل يزيد، حتى صدر أهل الخندق عنه، وأنه ليسقط من أطراف الثوب[4].

---

(١) إمتاع الأسماع ج١ ص٢٣٥ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٢٢ عن ابن عساكر، والمغازي للواقدي ج٢ ص٤٧٧ والسيرة الحلبية ج٢ ص٣٣٠.

(٢) حدائق الأنوار ج٢ ص٥٩٢ وسنن الدارمي ج١ ص٢١ و ٢٢ (المقدمة).

(٣) هي أخت النعمان بن بشير.

(٤) راجع: السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢٢٨ و ٢٢٩ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٢١ و ٥٢٢ عن أبي نعيم، وابن إسحاق والإكتفاء للكلاعي ج٢ ص١٦٠ و ١٦١ وتاريخ ابن الوردي ج١ ص١٦٠ و ١٦١ وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص٢٣٥، والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٩٠ و ١٩١ والبداية =

كرامة أخرى لرسول الله ﷺ:

عن معاوية بن الحكم قال: لما أجرى أخي علي بن الحكم فرسه فدق جدار الخندق ساقه، فأتينا به إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» على فرسه، فقال: بسم الله، ومسح ساقه، فما نزل عنها حتى برئ[1].

بين نظرتين:

ألف: ويلفت نظرنا في قصة جابر: أن جابراً قد تصرف وفق ما وجد أنه متوفر لديه من معطيات مادية، حيث رأى أن ما عنده لا يكفي إلا لعدد يسير من الأشخاص، ولكن رسول الله «صلى الله عليه وآله» لم يكن ليجعل نفسه أسيرة للأسباب المادية في حدودها الظاهرة.

بل تجاوز ذلك ليتعامل مع مسبب الأسباب، ومفيض الوجود مباشرة، وهو الله سبحانه، ولم يكن الله ليبخل على نبيه «صلى الله عليه وآله» في وقت يحتاج فيه هؤلاء الناس إلى الشعور برعاية الله سبحانه لهم.

وحتى مع إغماض النظر عن ذلك كله، في الأسوة والقدرة، لم يكن

= والنهاية ج٤ ص٩٩ والسيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٤ وإمتاع الأسماع ج١ ص٢٣٥ وجوامع السيرة النبوية ص١٤٨ والسيرة الحلبية ج٢ ص٣٢٩ ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٤٢٧ ودلائل النبوة لابي نعيم ص٤٣٣ والمختصر في أخبار البشر ج١ ص١٣٤ وعيون الأثر ج٢ ص٥٧ والمغازي للواقدي ج٢ ص٤٧٦ وبحار الأنوار ج٢٠ ص٢٤٧ والخرائج والجرائح ج١ ص١١٠ و ١٢٣ وفيه: أنها أخت عبد الله بن رواحة وكذا في مناقب آل أبي طالب ج١ ص١٠٢.

(١) سبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٢٢ عن الطبراني، وأبي القاسم البغوي.

ليميز نفسه عن الناس، بل هو سوف يواسيهم بنفسه فيما قل وكثر، وفيما صغر وكبر. وذلك هو ما تمليه عليه التعاليم والمبادئ التي جاء بها من عند الله جل وعلا.

والذي يستأثر بإعجابنا العميق هو تلك اللفتة الواعية من زوجة جابر، والتي تظهر لنا أيضاً مدى إيمان هذه المرأة ومدى تسليمها لرسول الله «صلى الله عليه وآله». كما أنها تحكي لنا طبيعة ونوعية وسنخ اعتقادها بهذا الرسول الكريم والعظيم.

وذلك حينما أخرجت زوجها جابراً من حيرته المحرجة بسؤالها له: إن كان النبي «صلى الله عليه وآله» قد علم بمقدار الطعام المتوفر عندهم، فأجابها بالإيجاب، فقالت: الله ورسوله أعلم.

ومن يدري فلعل النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله» قد عرف أن هذا الإخلاص من جابر وزوجته، ثم الإيثار منه «صلى الله عليه وآله»، وحبه لأصحابه، وإقدامه على تقسيم هذا القليل من الطعام معهم، ثم إخلاص صحابته الأخيار في دفاعهم عن أنفسهم، وعن كرامتهم، وشرفهم ودينهم، ونبيهم، وهذه المتاعب الكبيرة، والمصاعب الخطيرة التي تواجههم، بالإضافة إلى أن الله سبحانه لن يخيب نبيه ووليه وصفيه،

نعم.. إن ذلك كله إذا اقترن بأن اللطف الإلهي لا بد أن يظهر في هذه الفترة العصيبة بالذات ليطمئن المؤمنون إلى نصر الله سبحانه، فإن زيادة الطعام الذي قدمه جابر، حتى ليأكل المسلمون كلهم حاجتهم منه، تصبح أمراً مقبولاً ومعقولاً، وفي محله..

التزوير الرخيص:

زعم الشعراني: «أنه شاهد شيخه الشيخ محمد الشنَّاوي، وقد جاء من الريف، ومعه نحو خمسين رجلاً، ونزل بزاوية شيخه الشيخ محمد السروي، فتسامع مجاورو الجامع الأزهر بمجيئه، فأتوا لزيارته، فامتلأت الزاوية، وفرشوا الحصر في الزقاق.

ثم قال لنقيب شيخه: هل عندك طبيخ؟!

قال: نعم، الطبيخ الذي أفعله لي ولزوجتي.

وقال له: لا تغرف شيئاً حتى أحضر.

ثم غطى الشيخ الدست بردائه، وأخذ المغرفة، وصار يغرف إلى أن كفى من في الزاوية، ومن في الزقاق. وهذا شيء رأيته بعيني»[1].

ونحن إذا قارنَّا بين هذا الكلام وبين قضية وليمة جابر، فإننا نجد أن هذا النص أراد أن يعطي الشناوي نفس الكرامة التي ثبتت لرسول الله «صلى الله عليه وآله» حين استجاب لدعوة ذلك الرجل الصالح «رحمه الله».

والذي يستوقفنا هنا: ثقة الشنَّاوي بحصول الكرامة له، وكأنه يمارس عملاً عادياً لا يشك في انتهائه إلى النتيجة التي يريدها. تماماً كما كان الحال بالنسبة للنبي «صلى الله عليه وآله» في الخندق.

وليت شعري لماذا لم يشتهر أمر الشنَّاوي في الآفاق، وتسير به الركبان من بلد إلى بلد، ويصبح قبره كقبر النبي «صلى الله عليه وآله» في المدينة المنورة تشد إليه الرحال، وتقصده النساء والرجال من أقصى بلاد المعمورة؟

---

(١) السيرة الحلبية ج٢ ص٣٣١.

مع أننا نجدهم يقصدون زيارة قبور أناس صالحين لم تظهر لهم حتى ولو كرامة واحدة من هذا القبيل!!

الجهد، والضعف والجوع:

قد تحدثت النصوص التي سلفت في هذا الفصل، وفي غيره من الفصول، عن المعاناة التي كان يتعرض لها المسلمون بسبب شحة الأقوات في تلك السنة بالذات حيث: «كان المسلمون قد أصابهم مجاعة شديدة، وكان أهلوهم يبعثون إليهم بما قدروا عليه»[1].

وذكر **نص آخر**: أن حفر الخندق كان في زمان عسيرة، وعام مجاعة حتى أن الأصحاب كانوا يشدون على بطونهم الحجر من الجهد والضعف الذي بهم من الجوع، ويقول البخاري: إنهم لبثوا ثلاثة أيام لا يذوقون ذواقاً، وكذا النبي «صلى الله عليه وآله»[2].

وفي نص آخر: «يأتون بملء كفي شعير، فيصنع لهم بإهالة سنخة توضع بين يدي القوم، والقوم جياع، وهي بشعة في الحلق، ولها ريح منتن»[3].

---

(١) إمتاع الأسماع ج١ ص٢٣٥ والمغازي للواقدي ج٢ ص٤٧٦.

(٢) راجع مصادر حديث جابر الذي أوردناه في فقرة: كرم وكرامة. وراجع أيضاً: السيرة الحلبية ج٢ ص٣٢٩ وتاريخ الخميس ج١ ص٤٨٢.

(٣) راجع: السيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٨٤ والبداية والنهاية ج٤ ص٩٦ عن البخاري، وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص٢٤٥ وصحيح البخاري ج٣ ص٢٠ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥١٧ ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٤١٢ وعن فتح الباري ج٧ ص٣٩٧.

ويقول أبو طلحة: «شكونا إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» الجوع، ورفعنا عن بطوننا عن حجر، حجر، فرفع رسول الله «صلى الله عليه وآله» عن بطنه حجرين»(١).

ويقول نص آخر: «وكانوا في قر شديد وجوع»(٢).

وعن علي أمير المؤمنين «عليه السلام»، قال: «كنا مع النبي «صلى الله عليه وآله» في حفر الخندق إذ جاءته فاطمة، ومعها كسرة خبز، فدفعتها إلى النبي «صلى الله عليه وآله» وقال النبي عليه وعلى آله الصلاة والسلام: ما هذه الكسرة؟!

قالت: قرصاً خبزتها للحسن والحسين، جئتك منه بهذه الكسرة.

فقال النبي «صلى الله عليه وآله»: أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاث(٣).

ولنا هنا وقفات:

الأولى: النبي ﷺ وصوم الوصال:

لقد ذكروا: أن النبي «صلى الله عليه وآله» نهى عن صوم الوصال، فقالوا له: ما لك تواصل يا رسول الله؟!

قال: إني لست مثلكم، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني.

---

(١) السيرة النبوية للندوي ص٢٨٢ عن الترمذي.

(٢) سبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٢٩.

(٣) عيون أخبار الرضا ج٢ ص٤٠ وذخائر العقبى ص٤٧ وبحار الأنوار ج٢٠ ص٢٤٥ وصحيفة الإمام الرضا «عليه السلام» ط دار الأضواء ص٧١ و ٧٢.

قال ابن حبان: ويستدرك بهذا الحديث على بطلان ما ورد: أنه «صلى الله عليه وآله»، كان يضع الحجر على بطنه، لأنه كان يطعم ويسقى من ربه إذا واصل. فكيف يترك جائعاً مع عدم الوصال، حتى يحتاج إلى ربط الحجر على بطنه؟!

قال: وإنما لفظ الحديث: الحجز، بالزاي، وهو طرف الإزار. فصحفوا، وزادوا لفظ الجوع.

وأجيب: بأنه «لا منافاة، كان «صلى الله عليه وآله» يطعم ويسقى إذا واصل في الصوم، أي يصير كالطاعم والساقي، تكرمة له. ولا يحصل له ذلك دائماً، بل يحصل له الجوع في بعض الأحايين، على وجه الابتلاء الذي يحصل للأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، تعظيماً لثوابهم»[١].

أضف إلى ذلك: أن توجه ابن حبان هذا، ودعواه تصحيف كلمة الحجز بالحجر لا تتلاءم مع ما تقدم عن علي «عليه السلام»، ولا مع ما تقدم عن جابر في قصة اندفاعه لتهيئة طعام للنبي «صلى الله عليه وآله» لما رآه خميصاً، ولا مع ما ذكر في قصة سلمان حينما طلب من النبي «صلى الله عليه وآله» أن يعالج الصخرة.

الثانية: العزم والثبات:

ويلفت النظر هنا: أنه رغم كل ما كان يعانيه المسلمون من جهد وضعف وجوع، وبرد ـ كما يقولون ـ فإن ذلك لم ينل من عزمهم، ولم يؤثر

(١) السيرة الحلبية ج٢ ص٣٢٩.

على إرادتهم، ولا هزمهم روحياً. بل استمروا في تصميمهم على تنفيذ قرارهم بالمواجهة، ولم يحملهم ذلك على الدخول في أي مساومة، وتقديم أية تنازلات.

ولا شك: في أن للعامل الإيماني دوره الحساس في هذا المجال، ولعل العامل الأهم هنا: هو توفر القيادة الحكيمة والواعية والحازمة، المرتبطة بالله سبحانه، المتمثلة بشخصية النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله».

الثالثة: الخصاصة والجوع:

قد تعودنا من أولئك الذين يتعاقبون على كراسي الحكم: أن يكونوا من أصحاب الأموال الطائلة، وأهل الثراء الفاحش، مع السعي الحثيث منهم للتمتع بمباهج الحياة، والتقلب في ملذاتها، واهتمام ظاهر بما فيها من زينة، وبهارج، في حين تكون شعوبهم تعاني من النصب والحرمان، ومن الحاجة والخصاصة بدرجة قبيحة ومزرية.

إن لم نقل: إن الكثيرين من هؤلاء الحكام هم الذين يمتصون دماء شعوبهم، ويعبثون بمقدراتها، ويختلسون كل ما قدروا عليه من أموالها.

أما نبينا الأكرم «صلى الله عليه وآله»: فإنه على عكس ذلك تماماً، فها هو في أيام الخندق يربط الحجر، ولا يستأثر نفسه بشيء من حطام الدنيا. بل إنه حتى حينما يرغب أحدهم في استضافته على الشيء القليل جداً في هذا الظرف العصيب بالذات، لا يرضى «صلى الله عليه وآله» إلا أن يشاركه المسلمون جميعاً في ضيافته تلك، فيبارك الله سبحانه في ذلك الطعام، وتكون الكرامة من الله سبحانه لرسوله الأكرم «صلى الله عليه وآله».

ثم نجد علياً أمير المؤمنين «عليه السلام» خير من يتأسى برسول الله «صلى الله عليه وآله»، ويسير على نهجه، وينسج على منواله. فإنه رغم أنه كان قد أنشأ ـ بكد يده، وبعرق جبينه ـ الكثير من الضياع والبساتين، لكنه لم يكن يستفيد منها بتحسين وضعه المعيشي، ولا أحدثت تغييراً في حياته الخاصة، بل كان يتصدق بها ويوزعها على الفقراء والمحتاجين، وقد أوقف عامتها على جهات البر المختلفة، ثم لم يزل يلبس الخشن، ويأكل الجشب إلى أن توفاه الله سبحانه.

وحسبك ما كتبه لعثمان بن حنيف: يلومه على حضوره وليمة دعي إليها:

قال «عليه السلام»: «ألا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به، ويستضيء بنور علمه، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه، ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع، واجتهاد، وعفة وسداد. فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً، ولا ادخرت من غنائمها وفراً، ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً، ولا حزت من أرضها شبراً، ولا أخذت منه إلا كقوت أتان دبرة، ولهي في عيني أوهى وأهون من غصة مقرة»[1].

إلى أن قال: «ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القز. ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة، ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشبع.

أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى، وأكباد حرى، أو أكون كما قال القائل:

---

(١) الأتان الدبرة: التي عقر ظهرها فقل أكلها. مقرة: مرة.

وحسبك داء أن تبيت ببطنة   وحولك أكباد تحن إلى القد

أأقنع من نفسي بأن يقال: هذا أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش؟ فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات، كالبهيمة المربوطة، همها علفها، أو المرسلة، شغلها تقممها[١]، تكترش[٢] من أعلافها، وتلهو عما يراد بها».

إلى أن قال: «وكأني بقائلكم يقول: إذا كان هذا قوت ابن أبي طالب، فقد قعد به الضعف على قتال الأقران، ومنازلة الشجعان. ألا وإن الشجرة البرية أصلب عوداً، والروائح الخضرة أرق جلوداً، والنباتات العذية[٣] أقوى وقوداً، الخ..»[٤].

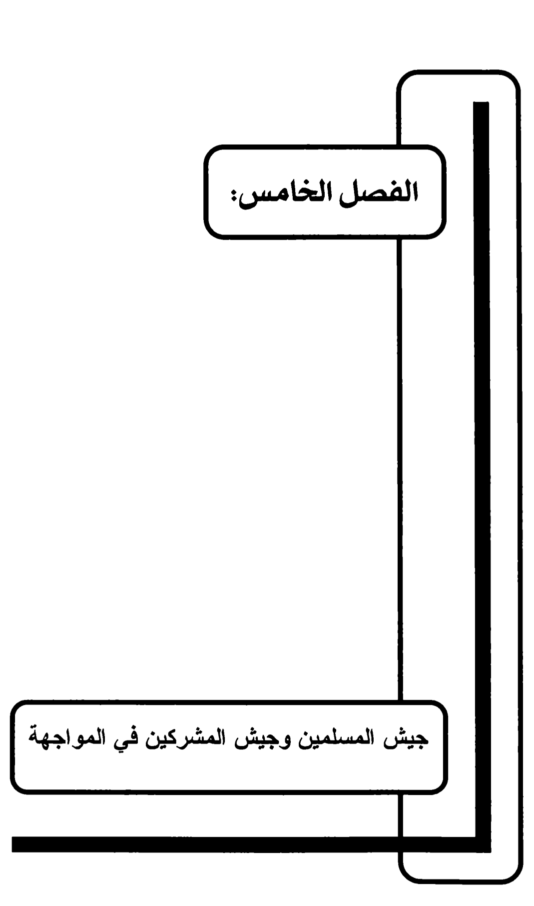
---

(١) التقمم: التقاط القمامة.

(٢) تكترش: تملأ كرشها.

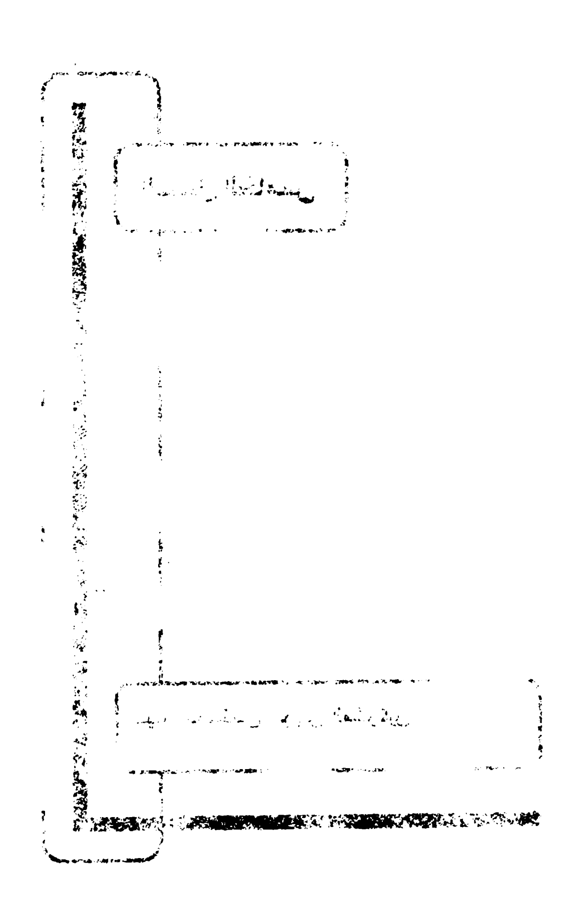
(٣) العذي: الزرع لا يسقيه إلا ماء المطر.

(٤) نهج البلاغة (تحقيق صبحي الصالح، ط سنة ١٣٨٧ هـ. ق) ص٤١٧ و ٤١٨.



الفصل الخامس:

جيش المسلمين وجيش المشركين في المواجهة



الإعداد والإستعداد:

قال البلاذري: «بلغ رسول الله «صلى الله عليه وآله» الخبر، فندب المسلمين إلى قتال الأحزاب، وخرج فارتاد لعسكر المسلمين»[1]. وكان خروجه بعد أن استخلف على المدينة ابن أم مكتوم[2].

وحسب نص الصالحي الشامي: «ركب فرساً ومعه عدة من المهاجرين والأنصار فارتاد موضعاً، وكان أعجب المنازل إليه أن يجعل سلعاً الجبل خلف ظهره، ويخندق الخ..»[3].

---

(١) أنساب الأشراف ج١ ص٣٤٣.

(٢) راجع: الثقات ج١ ص٢٦٦ والتنبيه والإشراف ص٢١٦ وزاد المعاد ج٢ ص١١٧ وجوامع السيرة النبوية ص١٤٩ والسيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢٣١ والعبر ج٢ ق ٢ ص٢٩ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٩٧ والبداية والنهاية ج٤ ص١٠٣ و ١٠٢ وتاريخ الخميس ج١ ص٤٨١ والسيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٤ والسيرة الحلبية ج٢ ص٣١٥ و ٣١٤ وإمتاع الأسماع ج١ ص٢١٦ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٢٣ ونهاية الأرب ج١٧ ص١٦٨ والمغازي للواقدي ج٢ ص٤٤١ وعيون الأثر ج٢ ص٥٧.

(٣) سبل الهدى والرشاد ج٤ ص٤١٤ و ٤١٥.

وكان خروجه «صلى الله عليه وآله» لثمان خلون من ذي القعدة، أو شوال، حسبما تقدم، ويقال: إن خروجه «صلى الله عليه وآله» كان في يوم الإثنين[1].

واختار «صلى الله عليه وآله» ذلك الموضع المكشوف للخندق، وجعل معسكره تحت جبل سلع[2] أو سفح سلع، أو سطح سلع، أو جعل سلعاً وراء ظهره، والخندق بينه وبين القوم[3].

يقول البعض: «فلو أن العدو عبر الخندق لقدمت سلع للمدافعين

---

(١) راجع: نهاية الأرب ج١٧ ص١٧٠ وغير ذلك من المصادر السابقة واللاحقة

(٢) تاريخ الخميس ج١ ص٤٨١ السيرة الحلبية ج٢ ص٣١٥.

(٣) راجع المصادر المتقدمة في الهوامش السابقة، وفي: البداء والتاريخ ج٤ ص٢١٧ ووفاء الوفاء ج١ ص٣٠١ و٣٠٠ وج ٤ ص١٢٠٤ والمغازي للواقدي ج٢ ص٤٥٤ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ ق ٢ ص٢٩ والسيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢٣١ وزاد المعاد ج٢ ص١١٧ والكامل في التاريخ ج٢ ص١٨٠ والإكتفاء للكلاعي ج٢ ص١٦٢ و ١٦٣، وأنساب الأشراف ج١ ص٣٤٣ وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص٢٣٦ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٢٣٧ وجوامع السيرة النبوية ص١٤٩ وفتح الباري ج٧ ص٣٠٧ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٤١٥ و ٥١٤ و ٥٢٣ وتهذيب سيرة ابن هشام ص١٩٠ ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٤٢٨ وبهجة المحافل ج١ ص٢٦٤ والمواهب اللدنية ج١ ص١١٢ وإمتاع الأسماع ج١ ص١٢٥ والبداية والنهاية ج٤ ص١٠٢ ومجمع البيان ج٨ ص٣٤٢ وبحار الأنوار ج٢٠ ص٢٠٠ ونهاية الأرب ج١٧ ص١٦٨ وسعد السعود ص١٣٨.

نفس المزايا التي حصلوا عليها في أحد»[١].

ويستفاد مما تقدم: أن موقعهم كان عند سلع من جهة الشام والمغرب[٢].

مقر القيادة:

«وضربت له «صلى الله عليه وآله» قبة من أديم أحمر، على القرن في موضع مسجد الفتح»[٣].

وتقدم في الفصل السابق، حين الكلام عن قصور الروم وفارس: أنها قبة تركية.

وعلى حد تعبير الواقدي: «وضرب قبة من أدم، وكانت القبة عند المسجد الأعلى الذي بأصل الجبل، جبل الأحزاب»[٤].

ونسجل هنا:

ألف : إنه يستفاد من هذا ومما تقدم ـ مع أن بعض النصوص ذكرت: أن النبي «صلى الله عليه وآله» جعل معسكره سطح (أو سفح) سلع ـ: أنه «صلى الله عليه وآله» قد اختار من السفح موضعاً مشرفاً، ومرتفعاً نسبياً يمكنه من مراقبة الوضع بدقة، ثم المبادرة إلى اتخاذ القرار اللازم في الموضع المناسب.

ب: إنه إذا كان المشركون إنما يفكرون بالدنيا، ويرون العزة بما

---

(١) محمد في المدينة ص٥٦.

(٢) وفاء الوفاء ج٤ ص١٢٠٠.

(٣) وراجع أيضاً: تاريخ الخميس ج١ ص٤٨١.

(٤) المغازي للواقدي ج٢ ص٤٥٤ و ٤٥٧ وراجع: السيرة الحلبية ج٢ ص٣١٤ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٢٤.

يحصلون عليه من حطامها، فإن رؤيتهم رسول الله «صلى الله عليه وآله» في مكان مشرف عليهم، وهو في قبة ذات لون متميز من أدم أحمر، سيكون مغيظاً لهم، وسيزيد من حسرتهم وحنقهم، حين يرغمون على التراجع، وهم يجرون أذيال الخيبة والخسران، وقد خلفوا وراءهم قتلى من رؤسائهم وأبطالهم، كما سنرى.

عرض النبي ﷺ الخارجين إلى الحرب:

ثم عرض «صلى الله عليه وآله»: الجيش، وهو يحفر الخندق.

فعن أبي واقد الليثي قال: «رأيت رسول الله «صلى الله عليه وآله» يعرض الغلمان، وهو يحفر الخندق، فأجاز من أجاز، ورد من رد.

وكان الغلمان يعملون مع الذين لم يبلغوا ولم يجزهم، ولكن لما لحم الأمر، أمر من لم يبلغ أن يرجع إلى أهله، إلى الآطام مع الذراري.

إلى أن قال: فكان ممن أجاز رسول الله «صلى الله عليه وآله» يومئذٍ ابن عمر وهو ابن خمس عشرة، وزيد بن ثابت وهو ابن خمس عشرة، والبراء بن عازب وهو ابن خمس عشرة[1]، وأبا سعيد الخدري ولم يردهم.

ويقال: إنه أجازهم قبل ذلك»[2].

قال العسقلاني: «عرض الجيش اختبار أحوالهم قبل مباشرة القتال

---

(١) راجع: المغازي للواقدي ج٢ ص٤٥٣ وأنساب الأشراف ج١ ص٣٤٣ و٣٤٤ وراجع تاريخ الخميس ج١ ص٤٨١ والسيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٣١٤ و ٣١٥ وإمتاع الأسماع ج١ ص٢٢٤ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٢٣.

(٢) أنساب الأشراف ج١ ص٣٤٤ وراجع: السيرة الحلبية ج٢ ص٣١٥.

للنظر في هيبتهم وترتيب منازلهم وغير ذلك»[1].

ومهما يكن من أمر فقد أصبحت المدينة بسبب حفر الخندق كالحصن، حسبما تقدم[2].

النساء والأطفال في الآطام:

ويذكر المؤرخون كافة تقريباً، وهم يتحدثون عن غزوة الخندق: أن النبي «صلى الله عليه وآله» قد جعل النساء والصبيان في الآطام[3].

قال الواقدي: «ورفع النساء والصبيان في الآطام، ورفعت بنو حارثة الذراري في أطمهم، وكان أطماً منيعاً. وكانت عائشة يومئذٍ فيه.

ورفع بنو عمرو بن عوف النساء والذرية في الآطام، وخندق بعضهم حول الآطام بقباء، وحصن بنو عمرو بن عوف ولفها، وخطمة، وبنو أمية، ووائل، وواقف فكان ذراريهم في آطامهم»[4].

الحرس على أبواب الخندق:

ويذكر المؤرخون: أنهم بعد أن حفروا الخندق، وحصنوه «جعل له رسول

---

(١) فتح الباري ج٧ ص٣٠٢.

(٢) إمتاع الأسماع ج١ ص٢٢٣ وراجع أواخر الفصل الثاني، حين الكلام عن تشبيك المدينة بالبنيان.

(٣) قد ذكرت ذلك مختلف المصادر التي تقدمت في هذا الفصل، فمن أرادها فليراجعها.

(٤) المغازي ج١ ص٤٥١.

الله أبواباً[1] وجعل على الأبواب حرساً، من كل قبيلة رجلاً، وعليهم الزبير بن العوام، وأمره إن رأى قتالاً أن يقاتل»[2].

وفي نص آخر: «وجعل على كل باب رجلاً من المهاجرين، ورجلاً من الأنصار مع جماعة يحفظونه»[3].

وتقدم: أن أبواب الخندق كانت ثمانية.

تركيبة الحرس مثار تساؤل:

وأما لماذا اختار النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله» أن تكون تركيبة الحرس على أبواب الخندق بهذا الشكل، فربما يكون السر فيه: هو أنه «صلى الله عليه وآله» قد أراد أن يقطع الطريق على أي تفكير تآمري، من خلال اتصالات سرية فيما بين المشركين والمنافقين أو غيرهم، للتواطؤ على المسلمين. ولو عن طريق الإغراء بالمال، أو الاحتيال، أو التغفيل، حيث يتمكنون من إحداث ثغرة أو أكثر، من شأنها أن تعرض المسلمين للخطر الكبير.

وحين يكون الحرس من كل قبيلة رجلاً، فإن الرقابة على بعضهم البعض تصبح طبيعية، ولن يعود من السهل فتح علاقة مشبوهة مع أي

---

(١) راجع: مغازي الواقدي ج٢ ص٤٥٢ و ٤٥٠ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥١٥ وتاريخ اليعقوبي ج٢ ص٥٠، وراجع: السيرة الحلبية ج٢ ص٢ ص٣١٢ والسيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢٦٧ ووفاء الوفاء ج٤ ص١٢٠٦.

(٢) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٥٠.

(٣) تفسير القمي ج٢ ص١٧٩ وبحار الأنوار ج٢٠ ص٢٢٠.

منهم، ويصبح احتمال تواطؤهم أبعد، واتفاقهم على الخيانة يكون أصعب وأعقد.

ويلفت نظرنا هنا: ذلك النص الذي بُيِّن فيه اهتمام النبي «صلى الله عليه وآله» بمشاركة الأنصار للمهاجرين في هذا الأمر.

ونحن نعلم: أن إمكانية اختراق مشركي أهل مكة للمهاجرين أسهل وأيسر، لأنهم إخوانهم وأبناؤهم، ولم نزل نجد في المهاجرين من يحابي قومه ويهتم بعدم إلحاق المزيد من الأذى بهم بدءاً من حرب بدر، حسبما أوضحناه هناك في قضية فداء الأسرى.

بل لقد وجدنا حتى زوجة النبي «صلى الله عليه وآله» تخرج عن وقارها، وتندفع لتحرض على رسول الله «صلى الله عليه وآله» في بدر، فراجع ما ذكرناه هناك أيضاً عن سودة بنت زمعة.

وتجد في كتابنا هذا، وفي كتاب «**الغدير والمعارضون**» شواهد كثيرة وغزيرة ومثيرة عن مواقف قريش من النبي «صلى الله عليه وآله» وأهل بيته. ولا نرى حاجة لإعادة التذكير بها هنا.

الذراري والنساء في الآطام:

وإن جعل النساء والذراري في مواضع حصينة، وتجميعهم في أماكن معينة يعتبر إجراءً حكيماً، لأنه يوفر على المسلمين معاناة حالة التوزع في الاهتمامات، وانتشارها، ويركزها في نقطة أو نقاط محددة يمكن التركيز عليها في الرعاية الأمنية، وتسهيل تقديم المعونة الفاعلة والمؤثرة والسريعة، وفق خطة مرسومة في الوقت المناسب لو فرض تعرضها لأي خطر من قبل الأعداء.

ثم هي تمكن هؤلاء الضعفاء من أن يفيدوا من مناعة تلك الآطام للدفع عن أنفسهم بدلاً من بيوت واهنة لا تساعد على حمايتهم، ولا تدفع عنهم في شيء.

وبذلك لم يعد النساء والأطفال منتشرين على مساحات واسعة، بصورة تجعلهم هدفاً سهلاً لكل عابث، وعرضة لأطماع الأعداء والسفهاء، الأمر الذي يوجب إرباكاً نفسياً لدى القوى التي يفترض فيها أن تصب كل اهتماماتها على نقطة واحدة، وواحدة فقط، وهي دفع العدو، وإبطال كيده، وإلحاق الهزيمة المخزية به.

وقد يمكن للعدو ـ لو لم تجعل الذراري والنساء في الآطام ـ أن يستفيد من الوضع القائم، فيعتدي أو يتظاهر بالاعتداء على المواقع المختلفة المنتشرة على مساحة المدينة بأكملها، وذلك بهدف زعزعة حالة الاتحاد والانسجام لدى الجيش الإسلامي، ليتمكن من إنزال ضربته القاصمة في الوقت المناسب.

وقد كان بنو قريظة يعرفون تفاصيل مسالك المدينة، لأنهم من أهلها، فقيامهم بأي تسلل إليها سوف يربك الوضع في ساحة القتال بصورة كبيرة وخطيرة.

وقد كان المسلمون يعرفون ذلك، فكانوا يعيشون حالة القلق لولا هذا الإجراء الذي اتخذه النبي «صلى الله عليه وآله».

ومما زاد في الربط على القلوب، وتهدئة المشاعر، واستقرار الحالة النفسية: أنه «صلى الله عليه وآله» قد جعل حراساً يطوفون في المدينة، حتى أصبح واضحاً ليهود بني قريظة ولغيرهم: أن أي تحرك سوف ينتهي بنكسة

خطيرة لهم.

وقد كان في التجربة التي قام بها بعضهم للوصول إلى حصن حسان الذي كانت فيه النساء، وانتهت بقتل ذلك الرجل على يد زينب بنت جحش عبرة لهم وبلاغ.

عقد الألوية للحرب:

أما بالنسبة لعقد ألوية الحرب، فإننا نقول:

ألف: بالنسبة للمشركين، فالمؤرخون يقولون: إنهم عقدوا لواءهم في دار الندوة، وحمله عثمان بن أبي طلحة، وقائد القوم أبو سفيان[1].

ثم وافى المشركون المدينة، فأنكروا أمر الخندق، وقالوا: ما كانت العرب تعرف هذا[2].

ب: بالنسبة للمسلمين، يقول المؤرخون: «وكان لواء المهاجرين بيد زيد بن حارثة، ولواء الأنصار بيد سعد بن عبادة، وكان «صلى الله عليه

---

(١) السيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٢ وراجع: تاريخ الخميس ج١ ص٤٨٠ والسيرة الحلبية ج٢ ص٣١١ والإمتاع ج١ ص٢١٨ وعيون الأثر ج٢ ص٥٦ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥١٣.

(٢) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٥٠ والسيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٥ وراجع: تاريخ الخميس ج١ ص٤٨٤ والسيرة الحلبية ج٢ ص٣١٥ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٣٠، والمغازي للواقدي ج٢ ص٤٧٠ وتفسير القمي ج٢ ص١٨٢ وبحار الأنوار ج٢ ص٢٢٤ ونهاية الأرب ج١٧ ص١٧٣ والإرشاد للمفيد ص٥٢ وكشف الغمة للأربلي ج١ ص٢٠٢ وإعلام الورى (ط دار المعرفة) ص١٠٠.

وآله» يبعث الحرس على المدينة، خوفاً على الذراري من بني قريظة»[1].

ونقول:

إننا لا نهتم لتحريفات المؤرخين هذه، حيث نراهم يتجاهلون الحقيقة الدامغة إرضاء لأسيادهم، وانسياقاً مع أهوائهم وعصبياتهم وتعصباتهم البغيضة.

فها هم يهملون هنا ذكر صاحب الراية العظمى للجيش كله وصاحب لواء رسول الله «صلى الله عليه وآله» في كل مشهد، وهو علي أمير المؤمنين «عليه السلام» مع تصريحهم باسم حامل لواء المهاجرين، وحامل لواء الأنصار.

ونقول هنا:

١ ـ إنه قد تقدم في حرب أحد في فصل: قبل نشوب الحرب، وفي بدر أيضاً، طائفة من النصوص التي تضافرت وتواترت في كتب السيرة والتاريخ والحديث بالأسانيد الصحيحة والموثوقة: أن علياً «عليه السلام» هو صاحب لواء وراية النبي «صلى الله عليه وآله» في كل مشهد، وتقدم أن ذلك من فضائله وخصائصه التي اشتهر بها. وهذه حقيقة مؤلمة لمبغضي وشانئي عليٍّ «عليه السلام» ولأجل ذلك فهم يحاولون تجاهلها، والدس الرخيص للتشكيك بها، ولو وسعهم الجهر بإنكارها لبادروا إلى ذلك.

---

(١) المواهب اللدنية ج١ ص١١٢ وتاريخ الخميس ج١ ص٤٨٣ وراجع ص٤٨١ والسيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٤ والسيرة الحلبية ج٢ ص٣١٥ وراجع: إمتاع الأسماع ج١ ص٢٢٥ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٢٤، ونهاية الأرب ج١٧ ص١٧٠ وعيون الأثر ج٢ ص٥٨.

٢ ـ وقد ورد في احتجاج الإمام الحسن المجتبى «عليه السلام» على معاوية وابن العاص، والوليد الفاسق قوله: «ثم لقيكم يوم أحد، ويوم الأحزاب ومعه راية رسول الله ومعك ومع أبيك راية الشرك»[١].

٣ ـ روى الحكم بن عتيبة عن مقسم عن ابن عباس، قال: «كانت راية رسول الله «صلى الله عليه وآله» مع علي «عليه السلام» في المواقف كلها: يوم بدر، ويوم أحد، ويوم حنين، ويوم الأحزاب، ويوم فتح مكة. وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة في المواطن كلها، ويوم فتح مكة، وراية المهاجرين مع علي «عليه السلام»»[٢].

وهذا يدل على أن قولهم: كانت راية المهاجرين يوم الأحزاب مع زيد بن حارثة غير صحيح.

شعار الحرب:

ويقول المؤرخون: كان شعار المهاجرين أيام الخندق: «يا خيل الله»[٣].

وقالوا أيضاً: كان شعار أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وآله» يوم

---

(١) كفاية الطالب ص٣٣٦ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج٦ ص٢٨٩ والغدير ج١٠ ص١٦٨ عنه وجمهرة الخطب ج٢ ص٢٣.

(٢) إعلام الورى (ط دار المعرفة) ص١٩١.

(٣) إمتاع الأسماع ج١ ص٢٣٠ والمغازي للواقدي ج٢ ص٤٦٦ وتاريخ الخميس ج١ ص٤٨٥ وراجع: السيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٨ والسيرة الحلبية ج٢ ص٣٢١.

الخندق وبني قريظة: حم، لا ينصرون[1].

ونقول:

لقد رأينا: أن شعار المسلمين في حروبهم مع أعدائهم، سواء في زمن رسول الله «صلى الله عليه وآله» أو في زمن علي «عليه السلام» في حروبه مع البغاة هو: «حم، لا ينصرون»، وكذا عبارة: «يا منصور أمت».

وهاتان الكلمتان لهما دلالاتها وإيحاءاتها في ظرف كهذا حيث إنهما تزرعان الطموح إلى النصر في قلب وروح المقاتل المسلم فيزداد جرأة على القتال وإقداماً على التضحية، ويتذرع بالصبر الجميل على ما يواجهه من مكاره يترقب الفرج والفوز بعدها بمزيد من الطمأنينة والثقة ويكون تحركه في ساحة القتال والحالة هذه تحرك الواثق، الذي يريد من خلال تفعيل طاقاته القتالية بحكمة وحنكة وتعقل أن يتجاوز هذا الواقع، الذي يرى فيه

---

(١) تاريخ الخميس ج١ ص٤٨٣ عن ابن هشام وص ٤٨٥ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٢٤ والكافي ج٥ ص٤٧ ونهاية الأرب ج١٧ ص١٧٨ والمغازي للواقدي ج٢ ص٤٧٤ وعيون الأثر ج٢ ص٦٢ عن ابن هشام، والسيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢٣٧ وتهذيب سيرة ابن هشام ص١٩٤ والسيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٨ وزاد المعاد ج٢ ص١١٨ وبهجة المحافل وشرحه ج١ ص٢٧١ و ٢٧٢ عن الترمذي، وأبي داود والوسائل ج١١ ص١٠٥ والكافي ج٥ ص٤٦ و ٤٧ وكنز العمال ج١٠ ص٢٩١ وجوامع السيرة النبوية ص١٥٠ والإكتفاء للكلاعي ج٢ ص١٦٩ والسيرة الحلبية ج٢ ص٣٢١ وقال: «لعل المراد بالمسلمين الأنصار، فلا يخالف ما في الإمتاع، وكان شعار المهاجرين: يا خيل الله».

ونقول: إن هذا التوجيه لا يمكن المساعدة عليه.

وضعاً إستثنائياً ونشازاً، لا تساعد على استمراره عوامل طبيعية ومقبولة.

ثم إن هذا الشعار، حين يبدأ بواحدة من مفردات الحروف المقطعة التي اختص بها القرآن، فإنه يكون قد أوحى مسبقاً لهذا الإنسان المؤمن بصدق هذا الوعد الإلهي، الذي يتلفظ به هو نفسه ويطلقه شعاراً له في هذا الوقت بالذات الذي يحتاج إليه عملياً. فهو شعار يتجه نحو الواقع ليتجسد حقيقة ملموسة له، ويساهم هو في صنعها وفي بلورتها.

والأمر الملفت للنظر هنا: أن يكون هذا اليقين قد أيقظته في نفسه كلمة حم، التي هي رمز التحدي الفكري كما تقدم في الجزء الثاني من هذا الكتاب مفصلاً وقد اقترن هذا التحدي الفكري بالتحدي بالعنف والقتال، كنتيجة طبيعية لعجز قوى الشرك، وهزيمتها المخزية والنكراء في مجال الفكر والمثل والقيم.

وأما بالنسبة للمشركين، فالأمر سيكون على عكس ذلك تماماً، فإنهم حين يسمعون هذه الكلمة (حم، لا ينصرون) لسوف يتمثلون حالة العجز والسقوط والهزيمة بكل أنحائها، وبكل مجالاتها، ولسوف تزرع هذه الكلمة اليأس والفشل في نفوسهم، فإنها كانت رمز التحدي القرآني لهم ولكل من هو على شاكلتهم، بالإضافة إلى إيحاءات أخرى ـ ألمحنا إليها فيما سبق ـ كانت إيجابية بالنسبة لقوى الإيمان ولسوف تكون معكوسة وسلبية بالنسبة لقوى الشرك والطغيان.

فليتأمل المتأمل فيما ذكرناه، وليتدبره كيف يتحول إلى الضد من ذلك على قوى الشرك، حتى لا نضطر إلى إعادة تفصيلية له.

غير أننا نلمّح هنا إلى نقطة واحدة نضيفها إلى ما سبق، وهي: أن هذا

الشعار يقول: «لا ينصرون» بصيغة المبني للمجهول ولم يقل: «لا ينتصرون» ففيه إلماح إلى أن المشركين لا يملكون معطيات النصر في أنفسهم فلا بد أن ينتظروا النصر من غيرهم، وليس ثمة ناصر لهم ولا معين، فهزيمتهم حتمية لفقدهم مقومات النصر من الجهتين. فالمشرك يرى العجز والفشل الفكري والعقيدي بكلمة حم. كما أنه يتمثل الخواء من أي من القدرات والطاقات التي تخوله أن يصنع نصراً. فهو مهزوم في الحالتين، والمؤمن يأتيه النصر من الله، وهو على يقين من هذا النصر. فاجتمع على قوى الشرك عاملان من عوامل الضعف ولقوى الإيمان عاملان من عوامل القوة.

هذا عدا عن أن الصيغة صيغة إخبار، تعطي: مزيداً من الثقة بتحقق ذلك، حتى كأنه أمر واقع وملموس، يصح الإخبار عنه بهذه الدرجة من الجزم والثبات والطمأنينة.

ولسوف يتيقن المشركون صدق هذا الوعد، ما دام أنه هدي قرآني استقر في نفوسهم: إنهم أعجز وأصغر من أن يشككوا في أي من آياته وحقائقه.

وهذا درس نافع نستفيده من هذا الشعار. نسأل الله التوفيق للتوفر على دراسة هذا الموضوع بصورة أتم وأوفى، وأوضح وأجلى وأصفى، وهو الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

عدة وعدد المسلمين:

هذا وقد اختلفت كلمات المؤرخين في عدة وعدد الجيش الإسلامي الذي واجه الأحزاب في حرب الخندق.

فأما بالنسبة للعدة، فقد ذكر ابن سعد: «أنه كان مع المسلمين ستة

وثلاثون فرساً»[١] وأما بالنسبة إلى العدد فنشير إلى الأقوال التالية:

١ ـ قيل كان المسلمون سبع مئة، وهو قول ابن إسحاق[٢].

وقد حكم البعض على ابن إسحاق بأنه: «وهم في ذلك» وغلط. وزعم ابن القيم: أن منشأ الغلط هو ارتكاز عدد من خرج معه «صلى الله عليه وآله» في أحد[٣].

٢ ـ قيل: كانوا ألفاً أو نحوها، وهو صريح رواية البخاري ومسلم عن جابر. وصرح به قتادة أيضاً[٤].

٣ ـ وقيل: تسع مئة أضاف ابن خلدون قوله: «وهو راجل بلا شك».

وقال ابن حزم: «وهو الصحيح الذي لا شك فيه، والأول وهم»[٥].

---

(١) المواهب اللدنية ج١ ص١١٠ وتاريخ الخميس ج١ ص٤٨٠ عن ابن سعد، والسيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٢ والمغازي للواقدي ج٢ ص٤٥٧

(٢) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٥٠ والسيرة الحلبية ج٢ ص٣١٤ عن ابن إسحاق. وراجع: إمتاع الأسماع ج١ ص٢٢٤ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٢٤ وراجع ص٥٦٥ وتفسير القمي ج٢ ص١٧٧ والبحار ج٢٠ ص٢١٨ عنه وزاد المعاد ج٢ ص١١٧.

(٣) السيرة الحلبية ج٢ ص٣١٤ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٢٤ وإمتاع الأسماع ج١ ص٢٢٤ وزاد المعاد ج٢ ص١١٧.

(٤) راجع: وفاء الوفاء ج١ ص٣٠١ وفتح الباري ج٧ ص٣٠١ وتاريخ الخميس ج١ ص٤٨٠ والسيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٢ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٦٥ وحدائق الأنوار ج١ ص٢١٢ ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٣٩٤.

(٥) راجع: العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ قسم ٢ ص٢٩ وراجع: إمتاع الأسماع ج١ ص٢٢٥ وجوامع السيرة النبوية ص١٤٩.

يريد بالأول: القول بأنهم كانوا ألفاً.

٤ ـ وذهب أكثر المؤرخين إلى أنهم كانوا ثلاثة آلاف أو نحوها[1].

ونقول:

ألف: إننا نحتمل قوياً: أن يكون القول الثالث هو نفس قول ابن إسحاق، لكن النساخ صحَّفوا سبعمئة بتسعمئة، لتقارب رسم الخط في الكلمتين، وعدم

---

(١) إمتاع الأسماع ج١ ص٢٢٤ و ٢٢٥ ومجمع البيان ج٨ ص٣٤٢ والبحار ج٢٠ ص٢٠٠ عنه، وراجع هذا القول في المصادر التالية: سيرة مغلطاي ص٥٦ والتنبيه والإشراف ص٢١٦ ووفاء الوفاء ج١ ص٣٠١ وج ٤ ص١٢٠٤ عن المطري عن ابن إسحاق والثقات ج١ ص٢٦٦ والكامل في التاريخ ج٢ ص١٨٠ والسيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢٣١ والإكتفاء للكلاعي ج٢ ص١٦٢ والوفاء ص٦٩٣ ومناقب آل أبي طالب ج١ ص١٩٧ وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ج٢ ص٢٣٣ و ٢٣٦ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٢٣٦ و ٢٣٧ والعبر وديوان المبتدا والخبر ج٢ قسم ٢ ص٢٩ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٩٧ والبداية والنهاية ج٤ ص١٠٢ والمواهب اللدنية ج١ ص١١٠ و ١١٢ وتاريخ الخميس ج١ ص٤٨٠ و ٤٨١ و ٤٨٣ وبهجة المحافل ج١ ص٢٦٤ والسيرة الحلبية ج٢ ص٣١٤ والسيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٢ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٢٤ و٥٦٥ وكشف الغمة للأربلي ج١ ص١٩٧ وشرح النهج للمعتزلي (منشورات دار مكتبة الحياة) ج٤ ص٢٦٧ والبحار ج٢٠ ص٢٧٢ عن المناقب ونهاية الأرب ج١٧ ص١٦٨ وعيون الأثر ج٢ ص٥٧ و ٥٨ والتهذيب سيرة ابن هشام ص١٩٠ ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٤٢٨ والبدء والتاريخ ج٤ ص٢١٧ ومختصر التاريخ ص٤٣ وحبيب السير ج١ ص٣٥٩ وجوامع السيرة النبوية ص١٤٩ وفتح الباري ج٧ ص٣٠١ و ٣٠٧ وسعد السعود ص١٣٨.

وجود النقط في السابق، وما أكثر ما يقع الاشتباه والاختلاف بين سبع وتسع، من أجل ذلك.

ب: إننا نرجح قول ابن إسحاق، وإن حكم عليه البعض، كالحلبي وغيره، بأنه قد وهم أو غلط في ذلك.

ولو تنزلنا عن ذلك، فإننا نأخذ بالقول الثاني، أما القول بأنهم كانوا ثلاثة آلاف، فلا مجال للاعتماد عليه، وذلك للأمور التالية:

١ ـ ما تقدم في قصة إطعام جابر لأهل الخندق جميعاً وكانوا سبع مئة رجل، أو ثمان مئة، أو ألف رجل. فراجع حديث جابر المتقدم في الفصل السابق، وراجع المصادر التي أشير إليها في الهامش هناك.

٢ ـ روي عن الإمام الصادق «عليه السلام»: أنه «صلى الله عليه وآله» شهد الخندق في تسع مئة رجل[1]. ويحتمل أن تكون كلمة تسع تصحيفاً لكلمة سبع أيضاً.

٣ ـ روي: أن النبي «صلى الله عليه وآله» قال: اكتبوا لي من تلفظ بالإسلام. فكتب حذيفة بن اليمان له ألفاً وخمس مئة رجل.

وفي نص آخر: ونحن ما بين الست مئة إلى السبع مئة.

قال الدماميني: قيل: كان هذا عام الحديبية[2].

ويرى البعض: أن المسلمين كانوا في أُحد بعد رجوع المنافقين سبع مئة

---

(١) الكافي ج٥ ص٤٦ والوسائل ج١١ ص١٠٥.

(٢) راجع: صحيح البخاري ج٢ ص١١٦ وصحيح مسلم ج١ ص٩١ ومسند أحمد ج٥ ص٣٨٤ وسنن ابن ماجة ج٢ ص١٣٣٧ والتراتيب الإدارية ج١ ص٢٢٠ و ٢٢٣ وج ٢ ص٢٥١ و ٢٥٢ وعن المصنف لابن أبي شيبة ج١٥ ص٦٩.

رجل، وبين أُحد والخندق سنة أو أكثر بقليل، ويبعد أن يزيد المسلمون خلال سنة واحدة هذه الزيادة الكبيرة، بحيث يصلون إلى ثلاثة آلاف[1].

وما جرى في الخندق يوضح: أن عدد سكان المدينة لا يصل إلى الخمسة آلاف نسمة بما في ذلك الأطفال والنساء.

عدد المشركين:

ووافى المشركون المدينة، وأحاطوا بها من جميع جهاتها واشتد الحصار على المسلمين[2]. وقد اختلفت الأقوال في عدد المشركين، وذلك على النحو التالي:

١ ـ قال المسعودي: «سارت إليه قريش، وغطفان، وسليم، وأسد، وأشجع، وقريظة، ونضير، وغيرهم من اليهود، فكان عدة الجميع أربعة وعشرين ألفاً، منها قريش وأتباعها أربعة آلاف»[3].

٢ ـ وقال ابن شهرآشوب: «كانوا ثمانية عشر ألف رجل»[4].

٣ ـ وقال ابن الدبيع: كانوا أحد عشر ألفاً[5].

وذكر في موضع آخر: أنهم كانوا عشرة آلاف. ولعله حين عد معهم

---

(١) الرسول العربي وفن الحرب، هامش ص٢٣٨.

(٢) راجع: حدائق الأنوار ج٢ ص٥٨٧.

(٣) التنبيه والإشراف ص٢١٦.

(٤) مناقب آل أبي طالب ج١ ص١٩٧ والبحار ج٢٠ ص٢٧٢ عنه.

(٥) حدائق الأنوار ج١ ص٥٢ ويفهم ذلك من الزمخشري في الكشاف ج٣ ص٥٢٦ وعنه في سعد السعود ص١٣٨.

بني قريظة ذكر الرقم الأول، وحين غض النظر عنه عدهم عشرة آلاف.

٤ ـ إن عدد جيش المشركين بجميع فئاته كان عشرة آلاف: قريش وكانوا أربعة آلاف، ومن أجابهم من بني سليم، وأسلم، وأشجع، وبني مرة، وكنانة، وفزارة، وغطفان[1].

٥ ـ إنهم كانوا مع يهود بني قريظة والنضير زهاء اثني عشر ألفاً[2].

٦ ـ ولكننا نجد آخرين من المؤرخين يتحدثون عن هذا الأمر بطريقة تؤيد أحد القولين الأولين، فقد قال ابن الوردي وغيره:

«أقبلت قريش في أحابيشها، ومن تبعها من كنانة في عشرة آلاف، وأقبلت غطفان ومن تبعها من أهل نجد» ثم ذكر انضمام بني قريظة

---

(١) تاريخ الخميس ج١ ص٤٨٠ ووفاء الوفاء ج١ ص٣٠١ عن ابن إسحاق والمغازي للواقدي ج٢ ص٤٤٤ و ٤٤٥ وتفسير القمي ج٢ ص١٧٧ و ١٧٦ وعيون الأثر ج٢ ص٥٧ وزاد المعاد ج٢ ص١١٧ وبحار الأنوار ج٢٠ ص٢١٧ ونهاية الأرب ج١٧ ص١٦٨ والبدء والتاريخ ج٤ ص٢١٧ وسيرة مغلطاي ص٥٦.

وراجع: الوفاء ص٦٩٣ وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص٢٣٣ و ٢٣٦ ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٤٢٨ وراجع: العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ ق٢ ص٢٩ وفتح الباري ج٧ ص٣٠١ و ٣٠٧ والمواهب اللدنية ج١ ص١١٠ والسيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٢ و ٤ وبهجة المحافل ج١ ص٢٦٤ والسيرة الحلبية ج٢ ص٣١١ وحدائق الأنوار ج٢ ص٥٨٧ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥١٤ ومنهاج السنة ج٤ ص١٧٠.

(٢) تاريخ الخميس ج١ ص٤٨٤.

إليهم[1].

٧ ـ ثم هناك من يقول: إن عدد جيش الأحزاب كان أربعة آلاف فقط[2].

ولا نشك في أن هذا القول ناظر إلى حشود قريش، أو أن بعض المؤرخين رآهم يذكرون أن عدد الجمع القريشي كان هذا المقدار فتوهم أنه يقصد بيان عدد الجيش كله.

عدة جيش الشرك:

وأما بالنسبة لعدة أهل الشرك، فقد قال المسعودي: إنه كان «معهم ثلاث

---

(١) تاريخ ابن الوردي ج١ ص١٦١ وكشف الغمة للأربلي ج١ ص١٩٧ والكامل في التاريخ ج٢ ص١٨٠ والمختصر في أخبار البشر ج١ ص١٣٥ وراجع المصادر التالية: الإكتفاء للكلاعي ج٢ ص١٦٢ والسيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢٣٠ و ٢٣١ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٢٣٦ و ٢٣٧ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٩٧ والبداية والنهاية ج٤ ص١٠٢ والبدء والتاريخ ج٤ ص٢١٧ وتاريخ الخميس ج١ ص٤٨٣ والمواهب اللدنية ج١ ص١١٢ ومختصر التاريخ ص٤٣ وجوامع السيرة النبوية ص١٤٩ وفتح الباري ج٧ ص٣٠٧ ومجمع البيان ج٨ ص٣٤١ و ٣٤٢ والبحار ج٢٠ ص٢٠٠ وتهذيب سيرة ابن هشام ص١٩٠ ووفاء الوفاء ج١ ص٣٠١.

(٢) راجع هذا القيل في: وفاء الوفاء ج١ ص٣٠١ وفتح الباري ج٧ ص٣٠١ والسيرة الحلبية ج٢ ص٣١٠ و ٣١١ وتاريخ الخميس ج١ ص٤٨٠ والسيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٢ ودلائل النبوة للبيهقي ج٢ ص٣٩٤ عن قتادة.

مئة فرس، وألف وأربع مئة بعير، وقائدهم أبو سفيان صخر بن حرب»[١].

وذكر آخرون: أنه كان معهم ألف وخمس مئة بعير، وثلاث مئة فرس[٢].

وذكر الدياربكري: أنهم كانوا أربعة آلاف معهم ثلاث مئة فرس وألف بعير، وعند غيره: ألف وخمس مئة بعير[٣].

ويظهر من المقريزي: أنه كان مع المشركين بالإضافة إلى ألف وخمس مئة بعير: ثلاث مئة فرس مع قريش، وثلاث مئة أخرى مع غطفان[٤].

وفي كلام حيي بن أخطب لكعب بن أسد: «والخيل ألف فرس وسلاح كثير»[٥].

وصرح النويري: أن غطفان وفزارة كان معهما ألف بعير[٦].

ومن الواضح: أن لا مجال لتحديد الرقم الحقيقي لذلك كله ولا لغيره.

لكن مما لا شك فيه: أن هذا العرض للنصوص والأقوال يوضح مدى التفاوت فيما بين عدة وعدد المسلمين، وأعدائهم من الأحزاب الذين

---

(١) التنبيه والإشراف ص٢١٦.

(٢) السيرة الحلبية ج٢ ص٣١٠ و ٣١١ والسيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٢ والإمتاع ج١ ص٢١٨ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥١٣ ونهاية الأرب ج١٧ ص١٦٧ وحبيب السير ج١ ص٣٥٩.

(٣) تاريخ الخميس ج١ ص٤٨٠ وعيون الأثر ج٢ ص٥٦ وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص٢٣٣ ولم يذكر عدد الإبل.

(٤) إمتاع الأسماع ج١ ص٢١٨ و ٢١٩.

(٥) المغازي للواقدي ج٢ ص٤٥٥.

(٦) نهاية الأرب ج١٧ ص١٦٧.

جاؤوا من كل حدب وصوب.

معنويات جيش الشرك:

وقد كان من الواضح: أن تفوق المشركين في العدد والعدة، ثم ما كان من تحالفهم مع بني قريظة الذين كانوا في الجهة الأخرى للمدينة،

أضف إلى ذلك: هذا الإجماع الحاصل من مختلف القبائل العربية،

وكذلك بسبب الإعلام المسموم الذي أعقب حرب أُحد، وصوَّر لأهل الشرك أنهم قد حققوا فيها نصراً كبيراً،

وبسبب الحقد الذي يتغلغل في نفوس الكثيرين منهم على الإسلام والمسلمين،

نعم.. إنه بسبب ذلك كله، وسواه مما لم نذكره، كان جيش الشرك يعيش في بدايات حصاره للمسلمين حالة من الانتعاش الروحي، والشعور بالقوة والتفوق، وبإمكانية تحقيق بعض ما كانوا يصبون إليه.

ولكن الأمر لم يدم على هذا الحال طويلاً فقد تبخرت الآمال وحل محلها الشعور بالخيبة، وتلاشت حالة الانتعاش، لتخلفها حالة التململ والشعور بالضيق.

حتى إذا جاءت ضربة علي القاصمة لجيش الشرك، تبدل كل شيء ليواجه هذا الجيش حالة من الرعب والخوف، وتصبح تلك الكثرة في العدد وفي العدة عبئاً ثقيلاً، ومصدر متاعب لذلك الجيش بالذات. فقد أصبحت العدة من أفراس ومن وسائل نقل ـ أبعرة ـ بسبب طول المدة، وبسبب الجدب أمراً يحسن التخلص، أو على الأقل يحسن التخفيف منه وتحجيمه.

كما إن إجماع القبائل لم ينجح في توحيد القيادة لهم، ولا استطاع أن يحجب الروح القبلية، ويمنعها من الهيمنة على مسيرة التحرك، حتى في مواقع القتال.

فكانت كثرة هذا الجيش تستبطن التمزق، وكان تكثُّر الانتماءات في الولاء والطاعة، يحمل معه بذور الفساد والإفساد، والخلاف والشقاق لأتفه الأسباب.

أضف إلى ما تقدم: أن الإعلام المزور والمسموم قد أوجب انتفاخاً كاذباً، وأذكى توقعات كبيرة، يعلم قادة الأحزاب أنفسهم أنهم أعجز عن أن ينالوها، أو أن يحققوا أدناها.

وبعد ما تقدم: فهل يمكن لجيش كهذا أن يقوم بتجربة حربية ضد المسلمين، مع أنه لا يمكن ضمان نتائجها، لا سيما بعد أن عرف ورأى ميدانياً أن الأمور قد أصبحت على غاية من التعقيد والخطورة، ولم يكن قد حسب لكل هذه المستجدات أي حساب؟

وبعد كل ما تقدم: فإن علينا أن لا ننسى أن تلك القبائل كانت تفتقر إلى ترسيخ عامل الثقة فيما بينها. ولم تكن ثمة ضمانات حقيقية لوفاء بني قريظة للمشركين، ولا العكس، مع علمهم: أن الذي يجمع كل هذه المتفرقات هو الخوف من التفرق، وليس شيئاً غير ذلك..

جيش أهل الإيمان:

وأما بالنسبة لجيش أهل الإيمان فإن الأمر يختلف تماماً، فهو يرى أن وجوده معرض للاستئصال والفناء، ولا بد له من الدفاع، ولن يجد ملجأً له

إلا بذل الجهد، وإلا الجهاد من أجل البقاء.

كما أن هذا الجيش ينطلق في حركته وفي جهاده من قاعدة إيمانية تجمع بين متفرقاته، وتؤلف بين مختلفاته.

وهو وإن كان قد تعرض ـ في بادئ الأمر ـ لهزة من نوع ما حين صار المنافقون وضعفاء الإيمان يتسللون ويتركون مواضعهم بأعذار مختلفة، ولكن حزم القيادة، وهيمنتها، وحسن تدبيرها لم يفسح المجال للتأثر بالشائعات، واستطاعت هذه القيادة، حين فضحت أمر هؤلاء المنافقين بالوحي القرآني، وحين ظهرت الكرامات الباهرة على يدها، وأطلقت البشارات بالنصر الأكيد، استطاعت أن تعيد للجو الإيماني صفاءه ونقاءه، وتحصنه من كل ما من شأنه أن يشيع روح التخاذل، ويزرع اليأس والخوف في نفوس المخلصين والمؤمنين، وقطعت الطريق على أي كان، من أن يتخذ موقفاً، أو يتصرف تصرفاً من شأنه أن يعطي للعدو أية فرصة من أي نوع كانت.

الغطرسة القرشية:

وعن علي «عليه السلام» قوله: «فقدمت قريش، فأقامت على الخندق محاصرة لنا، ترى في أنفسها القوة وفينا الضعف، ترعد وتبرق، ورسول الله «صلى الله عليه وآله» يدعوها إلى الله عز وجل، ويناشدها بالقرابة والرحم، فتأبى، ولا يزيدها ذلك إلا عتواً»[1].

---

(١) الخصال ج٢ ص٦٨، باب السبعة، والبحار ج٢٠ ص٢٤٤.

ونقول:

ليس غريباً على قريش هذا العتو، وهذه الغطرسة، ما دامت تقيس الأمور بمقاييس مادية، وترى القوة في أنفسها، والضعف في المسلمين، الذين جاءت لاستئصالهم، وإبادة خضرائهم، ولكن هذا العتو وتلك الغطرسة سرعان ما تلاشت، ليحل محلها الضعف والخنوع، والخيبة القاتلة، كما سنرى.

وليس غريباً أيضاً: أن نجد النبي «صلى الله عليه وآله» ومن موقع الشعور بالمسؤولية يعتمد الأسلوب الإنساني، ويستثير العاطفة الناشئة عن صلات القربى ولحمة النسب، والتي تكون لها هيمنة حقيقية على الإنسان ولا بد أن تجتاح هزاتها الجامحة كل كيانه، وكل وجوده. ثم هو «صلى الله عليه وآله» يقرن ذلك بالدعوة إلى الله عز وجل، الذي هو مصدر الخير والقوة والبركات.

رسالة تهديد من أبي سفيان:

ويقال: إن أبا سفيان كتب إلى النبي «صلى الله عليه وآله» مهدداً إياه بما جمعه من الأحزاب لقتاله، ولعله قد كتب هذا الكتاب بعد وصوله إلى المدينة وحصول المواجهة، والكتاب هو:

أما بعد.. فإنك قد قتلت أبطالنا، وأيتمت الأطفال، وأرملت النساء، والآن قد اجتمعت القبائل والعشائر يطلبون قتالك، وقلع آثارك وقد جئنا إليك نريد نصف نخل المدينة، فإن أجبتنا إلى ذلك وإلا أبشر بخراب الديار، وقلع الآثار.

تجاوبت القبائل من نزار لنصر اللات في بيت الحرام

وأقبلت الضراغم من قريش على خيل مسومة ضرام

فرد عليه النبي «صلى الله عليه وآله» بالرسالة التالية:

بسم الله الرحمن الرحيم، وصل كتاب أهل الشرك والنفاق، والكفر والشقاق، وفهمت مقالتكم، فوالله، ما لكم عندي إلا أطراف الرماح، وشفار الصفاح. فارجعوا ويلكم عن عبادة الأصنام، وأبشروا بضرب الحسام، وبفلق الهام، وخراب الديار، وقلع الآثار، والسلام على من اتبع الهدى»[1].

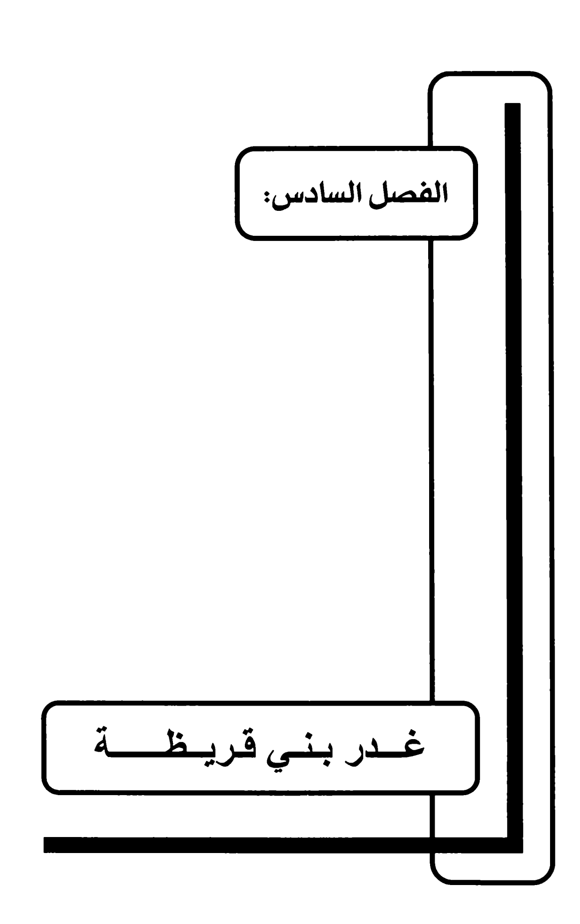
قال الشيخ محمد أبي زهرة: «ونشك في نسبة هذا الكتاب إلى النبي «صلى الله عليه وآله» لما فيه من السجع»[2].

ولا نرى: أن السجع في الكتاب يبرر الشك فيه، فإن خطب الزهراء، وخطب علي «عليهما السلام» لم تخل من ذلك، كما يظهر لمن راجعها.

---

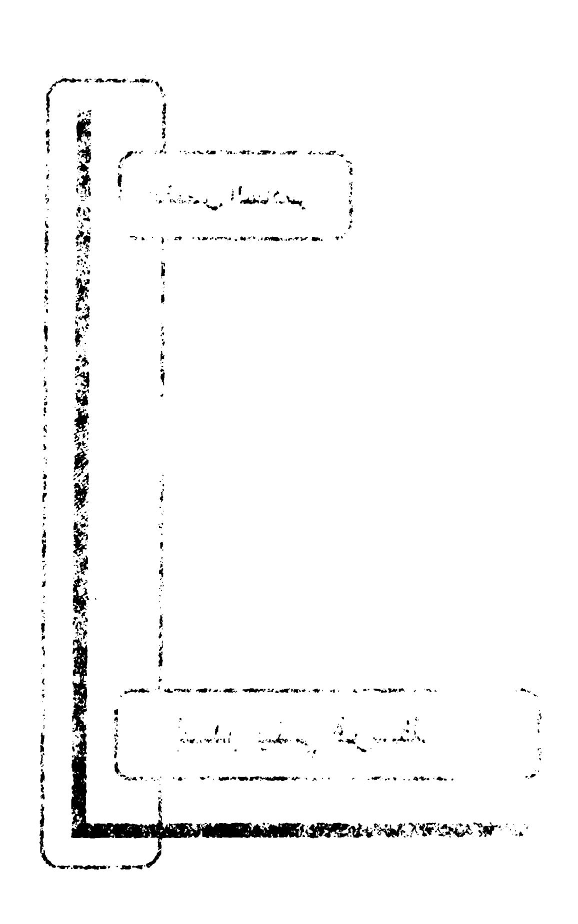
(١) خاتم النبيين ج٢ ص٩٢٠ و ٩٢١ عن كتاب السيرة لابن جرير الطبري

(٢) خاتم النبيين ص٩٢١.



الفصل السادس:

غـدر بنـي قريـظـــة



بنو قريظة ينقضون العهد:

يقول المؤرخون: إن بني قريظة كانوا أصحاب حصون بالمدينة وموضعهم من المدينة على قدر ميلين، وهو الموضع الذي يسمى: بئر بني المطلب، وعددهم سبع مئة مقاتل[1].

وصاحب عقدهم وعهدهم كعب بن أسد القرظي، وكان وادع رسول الله على قومه وعاهده.

وكان حيي بن أخطب سيد بني النضير، يقول لقريش في مسيره معهم:

إن قومي بني قريظة معكم، وهم أهل حلقة وافرة، وهم سبع مئة مقاتل وخمسون مقاتلاً.

فلما دنوا قال له أبو سفيان: ائت قومك حتى ينقضوا العهد الذي بينهم وبين محمد[2].

فلما جاء حيي إلى بني قريظة كرهوا دخوله إلى دارهم، فكان أول من لقيه غزال بن سموأل، فقال له حيي: قد جئتك بما تستريح به من محمد.

---

(١) تفسير القمي ج٢ ص١٧٧ والبحار ج٢ ص٢١٧ عنه.

(٢) السيرة الحلبية ج٢ ص٣١٥ و ٣١٦ وإمتاع الأسماع ج١ ص٢٢٥ والمغازي للواقدي ج٢ ص٤٥٤.

هذه قريش قد حلت وادي العقيق، وغطفان بالزغابة.

قال غزال: جئتنا ـ والله ـ بذل الدهر.

قال حيي: لا تقل هذا.

ثم توجه إلى باب كعب بن أسد فدق عليه[1]، فأغلق كعب دونه باب الحصن، وقال: بيني وبين محمد عقد، ولن أنقض ما بيني وبينه.

وفي نص آخر: «لم أر منه إلا وفاءً وصدقاً».

زاد الواقدي: «والله، ما أخفر لنا ذمة، ولا هتك لنا ستراً، ولقد أحسن جوارنا».

وعند البيهقي: «لم أر رجلاً أصدق ولا أوفى من محمد وأصحابه، والله، ما أكرهنا على دين، ولا غصبنا مالاً الخ..».

فقال حيي: افتح الباب أكلمك.

فقال كعب: ما أنا بفاعل.

فقال: والله، إن أغلقت دوني الباب إلا على جشيشتك[2] أن آكل معك منها.

فأحفظه حتى فتح له، فقال: ويحك يا كعب (جئتك بعز الدهر، وببحر طامٍ) جئتك بقريش على قادتها وسادتها، حتى أنختهم بالمدينة، وجئتك بغطفان على قادتها وسادتها، وقد عاهدوني ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه. فتأبّى كعب، وقال: جئتني بذل الدهر، بجهام هراق ماؤه

---

(١) المغازي للواقدي ج٢ ص٤٥٥.

(٢) الجشيشة هي: البر يطحن غليظاً.

وبرعد وببرق ليس فيه شيء.

زاد الواقدي قوله: «وأنا في بحر لجي لا أقدر على أن أريم داري، ومالي معي والصبيان والنساء» فدعني ومحمداً، وما أنا عليه، فلم أر منه إلا وفاء وصدقاً.

فلم يزل يفتله في الذروة وفي الغارب، حتى أعطاه عهداً من الله وميثاقاً أن يكون معه، على أنه إن رجعت تلك الجموع خائبة ولم يقتلوا محمداً: أن يرجع معه إلى حصنه، يصيبه ما أصابه. ونقض كعب ما بينه وبين رسول الله، وبرئ مما كان عليه له[1].

---

(١) راجع: تجارب الأمم ج١ ص١٤٩ والمغازي للواقدي ج٢ ص٤٥٥ و٤٥٦ وتاريخ ابن الوردي ج١ ص١٦١ وبهجة المحافل ج١ ص٢٦٥ وشرح بهجة المحافل ج١ ص٢٦٥ والمواهب اللدنية ج١ ص١١٢ وتاريخ الخميس ج١ ص٤٨٣ و٤٨٤ وزاد المعاد ج٢ ص١١٧ وحبيب السير ج١ ص٣٦٠ وجوامع السيرة النبوية ص١٤٩ والسيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢٣١ و ٢٣٢ وتهذيب سيرة ابن هشام ج٣ ص١٩٠ و ١٩١ والسيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٤ والسيرة الحلبية ج٢ ص٣١٦ و ٣١٥ وإمتاع الأسماع ج١ ص٢٢٦ ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٤٠٠ و ٤٠١ و ٤٢٨ و ٣٢٩ وراجع: وفاء الوفاء ج١ ص٣٠٣ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٢٦ و ٥٢٧ ومجمع البيان ج٨ ص٣٤٢ والبحار ج٢٠ ص٢٠٠ و ٢٠١ و ٢٢١ و ٢٢٣ ونهاية الأرب ج١٧ ص١٧٠ و ١٧١ وعيون الأثر ج٢ ص٥٩ والكامل في التاريخ ج٢ ص١٨٠ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٢٣٧ والبداية والنهاية ج٤ ص١٠٣ وراجع: تفسير القمي ج٢ ص١٧٩ و ١٨١ والإكتفاء ج٢ من ١٦٣ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٩٨ و ١٩٩ وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص٢٣٦ و ٢٣٧.

«ومزقوا الصحيفة التي كان فيها العقد، وجمع رؤساء قومه وهم: الزبير بن مطا (باطا)، وشاس (نباش) بن قيس، وعزال بن ميمون (سموأل)، وعقبة بن زيد (وكعب بن زيد) وأعلمهم بما صنع من نقض العهد، وشق الكتاب الذي كتبه رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فلحم الأمر لما أراد الله من هلاكهم. وكان حيي بن أخطب في اليهود يشبه بأبي جهل في قريش».

وعند القمي: غزال بن شمول وياسر بن قيس، ورفاعة بن زيد، والزبير بن باطا[1].

وقال البعض: إن الزبير بن باطا كان شيخاً كبيراً، مجرباً، قد ذهب بصره، وقد قال لهم: إنه قرأ التوراة، ووجد فيها: أنه يبعث نبي في آخر الزمان في مكة، ويهاجر إلى المدينة، وذكر لهم صفته.

فادَّعى حيي بن أخطب: أن هذا النبي هو من بني إسرائيل وهذا من العرب. ولا يكون بنو إسرائيل أتباعاً لولد إسماعيل أبداً لأن الله قد فضلهم على الناس جميعاً، ثم ادَّعى أن محمداً «صلى الله عليه وآله» ساحر، ولم يزل حتى أقنعهم بنقض العهد، فنقضوه[2].

ويقول نص آخر: «ووعظهم عمرو بن سعدى، وخوفهم سوء فعالهم،

---

(١) السيرة الحلبية ج٢ ص٣١٦ وإمتاع الأسماع ج١ ص٢٢٦ وتفسير القمي ج٢ ص١٨٠ وبحار الأنوار ج٢٠ ص٢٢١ و ٢٢٢ عنه. وراجع: المغازي للواقدي ج٢ ص٤٥٦ و ٤٥٧.

(٢) راجع: تفسير القمي ج٢ ص١٨٠ و ٨١ وبحار الأنوار ج٢٠ ص٢٢٢ و ٢٢٣ عنه.

وذكرهم ميثاق رسول الله «صلى الله عليه وآله» وعهده، وقال لهم: إن لم تنصروه، فاتركوه وعدوه، فأبوا، وخرج إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» من بني قريظة بنو سعنة: أسد، وأسيد وثعلبة، فكانوا معه، وأسلموا.

وأمر كعب بن أسد حيي بن أخطب: أن يأخذ لهم من قريش، وغطفان رهائن تكون عندهم»[1]، «لئلا ينالهم ضيم، إن هم رجعوا ولم يناجزوا محمداً، قالوا: وتكون الرهائن تسعين رجلاً من أشرافهم: فنازلهم حيي على ذلك، فعند ذلك نقضوا العهد، ومزقوا الصحيفة التي فيها العقد، إلا بني سعنة»[2].

لا بد من التثبت:

«وبلغ رسول الله «صلى الله عليه وآله» ذلك فغمه غماً شديداً، وفزع أصحابه»[3]، ويقال: إن الذي أبلغ النبي ذلك هو عمر بن الخطاب، فاشتد الأمر على رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وشق عليه ذلك[4]، فقال: حسبنا الله، ونعم الوكيل.

فبعث سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وخوات بن جبير، وعبد الله بن رواحة.

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٢٧ والبداية والنهاية ج٤ ص١٠٣ وراجع ص١٣ ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٤٠١.

(٢) البداية والنهاية ج٤ ص١٠٣.

(٣) تفسير القمي ج٢ ص١٨١ وبحار الأنوار ج٢٠ ص٢٢٣ عنه.

(٤) السيرة الحلبية ج٢ ص٣١٦.

وراجع: إمتاع الأسماع ج١ ص٢٢٧ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٢٧ والمغازي للواقدي ج٢ ص٤٥٧.

وبعض النصوص: «لم تذكر الأخيرين وذكرت بدلهما أسيد بن حضير»[1] يستخبرون الأمر، فوجدوهم مكاشفين بالغدر، والنيل من رسول الله «صلى الله عليه وآله» فشاتمهم سعد بن معاذ وكانوا أحلافه، وانصرفوا.

وكان رسول الله «صلى الله عليه وآله» قد أمرهم إن وجدوا الغدر حقاً أن يخبروه تعريضاً، لئلا يفتوا في أعضاد الناس، فلما جاؤوا إليه قالوا: يا رسول الله، عضل والقارة. يريدون غدرهم بأصحاب الرجيع»[2].

---

(١) السيرة الحلبية ج٢ ص٣١٦ وراجع: إمتاع الأسماع ج١ ص٢٢٧ والمغازي للواقدي ج٢ ص٤٥٨ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٢٧ وتفسير القمي ج٢ ص١٨١ وبحار الأنوار ج٢٠ ص٢٢٣ عنه، وفيهما: «فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله» لسعد بن معاذ، وأسيد بن حصين، وكانا من الأوس. وكانت بنو قريظة حلفاء للأوس»، والظاهر: أن كلمة «حصين» هي تصحيف: حضير. وذلك كثير.

(٢) العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ ق ٢ ص٢٩ و ٣٠ وراجع المصادر التالية: بهجة المحافل ج١ ص٢٦٥ والمواهب اللدنية ج١ ص١١٢ وتاريخ الخميس ج١ ص٤٨٤ والسيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٥ وزاد المعاد ج٢ ص١١٧ وجوامع السيرة النبوية ص١٤٩ والإكتفاء للكلاعي ج٢ ص١٦٤ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٩٩ وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص٢٣٧ وعيون الأثر ج٢ ص٥٩ والسيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢٣٢ و ٢٣٣ والسيرة الحلبية ج٢ ص٣١٦ و٣١٧ وإمتاع الاسماع ج١ ص٢٢٧ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٢٧ وتهذيب سيرة ابن هشام ص١٩١ و ١٩٢ ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٤٢٩ و ٤٣٠ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٢٣٨ والبداية والنهاية ج٤ ص١٠٣ و ١٠٤ وتفسير القمي ج٢٠ ص١٨١ وبحار الأنوار ج٢٠ ص٢٢٣ و ٢٠١ ومجمع البيان ج٨ ص٣٤٢ والمغازي للواقدي ج٢ ص٤٥٨ و ٤٥٩.

وقال ابن إسحاق وآخرون: «إن الذي شاتمهم هو سعد بن عبادة. وكان رجلاً فيه حدة، فقال ابن معاذ: دع عنك مشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة»[1].

والذي شاتم ابن عبادة هو نباش بن قيس[2].

وقال أسيد بن حضير لكعب: «أتسب سيدك يا عدو الله؟! ما أنت له بكفؤ يا بن اليهودية، ولتولينَّ قريش إن شاء الله منهزمين، وتتركك في عقر دارك، فنسير إليك، فننزلك من جحرك هذا على حكمنا»[3].

وقال موسى بن عقبة: «فدخلوا معهم حصنهم، فدعوهم إلى الموادعة وتجديد الحلف، فقالوا: الآن وقد كسر جناحنا وأخرجهم؟ (يريدون بني النضير). ونالوا من رسول الله «صلى الله عليه وآله» فجعل سعد بن عبادة يشاتمهم فأغضبوه فقال له سعد بن معاذ: إنا والله ما جئنا لهذا، ولما بيننا أكبر من المشاتمة.

ثم ناداهم سعد فقال: إنكم قد علمتم الذي بيننا وبينكم يا بني قريظة،

---

(١) راجع: شرح بهجة المحافل ج١ ص٢٦٥ عن البغوي، وتاريخ الخميس ج١ ص٤٨٤ وعيون الأثر ج٢ ص٥٩ والسيرة الحلبية ج٢ ص٣١٦ و ٣١٧ عن الشيخين وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٢٧ ومجمع البيان ج٨ ص٣٤٢ وبحار الأنوار ج٢٠ ص٢٠١ والمغازي للواقدي ج٢ ص٤٥٨.

ونقل في البداية والنهاية ج٤ ص١٠٤ عن ابن إسحاق عكس ذلك.

(٢) راجع: سبل الهدى والرشاد ج٤ ص٢٢٧ عن ابن عقبة، والواقدي، وابن عائذ، وابن سعد.

(٣) سبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٢٧ و ٥٢٨ والمغازي للواقدي ج٢ ص٤٥٨.

وأنا خائف عليكم مثل يوم بني النضير، أو أمرَّ منه.

فقالوا: أكلت ...[١] أبيك.

فقال: غير هذا من القول كان أجمل بكم وأحسن».

إلى أن قال: «فأمرهم بكتمان خبرهم»[٢].

وعند القمي: أنه لما رجع سعد بن معاذ وأسيد إلى النبي «صلى الله عليه وآله» وأخبراه بنقض قريظة، قال «صلى الله عليه وآله»: «لعناء، نحن أمرناهم بذلك»، وذلك أنه كان على عهد رسول الله «صلى الله عليه وآله» عيون لقريش يتجسسون خبره[٣].

وفي نص آخر: أنهم لما قالوا للنبي «صلى الله عليه وآله»: عضل والقارة، قال «صلى الله عليه وآله»: «الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين»[٤].

أو قال: «أبشروا بنصر الله وعونه»[٥].

---

(١) كلمة يستقبح التصريح بها.

(٢) البداية والنهاية ج٤ ص١٠٤ ودلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٤٠٣.

(٣) تفسير القمي ج٢ ص١٨١ والبحار ج٢٠ ص٢٢٣ عنه.

(٤) راجع: تاريخ الخميس ج١ ص٤٨٤ والسيرة الحلبية ج٢ ص٣١٧ والسيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٥ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٢٣٨ والبداية والنهاية ج٤ ص١٠٤ ومجمع البيان ج٨ ص٣٤٢ وبحار الأنوار ج٢٠ ص٢٠١ وعيون الأثر ج٢ ص٦ وزاد المعاد ج٢ ص١١٨ والإكتفاء للكلاعي ج٢ ص١٦٤ وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي) ص٢٣٧.

(٥) إمتاع الأسماع ج١ ص٢٢٧ وسبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٢٨ والمغازي للواقدي ج٢ ص٤٥٩.

زاد البعض قوله: «إني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق، وآخذ المفتاح وليهلكن كسرى وقيصر، ولتنفقن أموالهم في سبيل الله. يقول ذلك حين رأى ما بالمسلمين من الكرب، ثم تقنع الخ..»[1].

ويقول الحلبي إنه قال: «نصرة الله وعونه، وتقنع بثوبه واضطجع، ومكث طويلاً، فاشتد على الناس البلاء والخوف حين رأوه «صلى الله عليه وآله» اضطجع، ثم رفع رأسه وقال: أبشروا بفتح الله ونصره»[2].

ثم إنه قد بقيت لنا مع النص المتقدم وقفات.

ونحن نلخصها في المطالب التالية:

النزعة العنصرية لدى اليهود:

أول ما يستوقفنا هنا: الطريقة التي أحبط بها حيي مقالة الزبير بن باطا حول نبي تحدثت عنه التوراة، يبعث في مكة، ويهاجر إلى المدينة.

فإنه ضرب على الوتر الحساس لدى اليهود، حين طرح لهم مقولة: أن هذا النبي لا بد أن يكون إسرائيلياً، مستنداً إلى مقولة ترتكز على النزعة العنصرية لدى اليهود، حيث قال لهم: لا يكون بنو إسرائيل أتباعاً لولد إسماعيل الخ..

وقد أشرنا إلى هذا الموضوع بصورة أوسع في كتابنا: «سلمان الفارسي

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٢٨.

(٢) السيرة الحلبية ج٢ ص٣١٧ وراجع: سبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٢٨ والبداية والنهاية ج٤ ص١٠٤ والمغازي للواقدي ج٢ ص٤٥٩ دلائل النبوة للبيهقي ج٣ ص٤٠٣ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص١٩٩ و ٢٠٠.

في مواجهة التحدي».

وفاء اليهود:

وقد اتضح أيضاً: أن اليهودي حين يلتزم بعهده، فإنه لا ينطلق في ذلك من شهامة، ولا كرامة ولا نبل، ولا لأجل أنه يلتزم بشرف الكلمة.. وإنما لأنه يرى أن نقضه له سوف يلحق به ضرراً من نوع ما؛ فإذا اطمأن إلى عدم وجود ضرر في ذلك فإنه يبادر إليه، دونما وازع أو رادع.

وقد رأينا: أن كعب بن أسد ينقض العهد حين تخيل أنه سيحقق ما يتمناه من استئصال محمد «صلى الله عليه وآله» ومن معه، واقتنع بأن القوة التي حشدتها الأحزاب كافية في تحقيق هذه الأمنية، وأن المستقبل الرغيد والسعيد سيكون بانتظاره، وأصبح على الأبواب.

طريقة حيي للتأثير على كعب بن أسد:

ويلفت نظرنا هنا: الطريقة التي أثار فيها حيي بن أخطب حفيظة كعب بن أسد حتى فتح له، حيث اتهمه بأنه لا يفتح له خوفاً من أن يأكل من طعامه؛ ففتح له حينئذٍ الباب، الذي كان باب الخزي والخسران، والذل الأبدي، والبوار في الدنيا والآخرة.

ولكن كعباً هذا: رغم اعترافه بأنه لم يَر من النبي «صلى الله عليه وآله» إلا الوفاء والصدق، وغير ذلك فإنه ينقض العهد معه، حباً للدنيا، وطمعاً بها فكان له الدمار والهلاك.

وحسبك بهذا دلالة على تفاهة تفكير هؤلاء الناس، وسفاهة عقولهم، وتناقضهم السافر في مواقفهم.

دوافع نقض العهد:

أما ما قدمه من امتياز لكعب بن أسد ولبني قريظة ليثير شهيتهم لنقض العهد، والدخول معهم في حرب محمد فهو استئصال محمد ومن معه.

وقد اشترط كعب لنفسه إن لم يتحقق هذا الهدف أن يواجه حيي بن أخطب معه كل السلبيات التي تنشأ عن عدم استئصال محمد ومن معه، حيث شرط عليه أن يدخل معه حصنه، ويصيبه ما أصابه فقبل حيي بن أخطب ذلك.

وذلك يوضح لنا: صوابية القرار الذي اتخذه الرسول «صلى الله عليه وآله» بتنفيذ حكم سعد بن معاذ في بني قريظة، وهو الحكم الذي أعطاه بنو قريظة أنفسهم موافقتهم المسبقة عليه، بل هم الذين اقترحوا تحكيم سعد بن معاذ فيهم.

وسيأتي بحث هذا الموضوع في غزوة بني قريظة إن شاء الله تعالى.

جهام بلا ماء:

ولم يكن كعب بن أسد يرى في كل تلك الجموع قدرة على تحقيق الهدف الذي تسعى له، أو يشفي الغليل، وما هي إلا رعد وبرق فارغ، وسراب خادع.

ولعل مما ساعد على تكوُّن تلك النظرة لديه هو ما جرى في حرب بدر وأحد، وقينقاع، والنضير، وغيرها. مع رؤيته وجود فرق كبير فيما بين قدرات المسلمين في السابق وفي اللاحق. فقد تنامت قدراتهم، واتسع نفوذهم، وتأكدت هيمنتهم على المنطقة بأسرها. كما أن الخطة التي اتبعها رسول الله «صلى الله عليه وآله» في مواجهة الأحزاب قد كانت على مرأى

ومسمع من بني قريظة، وهم يعرفون: أنها خطة ناجحة إلى حد كبير، ولا يمكن اختراقها، وتحقيق فجوة فيها بسهولة.

الشعور بالذنب والخيانة:

وإذا كان كعب يعترف بوفاء وصدق محمد، وبسائر المواقف النبيلة والإنسانية لنبي الإسلام، فإنه يكون قد اعترف ضمناً بالخيانة وبالغدر، فهل كان حقاً قد شعر بالذنب وبتأنيب الضمير؟!

لو كان قد شعر بذلك حقاً لبدرت منه بادرة تراجع أو ندم ولكن الله لا يوفق كل ظلوم كفار، ولن يكون لغادر فلاح، ولا لخائن نجاح. والمصير الذي انتهى إليه بنو قريظة خير شاهد على ذلك.

عدة مبعوثين لمهمة واحدة:

لقد رأينا فيما سبق: أن النبي «صلى الله عليه وآله» قد أرسل أكثر من شخص واحد لكشف خبر بني قريظة. ولعل ذلك يرجع إلى أن الجماعة تكون في مناسبات مشحونة بالتوتر أكثر تدبراً للأمور في المواقع التي تشهد تصعيداً خطيراً، وعلى درجة كبيرة من الحساسية. ويمكن لبعضهم أن يستعين بالبعض الآخر، ويسدده ويعضده، لو كان ثمة ما يقتضي اتخاذ موقف أو القيام بمبادرة من نوع ما.

كما أن ذلك يجعل الخبر الذي يأتي به هؤلاء، ليتخذ على أساسه قرارات في غاية الخطورة، ترتبط بمستقبل ومصير أمة من الناس، يجعله أكثر دقة، ووضوحاً، وأبعد عن اللبس، وعن احتمالات تدخل الأهواء في صياغته وفي أدائه. بالإضافة إلى أنه يقطع العذر لمن يريد أن يغدر ويمكر، ثم يجنب

نفسه عواقب هذا الغدر والمكر، حتى تلوح له بوادر فشله، وخيبته. إذ لا بد أن يحيق به مكره السيئ، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله.

والملفت للنظر هنا بالذات: أنه «صلى الله عليه وآله» لا يختار لهذه المهمة أناساً عاديين، بل يختار لها الرؤساء والكبراء الذين يحترمهم رؤساء بني قريظة. وقد اختار «صلى الله عليه وآله» أن يكونوا جميعاً من الأنصار، وفيهم خصوص سعد بن معاذ، سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج، لكي يلمس اليهود وجود التفاهم والانسجام الكامل، والعميق والراسخ فيما بين هاتين القبيلتين، اللتين لهما تاريخ طويل من الصراع. ثم ليستمعوا من هذين الزعيمين، وخصوصاً من سعد بن معاذ، ما يزيل لهم كل شبهة ويدفع أي لبس أو تشكيك في حقيقة موقفهما.

مع ملاحظة: أن بين بني قريظة وبين الأوس حلف وعهد، يلزمهم الوفاء به. ثم إن هذه البادرة منه «صلى الله عليه وآله» ما هي إلا تعبير لهم عن حسن النية، وتدخل في سياق تهيئة الأجواء لهم ليعودوا عن قرارهم الخياني، إذا كانوا يطمعون بوفاء سعد وقبيلته لهم، وهم الذين يفترض بهم أن يعيشوا معهم بعد رحيل الأحزاب، وعليهم أن يفكروا بأن لا يحرقوا السفن وراءهم، فإن ذلك سوف يحرمهم من السلامة في نهاية المطاف.

طريقة الرمز في نقل المعلومات الحساسة:

وقد طلب «صلى الله عليه وآله» من رسله إلى بني قريظة: أن يستعملوا طريقة الرمز في تأدية المعلومات إليه، إذا كانت تلك المعلومات ذات طابع خاص يميزها بالخطورة والحساسية، وكان للجهر بها أثر سلبي على المعنويات.

كما أن ذلك يفرض أن يكون الذين يتم اختيارهم لمهمات من هذا القبيل لديهم المؤهلات الكافية لاختيار أسلوب الرمز المناسب مع قدرتهم على تصنيف المعلومات نفسها وفقاً للخطة التي ترسمها القيادة.

البشائر النبوية بالنصر:

وحين بلغ النبي «صلى الله عليه وآله» خبر نقض بني قريظة للعهد، الذي من شأنه أن يهد العزائم، ويثير حالة من الهلع في صفوف أهل الإسلام فإنه يعلن بالتكبير، الذي يؤذن بالغلبة والفلاح والنجاح، ثم يبشرهم بالنصر الأكيد الساحق، وبالسيطرة على العالم بأسره.

ولكنه «صلى الله عليه وآله» لم يذكر لهم مضمون البشارة إلا بعد أن اضطجع وتقنع بثوبه، وطال انتظارهم له، واشتد عليهم البلاء والخوف فجاءت البشارة لتبخر ذلك الخوف، وتكشف البلاء، وليفهمهم أن كلامه هذا ليس لمجرد التطمين ورفع المعنويات.

حدة سعد بن عبادة:

وقد أشرنا فيما سبق: إلى أن وصفهم لسعد بن عبادة بالحدة ليس له ما يبرره، ويبدو أن ذلك من تزييفات الحاقدين على سعد، لإقدامه على طلب الخلافة في يوم السقيفة، وهو ذنب يصعب أن يغفره له الآخرون، وإن كان أبو بكر قد استطاع بما لديه من حنكة ودهاء أن يقلب الأمور رأساً على عقب، ويفوز هو بالأمر كما يعلمون.

كما أن سعداً هو والد قيس نصير عليٍّ والحسن، والمجاهد بين أيديهما في سبيل الله.

أسيد بن حضير:

وقد ذُكر أسيد بن حضير فيما سبق كبديل عن بعض الشخصيات التي أرسلها النبي «صلى الله عليه وآله» لكشف خبر بني قريظة ثم أعطوه دوراً هاماً جداً، وهو أنه قد أخبر بني قريظة بتفاصيل ما سوف يجري لهم، وقد تحقق ما قال حرفاً فحرفاً، وكأنه يقرؤه في كتاب.

ونحن لا نصدق كل ذلك عن أسيد، الذي كان يحظى بعناية خاصة من قبل بعض التيارات؛ لأنه كان قريب أبي بكر، وكان له دور هام في توطيد أمر أبي بكر في يوم السقيفة، وكان أحد المهاجمين لبيت فاطمة «عليها السلام» وكان للسلطة اهتمام ظاهر به، وسعي لتسطير الفضائل والكرامات له، ومنحه الأوسمة، بسبب وبلا سبب[1].

فضيلة مكذوبة للزبير:

عن عبد الله بن الزبير، قال: كنت يوم الأحزاب، أنا وعمر بن أبي سلمة مع النساء في أطم حسان، فنظرت، فإذا الزبير على فرسه يختلف إلى بني قريظة مرتين أو ثلاثاً، فلما رجعت قلت: يا أبت رأيتك تختلف!

قال: رأيتني يا بني؟!

قلت: نعم.

قال: كان رسول الله «صلى الله عليه وآله» قال: من يأت قريظة، فيأتيني بخبرهم؟!

---

(١) راجع كتابنا «حديث الإفك» ـ فصل: الفضائل والسياسة.

فانطلقت، فلما رجعت جمع لي رسول الله «صلى الله عليه وآله» أبويه، فقال: «فداك أبي وأمي»[١].

وفي رواية أخرى: أن عمر بن الخطاب لما أخبر النبي «صلى الله عليه وآله» بنقض بني قريظة للعهد، قال «صلى الله عليه وآله»: من نبعث يعلم لنا علمهم؟!

فقال عمر: الزبير بن العوام.

فكان أول من بعث رسول الله «صلى الله عليه وآله» من الناس، الزبير بن العوام، فقال: اذهب إلى بني قريظة، فذهب الزبير فنظر، ثم رجع، فقال: يا رسول الله، رأيتهم يصلحون حصونهم، ويدربون طرقهم، وقد جمعوا ماشيتهم.

فذلك حين قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: إن لكل نبي حوارياً وحواريي الزبير ابن عمتي.

---

(١) المواهب اللدنية ج١ ص١١٢ والسيرة الحلبية ج٢ ص٢١٧ وراجع ص٣٢٧ و٣٢٨ كلاهما عن الشيخين. وقال الترمذي: حديث حسن والتاريخ الكبير للبخاري ج٦ ص١٣٩.

وقول الزبير الأخير: موجود في السيرة النبوية لدحلان ج٢ ص٥ و١٠ وكذا في سبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٦٢ لكنه لم يصرح ببني قريظة وحدائق الأنوار ج٢ ص٥٩٠ عن الصحيحين، وليس فيهما تصريح ببني قريظة أيضاً.

وفيه: أنه لما قال له الزبير: أنا. قال: إن لكل نبي حواري وإن حواريي الزبير، وراجع: صحيح البخاري كتاب أصحاب النبي، باب مناقب الزبير.

ثم تذكر القصة إرسال السعدين إلى بني قريظة[1].

ونقول:

إن هذه الرواية لا تصح، وذلك للأمور التالية:

أولاً: إنها تخالف سائر الروايات وتناقضها؛ لأنها مجمعة على أن السعدين هما اللذان جاءا بخبر نقض بني قريظة للعهد.

وحاول البعض توجيه ذلك، ورفع التنافي فقال: «لا منافاة بين إرسال الزبير وإرسال هؤلاء، لاحتمال أنهم أرسلوا دفعة، أو بعد إرساله، وخص هؤلاء القوم بالإرسال لأنهم حلفاؤهم، فيحتمل أن يرجعوا إلى العهد بعد نقضه حياء من حلفائهم، فغلبت عليهم الشقوة»[2].

وقال الحلبي: «ولعل هذا ـ أي إرسال السعدين ومن معهما ـ كان بعد إرسال الزبير إليهم ليأتي بخبرهم، هل نقضوا العهد استثباتاً للأمر»[3].

ونقول:

إن احتمال إرسال الزبير بعد تلك الجماعة ليس له ما يبرره، إذ إن إخبار هؤلاء الكبار كان يكفي في ثبوت هذا الأمر لديه «صلى الله عليه وآله».

وأما إرسال الزبير قبلهم، فهو أيضاً في غير محله، إذا كان «صلى الله عليه وآله» عازماً من أول الأمر على إرسال تلك الجماعة، إذ إن إرساله لا يفيد شيئاً في حصول اليقين له «صلى الله عليه وآله»، أما مجرد الاحتمال فقد

---

(١) المغازي للواقدي ج٢ ص٤٥٧ وإمتاع الأسماع ج١ ص٢٢٧.

(٢) اليسرة النبوية لدحلان ج٢ ص٥.

(٣) السيرة الحلبية ج٢ ص٣١٧.

حصل بإخبار عمر له أولاً حسبما تقدم.

ثانياً: أضف إلى ما تقدم: أننا لم نفهم السر في أن الزبير حين أرسله النبي «صلى الله عليه وآله» ليأتيه بخبرهم، قد تردد إليهم مرتين أو ثلاثاً، ألم تكن المرة الأولى كافية لوقوفه على حقيقية أمرهم؟! ولماذا الترديد بين المرتين والثلاث، فهل نسي ولده عبد الله عدد المرات التي رصدها وسأل أباه عنها؟!

ثالثاً: إننا لم نعرف وجه تسمية الأطم بـ «أطم حسان»، مع أن النساء كن في أطم بني حارثة، إلا أن يكون قد أراد الإشارة إلى أن جبن حسان قد تجلى في هذا الأطم بالذات، ثم اشتهر به بسبب ذلك، ولكن ذلك ـ على كل حال ـ يحتاج إلى إثبات.

رابعاً: قال ابن عبد البر: «ثبت عن الزبير أنه قال: جمع لي رسول الله «صلى الله عليه وآله» أبويه مرتين: يوم أحد، ويوم بني قريظة، فقال: «ارم فداك أبي وأمي».

فقال: ولعل ذلك كان في أحد: «إن لكل نبي حوارياً، وإن حواريي الزبير الخ..»[1].

خامساً: إن ابن الزبير كان يوم الخندق طفلاً صغيراً، لا يعقل مثل هذه الأمور، فلا يصح أن يسأل أباه هذا السؤال، ثم يجيبه أبوه بذلك الجواب الذي لا يدرك مغزاه إلا ذو الحجى، ولا يخاطب به طفلاً صغيراً، عمره على أبعد الأقوال أربع سنوات، أو سنتان ونصف سنة ـ كما هو قول الأكثر ـ

---

(١) السيرة الحلبية ج٢ ص٣١٧.

فضلاً عن القول الذي يذكر: أنه ولد في أحد، أو في الخندق بالذات، ولتوضيح ذلك نقول:

رغم أنهم يقولون: إن ابن الزبير كان أول مولود في الإسلام من المهاجرين[1]، مع وضوح خطأ الرازي في قوله: إنه أول مولود ولد في الإسلام[2] ـ رغم ذلك ـ فإنهم قد اختلفوا في تاريخ ولادته، على النحو التالي:

١ ـ فريق يقول: إن أسماء حملت بعبد الله في مكة، وخرجت مهاجرة إلى المدينة، فلما دخلت المدينة نزلت قباء، فولدته بقباء[3].

٢ ـ وبعضهم أطلق القول في ولادته، فقال: ولد عام الهجرة، أو ما

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ج٢ ص٢٣١ والإستيعاب (مطبوع بهامش الإصابة) ج٢ ص٣٠١ و ٣٠٢ وتهذيب الأسماء ج١ ص٢٦٦ وسير أعلام النبلاء ج٣ ص٣٦٣ و ٣٦٥ ومستدرك الحاكم ج٣ ص٥٤٨ وتلخيصه للذهبي (مطبوع بهامشه) وتاريخ الصحابة ص١٥٠ وتهذيب الكمال ج١٤ ص٥٠٩ وراجع: أسد الغابة ج٣ ص١٦١ ومختصر تاريخ دمشق ج١٢ ص١٧٠ و ١٧١ و ١٧٢ والبداية والنهاية ج٣ ص٢٣٠ والسيرة الحلبية ج٢ ص٨٩ و ٨٠ والتبيين في أنساب القريشيين ص٢٥٧ وتهذيب التهذيب ج٥ ص٢١٣ والإصابة ج٢ ص٣٠٩ و ٣١٠.

(٢) الجرح والتعديل ج٥ ص٥٦ وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال ص١٩٧.

(٣) تاريخ الصحابة لابن حبان ص١٥٠ والإستيعاب (بهامش الإصابة) ج٣ ص٣٠١ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص٢٣١ والتاريخ الكبير ج٥ ص٦ وحلية الأولياء ج١ ص٣٣٣ ومختصر تاريخ دمشق ج١٢ ص١٧١ والتبيين في أنساب القريشيين ٢٥٧ والسيرة الحلبية ج٢ ص٧٩ والثقات ج٣ ص٢١٢ والجمع بين رجال الصحيحين ج١ ص٢٤٠ ونسب قريش لمصعب ص٢٣٧.

يقرب من هذه العبارة، وبعضهم ذكر ذلك بلفظ قيل[1].

٣ ـ ونجد الآخرين يقولون: إنه ولد في شوال السنة الثانية للهجرة النبوية الشريفة[2].

والقائلون بهذا القول هم الأكثر[3].

لكن عبارة عدد منهم هكذا: هاجرت به أمه وهي حامل، فولد بعد الهجرة بعشرين شهراً[4].

---

(١) راجع: البداية والنهاية ج٣ ص٢٣٠ ووفيات الأعيان ج٣ ص٧١ ومستدرك الحاكم وتلخيصه للذهبي ج٣ ص٥٤٨ والإصابة ج٢ ص٣٠٩، وراجع: سيرة أعلام النبلاء ج٣ ص٣٦٣ وأسد الغابة ج٣ ص١٦٣ وتهذيب الكمال ج١٤ ص٥٠٩ وتهذيب التهذيب ج٥ ص٢١٣ وتهذيب الأسماء ج١ ص١٦٦ وأنساب الأشراف ج٥ ص٣٧٥.

(٢) الإستيعاب بهامش الإصابة ج٣ ص٥٥١ والإصابة ج٢ ص٣٠٩ عن الواقدي ومن تبعه، وسير أعلام النبلاء ج٣ ص٣٦٣ وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال ص١٩٧ وتهذيب الأسماء ج٢ ص٢٦٦ والمحبر ص٢٧٥ و٢٧٦ وراجع: السيرة النبوية لابن كثير ج٢ ص٢٣١ وأسد الغابة ج٣ ص١٦١ ومختصر تاريخ دمشق ج١٢ ص١٧١ عن الزبير بن بكار والسيرة الحلبية ج٢ ص٨٠ عن الواحدي وغيره.

(٣) تهذيب التهذيب ج٥ ص٢١٤ والإستيعاب (مطبوع بهامش الإصابة) ج٣ ص٥٥١.

(٤) راجع: الإستيعاب (بهامش الإصابة) ج٢ ص٣٠١ وتهذيب التهذيب ج٥ ص٢١٣ وراجع: أسد الغابة ج٣ ص١٦١ وتهذيب الكمال ج١٤ ص٥٠٩ والبداية والنهاية ج٣ ص٢٣٠ والمحبر ص٢٧٥ و٢٧٦ والجمع بين رجال الصحيحين لابن العسقلاني ج١ ص٢٤٠.

قال العسقلاني: «لا يتجه إلا بتقدير أن يكون قد أقام في بطنها نحو سنتين، ولم أر من صرح بذلك»[1].

ولعل هذا هو السبب في أنه قد استظهر أن يكون القول بولادته في أول سنيّ الهجرة أقرب إلى الصحة، وإن كان الأكثر على خلافه[2].

٤ ـ ويؤيد القول بأنه قد ولد بعد الهجرة بعشرين شهراً، وأنه قد ولد في السنة الثانية قولهم: إنه قتل في السنة الثلاث وسبعين، وله اثنتان وسبعون سنة[3].

٥ ـ إنهم يقولون: إن النعمان بن بشير ولد قبل ابن الزبير بستة أشهر، على رأس أربعة عشر شهراً من الهجرة[4].

وقال الذهبي: ولد سنة اثنتين[5].

وقالوا أيضاً: إن النعمان هذا قد ولد قبل وفاة النبي «صلى الله عليه

---

(١) تهذيب التهذيب ج٥ ص٢١٣ و ٢١٤ وراجع: السيرة الحلبية ج٢ ص٨٠.

(٢) تهذيب التهذيب ج٥ ص٢١٤.

(٣) الإستيعاب (مطبوع بهامش الإصابة) ج٢ ص٣٠٣ ومختصر تاريخ دمشق ج١٢ ص١٩٨ وج ٢٤ ص١٩٠ ووفيات الأعيان ج٣ ص٧٤ والجمع بين رجال الصحيحين ج١ ص٢٤٠ والكامل في التاريخ ج٢ ص٣٥٩ وطبقات ابن سعد (ط دار صادر) ج٥ ص٤٣.

(٤) البداية والنهاية ج٣ ص٢٣٠ والإصابة ج٣ ص٥٥٩ والإستيعاب (مطبوع بهامش الإصابة) ج٣ ص١٥١ وتهذيب التهذيب ج١٠ ص٤٤٨ و ٤٤٧ والمحبر ص٢٧٦ وتهذيب الأسماء ج٢ ص١٢٩.

(٥) سير أعلام النبلاء ج٣ ص٤١١ وتهذيب التهذيب ج١٠ ص٤٤٨.

وآله» بثمان سنين وسبعة أشهر.

وقيل: ست سنين. والأول أصح.

وقال ابن الزبير: النعمان أكبر مني بستة أشهر. وهو أول مولود للأنصار بعد الهجرة[١]. وذلك يعني أن ابن الزبير قد ولد في السنة الثالثة.

٦ ـ إنهم يقولون: إن ابن الزبير يكبر مروان بن الحكم بأربعة أشهر[٢]. ومروان ولد في الثالثة يوم أحد كما عن مالك، أو في الرابعة، أو يوم الخندق ـ كما عن ابن عبد البر ـ أو في الثانية. فراجع ترجمة مروان في كتب السير والتراجم[٣]..

٧ ـ ويقولون أيضاً: كان لابن الزبير حين موت النبي «صلى الله عليه وآله» ثمانية سنين وأربعة أشهر[٤].

ولعل قول ابن إسحاق: كان له تسع سنين[٥]، لا ينافي ذلك؛ إذا كان قد

---

(١) أسد الغابة ج٥ ص٢٢.

(٢) سير أعلام النبلاء ج٣ ص٤٧٦.

(٣) راجع على سبيل المثال: الإصابة ج٣ ص٤٧٧ و ٤٧٨ وتهذيب الأسماء ج٢ ص٨٧ وأسد الغابة ج٤ ص٣٤٨ وتهذيب التهذيب ج١٠ ص٩١ و ٩٢ والإستيعاب (مطبوع بهامش الإصابة) ج٣ ص٤٢٥ والبداية والنهاية، وتاريخ الأمم والملوك (ط دار المعارف) ج٥ ص٦١١ وطبقات ابن سعد (ط دار صادر) ج٥ ص٣٦ وفي مختصر تاريخ دمشق ج٢٤ ص١٨٤ و ١٧٩: أن عمر مروان حين موت النبي كان ثمانية سنين. وراجع: الكامل في التاريخ ج٤ ص١٩٢

(٤) راجع: تهذيب الكمال ج١٤ ص٥٠٩ وسير أعلام النبلاء ج٣ ص٣٦٤ ومختصر تاريخ دمشق ج١٢ ص١٧١.

(٥) الإصابة ج٢ ص٣٠١ وتهذيب التهذيب ج٥ ص٥١٤.

قال ذلك على سبيل التقريب، لا التحديد..

٨ ـ قال العسقلاني عن عمر بن أبي سلمة: «ولد بالحبشة في السنة الثانية. وقيل: قبل ذلك. وقبل الهجرة إلى المدينة.

ويدل عليه قول عبد الله بن الزبير: كان أكبر مني بسنتين الخ..»[١].

وجزم ابن عبد البر بأنه ولد في الثانية، وعند الذهبي: ولد في أواخرها[٢].

٩ ـ وأخيراً: فقد روى البخاري عن عروة: أن الزبير أركب ولده عبد الله يوم اليرموك فرساً وهو ابن عشر، ووكل به رجلاً[٣].

وقد كانت وقعة اليرموك سنة ١٣هـ أو ١٥هـ. وعليه الجمهور[٤]. ويدل عليه كتاب الصلح الذي كتبه خالد للنصارى حينما أراد النهوض إلى اليرموك، وقد أرخه بسنة خمس عشرة[٥]. فتكون ولادة ابن الزبير في السنة الثالثة أو الخامسة، وهو ما أيدته بعض الشواهد المتقدمة، خصوصاً قولهم

---

(١) الإصابة ج٢ ص٥١٨ وتهذيب التهذيب ج٧ ص٤٥٦.

(٢) الإستيعاب (مطبوع بهامش الإصابة) ج٢ ص٤٧٥ وراجع: الثقات ج٣ ص٢٦٣ والجمع بين رجال الصحيحين ج١ ص٣٣٩ والمحبر ص٢٩٣ وراجع: تهذيب التهذيب ج٧ ص٤٥٦ وتهذيب الأسماء ج٢ ص١٦

(٣) صحيح البخاري ج٣ كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، وسير أعلام النبلاء ج٣ ص٣٦٥.

(٤) عمدة القاري ج١٧ ص٩٠ وذكر هذا التاريخ في مصادر كثيرة، فراجع على سبيل المثال: تاريخ ابن الوردي ج١ ص١٩١ وإرشاد الساري ج٦ ص٢٥٢ وفتح الباري ج٧ ص٢٣٣.

(٥) فتوح البلدان ص١٣٠ والبداية والنهاية ج٧ ص٢١.

في ولادة مروان. وقد اعتذر العسقلاني وغيره عن قصة اليرموك هذه: بأنها قد جاءت على سبيل إلغاء الكسر[1].

ولكنه اعتذار واه، لأن إلغاء خمس أو ثلاث سنوات، من أصل خمس عشرة سنة، بعيد ومستهجن، خصوصاً إذا كان في مقام التحديد، من أجل إظهار فضيلة وخصوصية خاصة للزبير، ولو سلمنا، فإنما يقبل هذا الاعتذار بعد ثبوت كون سن عبد الله هو عشر سنين، وهو لم يثبت.

بل الظاهر: خلافه كما قلنا.

من الذي شاتم بني قريظة؟!

وقد ذكرت إحدى الروايات السابقة: أن ابن إسحاق وبعضاً آخر يقولون: إن سعد بن عبادة هو الذي شاتم بني قريظة، وكان رجلاً فيه حدة، ونقول:

١ ـ قد روي عن ابن إسحاق ما يخالف ذلك، وأن الذي شاتمهم هو ابن معاذ.

٢ ـ إن قول أسيد بن حضير لكعب بن أسد: أتسب سيدك يا عدو الله، يشير إلى: أن الذي شاتمهم هو ابن معاذ، لأنه هو الذي كان بينه وبينهم حلف، ويحسن وصفه بأنه سيدهم. أما ابن عبادة فحاله معهم حال سائر الناس.

إلا أن يقال: إن مراده بالسيد هو رسول الله « صلى الله عليه وآله» نفسه.

أو أن يقال: إنه إنما قال ذلك لإظهار عظمة ابن عبادة وامتيازه عليهم،

---

(١) فتح الباري ج٧ ص٢٣٣ وعمدة القاري ج١٧ ص٩١ وإرشاد الساري ج٦ ص٢٥٣.

بالإسلام، وبأنه رئيس قومه. والذي نستقربه هو: أن المشاتمة قد حصلت لكلا الرجلين، فابن معاذ شُتم من قبل كعب بن أسد، وابن عبادة شُتم من قبل شاس (نباش) بن قيس حسبما تقدم، ثم قال أحدهما للآخر: دع عنك مشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة.

عمر عرف بأمر بني قريظة:

ويذكر النص التاريخي: أنه لما نقض بنو قريظة العهد «بلغ عمر بن الخطاب نقض بني قريظة العهد، فأعلم رسول الله «صلى الله عليه وآله» بخبرهم»[1].

ونقول:

إن لم تكن هذه القضية كاذبة، فإننا لا ندري ما السبب في أن ذلك بلغ خصوص عمر بن الخطاب دون النبي «صلى الله عليه وآله»، ودون كل المسلمين الآخرين؟ فهل كان لعمر جواسيس لدى بني قريظة يخبرونه بكل مواقفهم وتحركاتهم؟ أم أنه علم ذلك من جهة المشركين؟

إننا نعترف بالعجز عن إدراك الحقيقة، وليس في النصوص التي بين أيدينا ما يكشف لنا عن هذا الأمر..

ولا نريد أن نذكر القارئ بما ذكرناه في غزوة أحد، وبما سيأتي في هذه الغزوة من أن رموز الشرك، كخالد بن الوليد، وضرار بن الخطاب كانوا يتحاشون إيصال الأذى إلى عمر بن الخطاب، ولا ندري سر وسبب ذلك،

---

(١) راجع: سبل الهدى والرشاد ج٤ ص٥٢٧ وبقية المصادر تقدمت تحت عنوان: لا بد من التثبت.

لا سيما وأنهم يصرحون له بأنهم يتخذون ذلك يداً لهم عنده.

هذا بالإضافة: إلى قضايا أخرى لا مجال للتذكير بها الآن، رغم أن أهل الشرك إلى أن انقضت غزوة الخندق، كانوا يعتقدون أن بالإمكان اقتلاع الإسلام واستئصاله من جذوره، وكانوا يهتمون بقتل كل من تصل إليه أيديهم، ولا سيما من بني هاشم، كحمزة وعبيدة بن الحارث، وعليٍّ «عليه السلام» وغيرهم. فلماذا يريدون قتل هؤلاء، ولا يريدون قتل غيرهم من رجالات الإسلام؟

أحلاف عبادة بن الصامت:

ويذكر البعض: «أنه لما خرج النبي «صلى الله عليه وآله» يوم الأحزاب قال عبادة بن الصامت: يا رسول الله، إن معي خمس مئة رجل من اليهود، وقد رأيت أن يخرجوا معي، فأستظهر بهم على العدو..

فأنزل الله تعالى: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَل ذَلكَ فَلَيْسَ مِنَ الله فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى الله الْمَصِيرُ﴾[1]»[2].

ونقول:

إن هذا الكلام لا يصح.

أولاً: لأن ظاهر الآية يأبى الانطباق على واقعة من هذا القبيل فإنها تزجر عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ولم يكن عبادة يريد أن

---

(١) الآية ٢٨ من آل عمران.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج٤ ص٥٨ وتفسير الخازن ج١ ص٢٢٧.

يتخذهم أولياء من دون المؤمنين، بل هو يريد أن يشركهم في الدفاع عن أهل الإيمان، حباً منه بسلامة المؤمنين. فهذا التحذير القوي، واستثناء حالة مصانعتهم تقية، والتنصيص على أنه يواليهم من دون أهل الإيمان يبعد القضية عن أن تكون في شأن عبادة.

ثانياً: من أين يأتي عبادة بخمس مئة يهودي ليقاتلوا معه؟ فقد أُجليَ بنو قينقاع وبنو النضير عن ديارهم، ولم يكونوا ليدافعوا عن الإسلام، بل كانوا هم المحرضين للأحزاب على حرب النبي «صلى الله عليه وآله» والمسلمين. وبنو قريظة قد نقضوا العهد، وأصبحوا مع الأحزاب.

عريش جديد لأبي بكر:

ويستفاد من كلام الواقدي: أنه قد كان ثمة ما يشبه العريش ـ عريش بدر ـ لأبي بكر فيذكر: أن أبا بكر كان مع النبي «صلى الله عليه وآله» «في قبة من أدم مضروبة في أصل الجبل، عند المسجد الذي في أسفل، معه أبو بكر، والمسلمون على خندقهم يتناوبون»[1].

فجاء عمر إلى النبي «صلى الله عليه وآله» وأخبره بنقض بني قريظة للعهد.

لكن قد تقدم: أن ذلك لا يصح، أو على الأقل يُشك كثيراً في صحته. وقد تحدثنا في غزوة بدر عن عدم صحة قصة العريش المزعوم لأبي بكر والنبي «صلى الله عليه وآله» فراجع ما ذكرناه هناك..

---

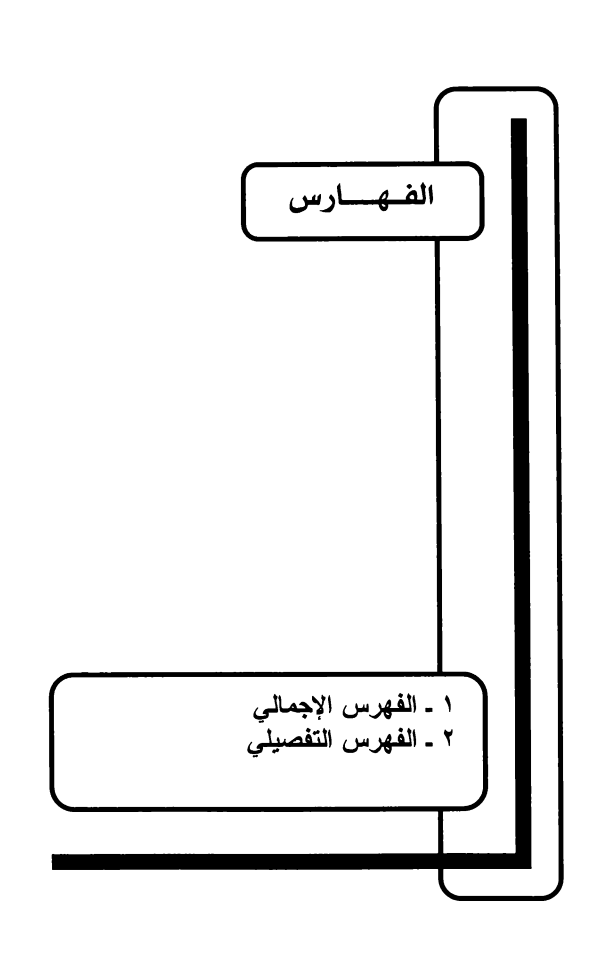
(١) المغازي للواقدي ج٢ ص٤٥٧.

ولسنا ندري لماذا ترك أبو بكر الناس يتناوبون على خندقهم؟

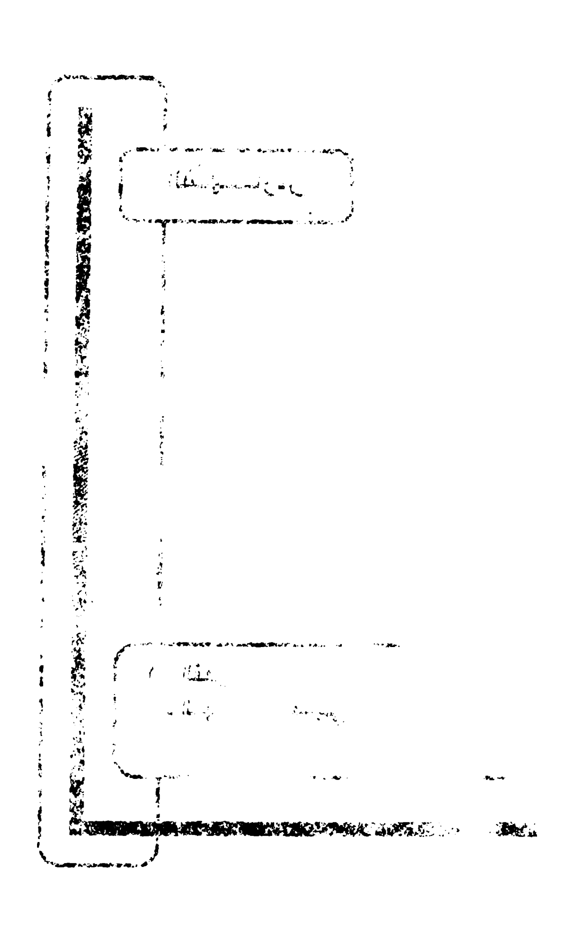
أليس هو خندقه أيضاً؟

ولماذا استثناه رسول الله «صلى الله عليه وآله» ليكون معه دون كل من عداه؟!

وكيف لم يعترض على ذلك أي من الناس الذين كانوا يقومون بواجباتهم في الحفظ والحراسة وكان النبي «صلى الله عليه وآله» نفسه يفعل ذلك أيضاً؟!



الفهـــارس



١ ـ الفهرس الإجمالي

٢ ـ الفهرس التفصيلي

الفصل الثاني: حدث وتشريع

الفصل الثالث: عظات وكرامات أو سياسات إلهية

الفصل الرابع: بدر الموعد

القسم السابع: من الخندق إلى الحديبية

الباب الأول: التحضيرات لغزوة الخندق

الفصل الأول: الأحزاب إلى المدينة

الفصل الثاني: الخندق في خطة الحرب والدفاع

الفصل الثالث: حفر الخندق: أحداث ودلالات

الفصل الرابع: كرامات في نطاق السياسة الإلهية

الفصل السادس: غدر بني قريظة

الفهارس: